العوده إلى مدينة الطائف

(روايه)

عبدالله عصام الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

صحوت قبل أن تبسط الشمس أشعتها على سائر الكون، عيناي أسرهما السهد، أخذت مقعدي على عتبة باب الدار الخشبي المتهالك أسمع صريره اللافت يخترق السكون كلما ملت إليه بثقلي، تكورت بعد أن احتضنت صدري بيداي إثر نسمة باردة شاردة انسابت عبر الشارع الترابي المبلل برذاذ قطرات سحابة مرت من فوقه بالأمس، الشارع خالٍ إلا من بعض السقاة، بالكاد أتبين ملامحهم حينما كانوا يمرون بالقرب مني، يطرقون أبواب بعض الدور ويدلفون لتزويد قاطنيها بالماء، كنت أسبق الشمس في الظهور.

عتبتي باب الشارع، ألجأ إليها بعد أن أكون قد تقلبت لدقائق على مرتبتي الأرضية وبعد أن يكون قد تملكني إحساس بعدم مقدرتي على مواصلة النوم كبقية أفراد أسرتي، أحيانًا أميل إلى الاسترخاء ويسيطر عليَّ النوم وأنا جالس في مكاني.

لم أبرح مقعدي إلا بعد أن أطلت الشمس على الكون بكامل استدارتها وأنارت الأرض، الطلبة أخذوا في الظهور تباعًا الذين عادة ما تكون أحلامهم قد اغتصبت منهم وكنت أراهم يسيرون بتثاقل ويجرون أرجلهم جرًا ويفركون أعينهم.

كعادته صباح كل يوم خرج أخي الوحيد محمود قاصدًا مقر عمله الذي لا يبعد كثيرًا عن دارنا، تفوه بكلمات قليلة هامسة لم أستوعب محتواها ورمقني بنظرة قاسية وأدار لي ظهره وسار بخطى سريعة، أرسلت وراءه نظراتي أتبعه إلا أنه أخذ منعطفًا واحتجب، تعودت على فظاظته غير المبررة.

ليس كل شيء باسمًا في هذه الحياة.

ما زلنا في بداية فصل الشتاء، دغدغة الهواء الباردة تسللت إلى داخلي، بمرور الوقت البطيء ازدادت حماوة الشمس التي أشرقت منذ قليل وأخذت في زحفها رويدًا رويدًا هابطة من فوق الجدار الطيني إلى أن لامست منكبي، شعرت بدفئها وتنبهت، كنت ما بين النوم واليقظة، لكزت بمرفقي إحدى ضلفتي الباب فانفتح، نفضت غبار خمولي وانتصبت واقفًا وأسرعت الخطى لهاتف تخيلته سرى لي من عمق الدار.

كم مضى لي من الوقت في هذا المكان؟ لا أعلم.

الكل يغط في سبات عميق، السكون يخيم على جنبات الدار التي تضم والدتي فاطمة، وأختي نبيلة التي تصغرني، وزوجة أخي، وابنًا رضيعًا لها في عامه الأول من عمره اعتدت أن أصحو على سماع صوت بكائه فجر كل يوم ويصل إلى أذني صوت حفيف نعل والدتي بفناء الدار والتي تعودت على أداء صلاة الفجر قبل شروق الشمس.

ليس لديَّ ما يشغلنى، اعتدت قبل فترة الظهيرة وفي أوقات متفاوتة الخروج إلى الشارع لمرات في اليوم الواحد، أسير على غير هدى ألتقي مصادفةً في طريقي بعض الصحاب، أقف برهة أتبادل معهم بعض الأحاديث ثم ينصرفون لحالهم، كان الكل يمضي لمبتغاه وأجدني وحيدًا، من بعدها أنكفئ بالعودة إلى الدار، أسير في فنائه الواسع الذي يطل على السماء، أدور حول شجرة العنب التي تتوسطه، أعيش تحت وطأة بطالة مفروضة، بمرور الأيام أدمنت التثاؤب.

أمي تتلصص عليَّ من وراء نظارتها التي تنزلق لفوق أرنبة أنفها وترمقنى من خلال النافذة الضيقة للمطبخ، أحيانًا أرى شيئًا من الضيق في ملامحها وأسمع صوتها الخفيض وكأنها تكلم نفسها "الله يهديك يا صالح"، أعرف ما ترمي إليه.

أمي بمفردها تقوم بإعداد وجبات الطعام. في أوقات كثيرة كنت ألمحها تبدي ضيقًا وتبرمًا مستترًا جراء عدم وقوف زوجة أخي معها في إدارة بعض شؤون الدار التي ليس بمقدورها وحدها القيام بإنجازها كلها.

تنال في أوقات ضيقة معاونة أختي نبيلة التي تكون عادة منشغلة باستذكار دروسها، وعلى الرغم من كل هذا حنانها يلف المكان.

زوجة أخي تتلكأ بحجة العناية بطفلها، هي دائمة الوقوف غير

المبرر أمام المرآة لمرات حتى في غياب زوجها، كان الحمل ثقيلاً عليها، تقدم بها العمر ووهنت عزيمتها، ألتمس لها العذر؛ كان الله في عونها.

أنجرف إلى نقاش يومي حاد يفضي إلى جدال مستفز مع أخي الذي يكبرني بخمسة أعوام، تعلو أصواتنا ويسمعها من بالجوار، تنفجر أمي أحيانًا بالبكاء خشية أن يجرفنا جدالنا إلى شجار يفسد علاقتنا الأخوية، هي وحدها تعرف مقدار عاقبة تأزم علاقتنا.

في بعض الأوقات عندما لا يجديها بكاؤها وتوسلاتها نفعًا تلوذ إلى جارتها، نسمع صوتها المصحوب بنبرات مختنقة "اسكتوا لقد فضحتونا" وتولي وهي تسحب عباءتها وراءها هاربة حانقة على تصرفاتنا.

أخي يمتلك في داخله مخزونًا من حب التسلط يداريه أمامنا ولكننا نلمسه من خلال تعاملاته وحشر أنفه في أمور تهمني ولا تعنيه في شيء، تجاذباته اليومية لا تتوقف معي، يتمحور جدالنا في الغالب حول امتناعي الذهاب إلى المدرسة بشكل فجائي، أكره المدرسة منذ الصغر، كنت أذهب إليها قسرًا تلبية لرغبة والدي واتقاءً لغضبه.

قراري بعدم مواصلة تحصيلي العلمي أزعج كل من بالدار.

كنت قدر الإمكان أتحاشى الاحتكاك به لعلمي بأن الاختلاف عادة تنجم عنه ويلات تصب فوق رأس أحد الأطراف.

لم تفلح محاولاته المتكررة في إقناعي العدول عن قراري، وبقيت مصرًا على موقفي.

قبل عام غيَّب الموت والدي إثر تعرضه لمرض عضال ألمَّ به بغتة ولم يمهله سوى بضعة أشهر أصابنا كلنا بالذهول، لم نقدر خلال تلك الفترة القصيرة من الأيام العصيبة التي مررنا بها عمل شيء سوى الالتفاف حول سريره والنظر إليه بأعين دامعة.

أصابنا فقده بالحزن العميق بعد أن كان يملأ لنا الدار حيوية ومهابة مصحوبة بحب جارف له منا جميعًا، من بعده الابتسامة تخلت عنا وابتعدت عن محيطنا.

لقد تخطيت الثالثة والعشرين من العمر، توفي والدي وهو يمتلك ويدير متجرًا كبيرًا في أحد أسواق مدينة الطائف لبيع مختلف أشكال المقتنيات الفضية الخاصة بالزينة والتحف المنزلية، إلى جانب تصنيع الفضيات والحلي النسائية التي تتزين بها عادةً بعض النسوة من القرويات، والتي كانت تصهر وتشكل في معمل صغير ملحق بالمحل يضم عددًا من العمالة الماهرة.

منذ الصغر كنت قد تعودت في أوقات فراغي أن أنضم إلى تلك العمالة لمشاركتهم أعمالهم، بمرور الوقت كسبت حرفية لافته وبرعت في صياغتها، والدي دفعني إلى الاهتمام بها بعد أن لمس انجذابي إليها وبراعتي في صياغتها.

حرمت منها وفقدت طعم الاستمتاع بمزاولتها من بعد وفاته مباشرة، أصبت بالإحباط والحسرة جراء قرار جماعي أتى من كل أفراد أسرتي الذين استقر رأيهم على عرض المحل والمعمل بكامل مقتنياتهما للبيع واقتسام الإرث فيما بيننا خشية الانزلاق إلى ما قد يفسد علاقتنا.

اتحدوا على تنفيذ هذا القرار دون تروٍ وذلك من بعد حوار أسري شائك امتد لأيام، كان لكل منهم حساباته، لم تثنِهم محاولاتي وتوسلاتي المتكررة في إقناعهم العدول عن بيعه، لم يقتنعوا بمقدرتي على تصريف شؤون وإدارة المحل، لم أعرف ما كان يجول في عقولهم، أصبت بصدمة وفقدت الأمل في مواصلتي العمل بها، وللمرة الأولى في حياتي شعرت بضعفي وتملكني إحساس بأنني أخفقت في إقناعهم الأخذ برأيي.

نالني مبلغ مجزي من المال يمكنني من امتلاك محل آخر أظن في مقدوري إدارته بكل كفاءة وتميز، ولكن لكي لا أدفع فاتورة المجازفة المتسرعة أخذت بمبدأ التريث وعدم المساس بما آل لي من مال.

في صبيحة هذا اليوم أتاني صوتها مصحوبًا بنبرة لم أتعود على سماعها من قبل: "مكوثك يا صالح في الدار طيلة النهار لن يفيدك، ابحث لك عن عمل يشغلك وينير لك مستقبلك ويعود عليك بالفائدة، المستقبل أمامك وعليك أن تعرف أنك أنت وحدك من يهتم بأمورك؛ الذي كان يحمل على عاتقه كل همومنا ذهب". قالتها بضيق ظاهر،

لم أسمع من قبل منها مثل هذه الكلمات، ماذا جرى؟! أعرف أنها ضاقت ذرعًا من تلميحات أخي وفاض بها.

آآآه.. الجرح الذي يدس أخي يده وينكئه كل يوم وضعت إصبعها عليه وزادته نزفًا، أعرف يقينًا أنه من بعد موت أبي أصبح صوت أخي هو الأكثر علوًا في هذه الدار التي لم تعد المكان الدافئ لي كما كانت من قبل، لديَّ إحساس بأنني ربما قد أثقلت عليهم وعلى أخي تحديدًا.

من دون وعي مني قلت لها: "حتى أنتِ يا أمي! لقد مللت العيش معكم، لن أرتاح إلا بعد أن أترك لكم هذه الدار بمن فيها وأرحل بعيدًا، قلتها بصوت مسموع، تفوهت من دون إدراك مني للكبوة اللفظية التي انزلق إليها لساني.

خلال ثوانٍ أدركت ثقل تلك الكلمات، جريت وقبلت يدها واحتضنتها؛ ضمتني إلى صدرها؛ سمعت دقات قلبها، لقد تكالبت عليَّ الضغوط والتلميحات. انسابت على خدي قطرات دموع حزينة شعرت بحرارتها، تدحرجت حتى لامست طرفي شفتاي، مسحتها خلسة، أعادت إليَّ طفولتي، لم أنم على صدرها منذ أعوام طوال.

أجمل سنوات الإنسان أيام طفولته، داهمني شعور بأننا مهما تقدم بنا العمر سنظل أطفالاً حتى اليوم الذي نفقدهم فيه.

ركنت بعدها وعدت إلى مراجعة ومحاسبة نفسي، أعرف يقينًا أن

كلماتها التي تفوهت بها تنشد من ورائها مصلحتي، حقًا لقد طالت أيام الركون والاسترخاء بينهم وعليَّ أن أستقل بذاتي وأصحو من إغفاءتي.

تذكرت والدي، منذ أن رحل، لم نهنأ يومًا بالوفاق، ماذا جرى هل كل من يفقدون آبائهم يصيبهم ما أصابنا؟! من بعده شعرنا بالغربة ونحن نعيش تحت سقف بيت واحد يضمنا جميعًا، وقت أن كان بيننا كنا ندور في فلكه، نصغى إليه عندما كان يتكلم، عندما كنا ننظر إلى عينيه نعرف ماذا يريد.

المظلة التي كنا نستظل تحتها انقشعت، الآن عرفنا أننا كنا نهنأ بحمايته، ونصفو برعايته.

لا يحس الإنسان بقيمة ما يمتلكه إلا عندما يفقده، تذكرت ذاك الراقد تحت الثرى.

ليته لم يرحل، ولكن...

لقد مر عام واحد وأنا أراوح مكاني، إلى متى أمكث هنا؟! جدال مفتعل من قبل أخي لن ينتهي، عليَّ أن أبحث عن سبب لخروج مقنع ومُجدٍ وأن أرحل بمباركتهم، لم يعد لي مكان بينهم، عليَّ أن أبحث عن موقع آخر بعيدًا عن هذا المكان قبل أن تتسع الهوة بيني وبين أخي بعد أصبح العيش بقربه مستحيلاً في هذه الدار التي ترعرعنا تحت سقفها.

ولكن لا أدري لماذا الأخ ابن البطن الواحدة يقسو على أخيه، تذكرت بأنه حدث أكبر من هذا عند بدء الخليقة، أخي قد يكون على حق وعليَّ أن ألتمس له العذر.

تحت وطأة هذه الظروف يجدر بي مجاراة المتغيرات التي طرأت على مجريات حياتي.

في صبيحة ذلك اليوم أتت لزيارتنا عمتنا بعد أن احتجبت فترة من الزمن، هذه الزيارة تختلف عن سابقاتها من الزيارات من مختلف الأوجه، فلقد أتت مصطحبة ابنتيها الوحيدتين اللتيين لم نرهما منذ زمن، واللتين نما إلى علمنا بأنهما تكالبت عليهما النوائب وترملتا في مقتبل عمرهما بتسلطها وفرض إرادتها على مستقبلهما.

نعرف بأن علو صوتها على صوت زوجها جعله مسلوب الرأي والإرادة، يتذكر جميعنا ردة فعله عندما كانت تتجادل معه وتتشبث برأيها في حضرة الغير، كان يهز رأسه يمنة ويسرة ويتمتم ببعض الكلمات أو يطأطئ رأسه ويلوذ بالصمت وكأنه لم يسمع شيئًا.

كما هي العادة بعد أن تبادلن كلمات الأشواق والترحاب وبعد أن مكثن قليلاً، وبصوت عالٍ موجهةً كلامها إلى عمتي "لقد آن الأوان لكي أزوج صالح يا حفيظة".

أمي تعرف سبب زيارتها مع ابنتيها بالذات في هذه الأيام لذا نطقت بتلك الكلمات، بعد سماعي لها وقفت وسلطت نظري على

الشارع من خلال الشباك الذي خلفي وكأنني أرقب شيئًا ما وأن الأمر لا يعنيني، أعرف ما تشير إليه, عمتي راقتها تلك الكلمات, رمقتني بنظرة وأخذت نفسًا عميقًا ورفعت أحد حاجبيها وزمت شفتها وكأنها تقول لنا لم آتِ لأجل هذا.

لم يضمنا مجلس واحد منذ زمن، الابنتان ترملتا في سن مبكرة، الأعوام تمضي وعجلة الزمن لم تتوقف عندهما، لم أرهما منذ سنوات، الانكسار بدا على ملامحهما، تمتلكان جمالاً لافتًا، فتنة تدفن في أعماقها رغبة مكبوتة ووجد حرمتا من مزاولته وافتقدتاه بفعل فاعل.

عشت بقربهما أيام طفولتي، كنت ألهو معهما، شاركتهما براءتهما، كنا نجري ونمرح في الأزقة القريبة من دورنا، أمهما نأت بهما بعيدًا عنا، عندما تخطتا سن الرابعة عشر كطائر يخفي صغاره عن أعين الطيور الجارحة، بعد طول غياب يقينًا هي وجهت بوصلتها نحو مكان آخر ولم تصل إلى هدفها وانكفأت علينا، هذا هو دأبها دائمًا تقترب لسبب خفي وتبتعد لسبب آخر.

قيل لي من قبل، إن الكبرى رقية سيقت إلى الاقتران بأحدهم ولم يدم زواجها منه سوى عام واحد ذاقت خلاله الأمرين، كان حصيلته ابن يبلغ الآن الخامسة من العمر، الكل يكيل الأسباب إلى حمق أمها.

طوال فترة وجودهن جلستا باستحياء كانتا صامتتين، بين لحظة

وأخرى كانتا تسترقا النظر إلى في خفر أنثوي، أشفقت عليهما.

الصغرى عاتكة التي تقاربني عمرًا كانت بين آونة وأخرى ترفع رأسها قليلاً وتنظر إليَّ باستحياء والحمرة تضرب وجنتها، مرت إليَّ مواقف كثيرة معها، كانت الأوفر جمالاً تقطر فتنة ورقة، تمتلك حضورًا وذكاءً لافتًا، كنا من خلال تلك الزيارات المتبادلة لأهالينا نختلي وننزوي بعيدًا عن أعينهم.

الحب الطفولي كان يغمرنا، كنا صغارًا وكانت أحلامنا تكبر بتعاقب الأيام، لقاءاتنا المنفردة كان العبث الطفولي يتخللها، كان لنا هوى عذري طاهر، كانت خطواتنا تسير في اتجاه واحد ظنًا منا بأن الأيام القادمة ستبتسم لنا ونحقق من خلالها أحلامنا. وكغيري من الناس كانت لي نفحات مع غيرها، خلقته المجاورة ولكنها لم تدم طويلاً.

في بعض أوقات خلوتي مع نفسي كانت ذاكرتي تتثاءب وتصحو وتذكرني ببعض وقفاتي التي لا تنسى معها، ما زالت ملتصقة بذاكرتي بقايا عبق رائحة الماضي. عندما كنا نلهو وأجري وراءها كنت أجذبها من ضفيرتها المنسدلة حتى خصرها التي كانت أمها تجدلها لها والتي كانت تتطوح يمنة ويسرة حين عدوها، عندها كانت تتوقف وتضع كفها على رأسها وتميل به قليلاً إلى الوراء وهي تقول لي بحنق مستحب يقطر دلالاً "إن فعلت مثل هذا مرة أخرى فسوف أشكوك لأمي"، وكأنها تشير إليَّ بطلب تكرار فعلتي هذه في المرات

القادمة، تلك إحدى نسمات الصبا العذبة وسنوات النقاء التي لن تتكرر.

ونحن نلهو أمي وعمتي كانتا تنظران إلينا بعين الرضا، كنا نراهما وكأنهما سعيدتان برؤيتنا على هذه الحال، كنا نظن بأن كلتيهما سائرتين مع نهجنا.

لم نكن ندري أن لكل واحدة تمنياتها واتجاهاتها، كان لكل واحدة أهداف تسعى إلى تحقيقها بمنأى عن الأخرى، بعد أن كبرنا لم تعيرانا أدنى اهتمام، أدارتا وجهيهما عنا ودفنتا أحلامنا، إلى أن ذابت وتلاشت بتعاقب الأعوام.

حب عمتي للمظاهر وسعيها اللاهث وراء امتلاك المال أعمى بصيرتها، لم تكن تدرك أن عاقبة تصرفاتها الحمقاء سوف تلقي بآمالها في نهاية الأمر إلى ضياع مستقبل ابنتيها.

كما أنها قذفت بالصغرى عاتكة وزوجتها لواحد من الناس، وبمعرفتنا بطباعها حتمًا هي لم تسأل عنه كما هي العادة ولا عن أسرته، كل ما كان يهمها أنه واسع الثراء، قيل بأن عاتكة لم تلتقِه من قبل، سيقت إليه ولم تستشر، فكانت نتيجة هذه الزيجة العشوائية أن طلقها بعد ستة أشهر، وكأي قطعة أثاث يمتلكها قذف بها.

لم نكن نعرف أن عمتي كان لها فيما مضى سهام مستهدفة، يقينًا هي صوَّبتها إلى أهداف ولكنها أخطأتها، وكانت النتيجة الحتمية

المرتقبة ما آلت إليه حال ابنتيها فانكفأت إلينا ظنًا منها بأننا ما زلنا متوقفين عند تمنياتنا.

بمضي الأيام تكشف لي بأن أمي لديها طموحات أخرى بعيدة عن اتجاهاتي، كانت في بعض المناسبات تلوح بها أمامي وتغمزني بها، لم تكن خافية عليَّ وإن كنت قد اعتقدت منذ زمن بأنها محض أماني لا غير، في السنوات القريبة أخذت تفرش وتمهد وتسعى إلى تحقيقها، أعرف أنها كانت وما زالت تتمنى أن أقترن بابنة أختها الوحيدة، كان ذلك باتفاق ومباركة سابقة بين الأختين، كانتا تغزلان بمغزل واحد.

والدي كان بمنأى عن كل ما كان يجري داخل محيطه الأسري لانصرافه الدائم في إدارة شؤون أعماله.

ابنة خالتي تقدم إليها عدد غير قليل من العرسان وكانت أمها تختلق التبريرات وتتذرع بحجج واهية لأجل أن تصرفهما ولا تزوجها بأي منهم، كان ذلك إيفاءً للوعد الذي أبرمته مع أختها فكانت النتيجة الحتمية أن فوتت الفرصة تلو الأخرى عليها.

مرت الأيام وتعاقبت الأعوام إلى أن أدخلتها في نفق العنوسة من بعد أن بنت جدارًا مانعًا حال بين ابنتها ومن تقدموا لها، وبفعلتها هذه ابتعد العرسان عنها.

منذ ما يقرب من عام انقطعت زياراتها المعتادة لنا، قيل لي بأنها

أخيرًا زوجتها بمن يكبرها بعشرين عامًا ورحلتا للعيش معه في مدينة أخرى.

الأمهات الثلاث عزفن على أوتارهن وبترن أحلامنا وكأن شيئًا لم يكن.

إذا سألوا عن أسباب هذه السقطات، كالعادة علقوها على مشجب "القسمة والنصيب" الأسطوانة الملتصقة بألسنة البعض عند انتكاسة فعل أو خيبة أمل.

اشترك ثلاثتهن في رسم وتنفيذ خطأ إنساني جسيم، ترافقهن تداعياته الكارثية حتى نهاية العمر، أحسبها سنوات ضياع اقتطعنها من عمرنا، عبثن بها لمآرب لهن لم تثمر عن شيء وتبخرت.

خلال تلك الطلة التي أطلت بها علينا مع ابنتيها. عمتي تنظر إليَّ نظرة أفقه مغزاها وأفهم تمامًا ما ترمي إليه، هي كمن تستجدي جوابًا مني لما ألمحت إليه أمي، عندما لم تشفع لها نظراتها التي أصبحت مستكينة أسرعت وأمسكت بكلمات أمي قبل أن يطويها النسيان، فكان منها أن نظرت إليَّ وبادرتني القول "أمك على حق، هل سمعت ما قالته يا صالح؟ لقد كبرت، عندها كانت إجابتي بكلمات احتفظت بها تحت لساني لتأكدي من أنها لن تترك كلمات أمي تذهب هباء الريح.

بدوري أجبتها، أمي تريد أن تقيدني يا عمتي والقيد لم يحِن أوانه

بعد، ربما بعد عدة سنوات، لم أعد أفكر في هذا الأمر الآن، قلتها لأغلق عنوة باب التساؤلات والتلميحات التي انصبت على مسمعي ولأطوحها بعيدًا عني.

صرخت في داخلي لماذا يا عمتي حجبت ابنتك عني وحرمتينا التواصل، سامحك الله! من بعد أن بترت أحلامي الآن أنا أبحث عن ذاتي، لقد تغيرت الظروف لم تعد الخيوط كلها في يدي، لقد نكأت جرحًا كان غائرًا منذ وقت مضى".

لم تمض إلا دقائق على وجودهن بيننا حتى أطل أخي علينا، أتانا صوته مجلجلاً بنبرة يداخلها الترحاب المصطنع "أهلاً يا عمتي!", كلنا يعرف بأنه يكرهها.

ظفرت بفجوة تركتهن ونفذت من خلالها خلسة في أثناء انشغالهن بالسلام على أخي وزوجته نعيمة التي كانت تتبعه وهي تحمل ابنها وتظهر على شفتيها ابتسامة باهتة.

نعيمة تعرف أن عمتي تكرهها لادعائها المفتري عليها بأنها خطفت أخي من إحدى ابنتيها، هذا ما كانت تروج له وتدعيه إفكًا مع يقيننا بأنها كعادتها تسوق بعض ألاعيبها وتبريراتها التي تلوذ إليها لكي تداري خيبتها.

قبل وفاة أبي زارتنا لوحدها عدة مرات وحدها، كانت تلقي باللائمة على أمي وتشير إليها بأصابع الاتهام، أبي على معرفة تامة

بطباعها، ولكونها تكبره بعدة أعوام كان يلتزم الصمت.

درئًا للمشكلات أمي كانت تتحاشى الاحتكاك بها، كانت تلوذ إلى شغل نفسها بأشياء أخرى، بعض كلمات عمتي كانت تجرح أذنها ولكنها خشية حدوث شرخ عائلي تصم أذنيها ولا ترد عليها مراعاة لشعور أبي.

ألقت بكل هذه المفرقعات بعد أن تزوج أخي بنعيمة وترملت ابنتها، الآن أنسل الخيط من بين يديها بعد وفاة أبي.

مشكلة عمتي الأزلية أنها سليطة اللسان لا تراعي مشاعر الغير، إلى جانب ثرثرتها الدائمة وهناك شواهد كثيرة على نرجسيتها وأهدافها التي من أسبابها أدت بالغير إلى الإحجام عن مصاهرتها والبعد عنها، كانت فيما سبق قبل أن تغادر دارنا تنثر رذاذ سمومها وتترك وراءها بقعًا قاتمة.

كانت أمي فيما مضى في كل زيارة لها تستقبلها على مضض وتودعها بتأفف، رحم الله زوج عمتي الذي كان صدره يضيق من حديثها وبعض تصرفاتها، كان يبتلع ريقه وينفث الهواء من فمه، هذا أقصى ما كان بوسعه أن يفعله، كان دائم الحرج وتكراره القول بصوت خفيض ونبرة توحي عن ضيق مكتوم، "يااااا حفيظة"، كانت طيبة زوجها النقطة التي ارتكزت عليها في إمساكها بعصا إدارة أمور البيت، لقد ابتلعت شخصيته، كنت أسمع أبي يقول لأمي

حفيظة كانت دلوعة أمي وأبي وكانت تملي أوامرها علينا أيام عيشنا تحت سقف بيت واحد.

خلال وجودها في هذه الزيارة صبغت وجهها بألوان الطيبة والاستكانة، سلكت منهجًا مغايرًا لنهجها الذي دأبت عليه، قيدت لسانها وسلبته حريته المنفلتة ونثرت ورود المحبة، ولكن هل يصلح العطار ما أفسده الدهر! لقد تبدلت سلوكياتها بعد أن فقدت أدوات اللعبة بموت أخيها وبعد أن أذاقت ابنتيها قساوة الوحدة وطلقتا في سن مبكرة، آن الأوان لكي تدفع فاتورة غبائها وجريها اللاهث وراء المظاهر.

****

في بعض المناسبات التي كانت تجمعني بمن يكبروني سنًا ويتطرقون إلى ذكر مشاهداتهم في مدينة القاهرة، كنت أكثر الموجودين حرصًا على سماع ما يروى عنها، القاهرة كانت بمثابة المدينة الحلم بالنسبة إليّ، كنت أمنّي النفس بزيارتها في يوم من الأيام، كنت مبهورًا بها وبأن بها كل ما هو متاح لانعدام ومحدودية أماكن التسلية عندنا.

معلوماتي الضئيلة كنت أحصل عليها من خلال مشاهداتي لبعض الأفلام التي كنت أحظى بمشاهدتها في أوقات متباعدة من خلال بعض الأفراح التي كانت تقام في مدينة الطائف، كنت وبعض

الصبية من أبناء الحارة المتطفلين نذهب هذه المناسبات على الرغم من أننا في أغلب الأحيان لا نكون وأهالينا مدعوين إليها.

شغفت بها أكثر من غيري لاطلاعي الدائم على بعض صورها التي أشاهدها من خلال تصفحي لبعض مجلاتها التي كانت ترد إلينا والتي كان أخي يحرص على شرائها تباعًا، كنت أطَّلِع عليها وأقرأ بعض محتوياتها بعد أن أكون قد استعطفته ورجوته بأن يدعني أتصفحها لدقائق وعلى شريطة أن أكون خلالها جالسًا بقربه، كنت أقلب صفحاتها وأنا أرفع نظري إليه بين آونة وأخرى ألتمس من خلالها علامة الرضا.

صديقي عبد العزيز الذي يكبرني قليلاً والذي قد عاد منذ أيام من مدينة القاهرة حيث كان في زيارة لها بصحبة والده، التففنا حوله نصغى إليه باهتمام وفضول لكي يصف لنا كل مشاهداته هناك.

لالتصاقي الدائم به دون بقية الأصحاب، انفردت به وأصغيت إلى وصفه باهتمام وشوق بالغين لكي أختزن منه بعض مشاهداته لخاطر مر على ذهني، لا أشك في أن أشياء كثيرة مما ذكرها من بنات أفكاره وخياله، سرح بي لمعرفته أن معلوماتي الجغرافية لا تتعدى حدود مدينة الطائف، ولكن لا بأس لأقتطف منه بعض المعلومات التي قد تعود عليَّ بالنفع إن سنحت لي الفرصة بزيارتها مستقبلاً والتي بدأت في الآونة الأخيرة هذه الأمنيات تحوم حول أفكاري وتكبر, ولأنني كنت أكثر المتطفلين استغل اهتمامي الزائد فأسهب

وأطال وروى لي بأنه صال وجال وعمل وفعل، علمًا بأنني متأكد من أنه كان دائم التعلق بذيل أبيه عند غدوه ورواحه هناك.

على مدى أيام صبت على مسمعي من قبل عبد العزيز كمًا من المُغريات والقصص المحفزة التي قد تدفع بي إلى السفر ولو لعدة أيام، لقد كان دائم القول "سافر يا صديقي وودع الفراغ شوف الدنيا ولن تخسر كثيرًا"، هو أول من أوحى لي بفكرة الإقدام على السفر.

لعدة أيام اختمرت الفكرة في رأسي ولاقت القبول، لم لا أعتبرها رحلة تنفيسية وقد تعود عليَّ بالنفع أن وجدت ضالتي هناك، إن لم أخرج مما أنا فيه قد أميل إلى انفعالات نفسية أو إلى أشياء أخرى.

لا زالت عالقة بذاكرتي أحاديث سمعتها ممن زاروا مدينة القاهرة من أصدقاء ومعارف أبي، كنت وقتها أسترق السمع وهم يروون لأبي الذي يكون وقتها أذنًا صاغية بحكم متاجرته وتصنيعه لمعدن الفضة، بأن مدينة القاهرة تنفرد دون غيرها عن بقية المدن العربية بدقة ومهارة عمالتها في صياغتها، هناك قد يحالفني التوفيق بمزاولة الإتجار بها بعد أن أبعدتني الظروف القهرية عنها، لأجرب حظي وأقتحم أسواقها الواسعة وقد يستقر بي المقام هناك.

على الرغم من تأرجح أفكاري بين الإقدام والتراجع عقدت العزم على الرحيل لعلّى أحظى بجديد، وأنأى بنفسي عن أجواء التوترات التي نغصت عليَّ حياتي وبدلاً من ركوني في الظل وإدماني التثاؤب

وإنفاقي المزيد مما أمتلك.

إن لم أقدم على عمل شيء يفيدني، أجدني بعد وقت ليس ببعيد قد استنزفت جزءًا غير قليل مما آل إليَّ من مال.

ولاستحالة مسيرة حياتي على هذا النمط من العيش قررت الرحيل ووضعت نصب عيني أنني قد لا أعود إن تيسر لي ما كنت أصبو إليه.

في البداية اجتهدت في إخفاء النية، ولكنني أخيرًا شرعت في نثر كمٍ من المبررات والإشارة إلى فوائد السفر وإيجابياته كي أنجح في إمالة الكفة إلى جانبي ولكي أضفي جوًا من القبول لدى الغالبية من أفراد أسرتي مع يقيني بأنهم لن يتفقوا ويوافقوا على سفري منفردًا ولديَّ إحساس بأن أمي إن أصررت على موقفي سوف تسلم بالأمر على مضض.

مسحة من الحزن ظهرت على ملامحها لخوفها من انسياقي إلى طرق الأبواب الخلفية والسقوط والسير في دروب ملتوية.

كان في جوفها ريبة كمنت منذ زمن، عندما كانت تلتقي مع صديقاتها كنت أسمعهن يتذاكرن بتداول بعض الأقاويل التي تندرج عادةً تحت بند الحرص على أزواجهن كما هي عادتهن، كن يبالغن في القول بأن بنات مصر يخطفن رجالنا، شطحات أحاديث تتداولها النسوة عادة، وكنت وقتها أسمع تلك القصص التي تروى فيما بينهن

عندما كانت تصطحبني في زياراتها وتجلسني إلى جانبها.

وللعودة إلى تلك الزيارات التي مضى عليها سنوات، لا أريد أن تفوتني ذكر وقفة من الوقفات الطريفة التي لا تغيب عن عيني، كانت تحرص على أخذى إلى سهراتها في دور صديقاتها المقربات المجاورات لأجل أن تنأى بي بعيدًا عن أختي التي لا يحلو لي الشجار معها إلا في غيابها، ولأجل أن أحمل الفانوس وأسير أمامها وكنوع من الحماية الذاتية لا غير.

في تلك الجلسات التي تتكرر في كل ليلة خصوصًا الرمضانية منها والتي تبدأ من بعد صلاة العشاء، كن يسردن في الغالب بعض القصص المسلية والخرافية والتي تنحصر في أغلبها حول العفاريت والجن. تلك الحكاوي المفزعة كانت تؤدي بي في نهاية السهرة إلى وضع لا أحسد عليه من الرجفة والبحلقة في وجوه الموجودات، حيث إنهن كن يجبرنني على الزحف رويدًا رويدًا إلى أن أستقر في حضن أمي متشبثًا بها بعد أن كنت في بداية السهرة بعيدًا عنها قليلاً أو جالسًا بقربها، في أثناء عودتنا إلى دارنا التي لا تبعد عادة عن بضع عشرات من الأمتار أكون ممسكًا بذيل عباءتها مسلطًا نظري إلى الزوايا المظلمة، عندما تقدم بي العمر تبين لي بأنهم زرعوا في قلوبنا الرعب بطيبة وسذاجة، أكثر ما أقول عنها إنها غفلة غير مقصودة لا يدركن مآلها.

ظهر التردد على وجه أمي كما كان متوقعًا، بادرتني القول

"أخشى عليك الفتنة والغفلة يا ولدي"، دأب كل أم تخاف على أبنائها من الجنوح، على الجانب الآخر, أخي أخذ كعادته في تأجيج مشاعر الخوف لديها لاستجداء عاطفة أمومتها آملاً في الظفر برفضها وضم صوتها إلى صوته.

من بعد وفاة والدي دأب أخي الإطلال برأسه علينا من نافذة التسلط لإبداء رأيه فيما يخصني أنا تحديدًا عندما لا يروقه أي من تصرفاتي مستغلاً فارق السن بيني وبينه ولكي يكون له موقع متميز في هذه الدار، أخي ورث خلفية تسلطية، يرجع هذا إلى ما كنت أسمعه من أبي عندما كان يقول له في بعض المناسبات، "أنت يا محمود رجل هذا البيت من بعدي"، مقولة يرددها كل أب لأكبر أبنائه عادة، ولكن أخي صدقها وصرها في ذهنه ودأب على تطبيقها علينا من بعد موته مباشرة.

في هذه الأثناء ترددت واختلط الأمر عليَّ وكان رأسي مضطربًا، بعد تفكير عميق وصلت إلى لحظة لا أقدر فيها على تأجيل الرحيل ولعدم توفر بدائل أخرى فالرحيل قد يخفف عني شيئًا من أحمالي، أنا لا أملك إلا الانطلاق والخروج إلى الدنيا الواسعة، عسى أن تتبدل أوجه الحياة للأحسن وأبدد الفراغ الذي احتواني بعد أن عشت أكثر من عام واحد أسيره.

في الحقيقة كان لديَّ مخاوف محقه لانعدام رؤية القادم، ولأن حياتي خلت من التجارب.

تركتهم بين موافق ورافض وشرعت في لملمة حاجياتي التي قد أحتاج إلى بعض منها في قادم الأيام، وضعت أشيائي القليلة داخل حقيبة جلدية وحيدة نملكها، كنت أرى أمي تضع داخلها ثياب أبي عندما كان يغيب عنا عدة أيام في مكة أو المدينة، تفتحت عيني على رؤية تلك الحقيبة منذ الصغر.

قبل خروجي وأنا حاملاً حقيبتي وضعت أمي في جيبي ساعة جيب قديمة من آثار الوالد ذات سلسلة فضية، كانت محتفظة بها بعد وفاته، كنا نراه في بعض الأوقات يظهرها ويشير إليها بأن أباه كان يضعها في جيب سترته ولا يعرف متى وأين صنعت ويتباهى بعدم وجود مثيل لها في وقتنا هذا.

عند وداعها كانت تجاهد لكي ترسم الابتسامة على وجهها.

بطهارة أمومتها احتضنتني وودعتني بعينين دامعتين بعد أن أجزلت من الدعاء ولم تنسَ أن تدس في جيبي لفافة أحسبها رقية أو بعض الأدعية المكتوبة التي كنت أراها تقرؤها عادة عقب كل صلاة وتتمتم بها في معظم أوقات فراغها.

مدينة القاهرة

وطأت قدماي مطار القاهرة وتملكتني الرهبة والخوف وقليل من الندم لإقدامي على السفر وحيدًا من دون مرافق يكون سندًا لي عندما تحل بي أي نائبة.

قد يكون قليل من الخوف والحذر مفيدين في بعض الأحيان، وبطبيعتي التي اكتسبتها من عملي، تعودت على الحرص الشديد، في الغالب قبل الإقدام على فعل أي شيء أوزن الأمور بميزان دقيق.

في لحظات سريعة استعرضت بعضًا من تلك النصائح التي سمعتها من البعض، وما كان قد صبها في أذني صديقي عبد العزيز وما كنت قد اختزنته من بعض الذين سعيت إلى الجلوس معهم وسبق لهم زيارة مدينة القاهرة.

كنت قد دونت كل ما قد أعوزه وأفتقره للرجوع إليه إذا اقتضت الحاجة وتاهت الحيلة وذلك خلال وجودي وعند تنقلاتي في هذه المدينة.

كان الوقت عصرًا، بعد أن أنهيت كل إجراءات وصولي بمعاونة بعض من رافقوني في رحلتي، استقليت سيارة أجرة وتوجهت مباشرة إلى أحد الفنادق المنتشرة الواقعة في قلب أسواق مدينة القاهرة وذلك بناءً على ما أملى عليَّ لكي أكون على مقربة من

متاجرها العامرة ومسارحها المشهورة مثل مسرح الريحاني وإسماعيل ياسين اللذين كنت أمني النفس بمشاهدة عروضهما الحية وأهنأ بمشاهدة كم وافر من الأفلام التي تعرض في عدد من دور السينما المنتشرة في محيط تلك المنطقة كما قيل لي، سرنا مسافة غير قصيرة، بعد أن سرت داخل شوارع مدينة القاهرة أخذت في الالتفات يمنة ويسرة أرقب بعض مبانيها الشاهقة. خلال سيرنا لفت نظري وأنا أطل برأسي من النافذة كمًا من لوح الإعلانات التي تشير بعضها إلى الأفلام الماثلة للعرض في تلك الفترة، تذكرت كم كنا نسعد بمشاهدتها في مرات متباعدة وبطريقة متسولة خجولة!

بعد أن خطوت إلى داخل بهو الفندق تطلعت إلى الوجوه الماثلة أمامي وازداد شعوري بالغربة.

من بعد تدوين البيانات الملزمة سرت خلف عامل الفندق الذي حمل حقيبتي وصعد بي إلى غرفتي التي لا يشاركني فيها أحد من النزلاء والتي تقع في الدور الثاني من ذلك المبنى المكون من أربعة أدوار.

استلقيت على السرير ألتقط أنفاسي من بعد يوم مضنٍ حفل بالمستجدات التي لم أعهدها من قبل، عدت إلى الوراء، أين كنت منذ ساعات؟ وأين صرت؟ في غضون ساعات قليلة انتقلت من عالم إلى آخر، سحنات ولهجة لم أعهدهما من قبل، إيقاع اللفظ كان غريبًا عليَّ بعض الشيء.

لا زلت بكامل ملابسي المتمثلة في الثوب والكوفية التي ضغطت أمي بيديها عليها وحشرتها في رأسي وقت وداعها لي عند عتبة باب الدار.

بعد غروب الشمس بوقت قليل لشدة الإرهاق أغمضت عيني وأنا بكامل ملابسي واستسلمت لنوم عميق ولم أصحُ إلا على أصوات محركات السيارات التي كانت تمر في هذا الوقت من أمام الفندق، أتاني صوتها جليًا من خلال السكون المطبق على المكان، إلى جانب أصوات سعال بعض النزلاء التي كانت تصل إلى أذني.

فارقت سريري وأضأت نور الغرفة وأطللت برأسي من خلال النافذة التي تشرف على الشارع التجاري وأرسلت نظري عبره، لامس أذني صوت خفيض لوقع أقدام لأفراد يسيرون، بالكاد أتبيَّن ملامحهم، لا زالت الظلمة تلقي بعتمتها على الأرض.

أتاني صوت المؤذن الذي يدعو لأداء صلاة الفجر مخترقًا السكون بروحانيته التي تهز الوجدان وتلامس القلب عادة في هذه الساعة من الزمن من مسجد أخاله قريبًا، توضأت وأخذت طريقي إلى الخارج، لم ألمح في بهو الفندق سوى الموظف الليلي الوحيد الذي أرخى بالجزء الأعلى من جسمه على مكتب الاستقبال، كان يغط في نوم متقطع ملقيًا برأسه على سطحه متوسدًا إحدى ذراعيه، عندما اقتربت منه وعلى أثر سماعه صوت وقع خطواتي رفع رأسه بتثاقل ورمقني بنظرة خاطفة وأشاح بوجهه عني وأكمل نومه.

حال خروجي ووقوفي على عتبة باب الفندق شعرت برعشة هزت أركان جسمي لنسمة هواء باردة انسابت عبر الشارع لتلامس وجهي وتتسلل إلى صدري، ارتعشت على أثرها وضممت بكلتا يداي صدري العاري إلا من قميص شفاف لا أملك غيره مكملاً لبنطال كنت قد اشتريته من أحد أسواق مدينة الطائف، تذكرت أمي، في فصل الشتاء كنا نتحلق حول الجمرات المتقدة التي كانت تهيئها لنا مساء كل يوم وتضعها بيننا في غرفة الجلوس في الليالي الشديدة البرودة، كنت وقتها أقوم بمساعدتها في إشعال الفحم بالمروحة اليدوية في فناء الدار وأنا أفرك عيني من الدخان المتصاعد المشبع برائحة الكيروسين الذي نقطره على حبات الفحم ليعجل باشتعاله.

عدت وأكملت نومي، استيقظت بعد أن نمت قليلاً، أحسست بعضة الجوع على أحشائي على الرغم من أن معدتي لم تكن في يوم من الأيام تشغل خاطري، منذ أن غادرت مدينة الطائف نسيت نفسي من خلال تلاحق التنقلات التي بدأتها منذ صباح الأمس إلى أن استقر بي المقام في هذا المكان فكان لزامًا عليَّ أن أهنأ بطعام يدخل معدتي.

وقفت على عتبة باب الفندق بعد أن أشرقت الشمس وأشعَّت بنورها على الأرض واتضحت معالم الشارع التجاري الواسع وبدأت بعض المتاجر الكبيرة المصطفة على جانبيه تفتح أبوابها تباعًا، علت أصوات أبواق السيارات المارة وامتلأت أرصفته بالجائلين والمتسوقين وغيرهم.

بعد أن تناولت إفطاري قررت أن أتجول ولو قليلاً من الوقت بدلاً من عودتي إلى الفندق، عليَّ البدء في أول أيامي التعرف على الشوارع والأسواق القريبة، ولتكن داخل محيط دائرة ضيقة على أن تأخذ بالاتساع في قادم الأيام. مررت بكم من المحلات التي تزخر بكل أصناف وأشكال الملابس والمقتنيات والتحف الجميلة من كل صنف ولون. سرت متمهلاً حتى بلغت هذا المكان، قيل لي بأنه ميدان العتبة الشهير, كان قريبًا من مكان إقامتي، لم يسقط من ذاكرتي مشهد كنت قد شاهدته من قبل في أحد أفلام إسماعيل ياسين عندما قدم من الصعيد وتلقفه أحد المحتالين الموجودون عادة في محطة وصول القطارات القادمة والمغادرة لمدينة القاهرة، وباعه هذا الميدان.

يحتل هذا الميدان مساحة كبيرة بعض الشيء تتوسطه حديقة شبه مربعة مفروشة بالنجيلة تزينها بعض الأشجار المتباعدة التي تلقي بظلالها على قليل من المقاعد الخشبية المستطيلة المتفرقة المهيأة لجلوس مرتادي هذه الحديقة. قيل لي بأن هذا الميدان له خصوصياته التي ينفرد بها عن بقية الميادين الكثيرة الموجودة في جميع أحياء مدينة القاهرة، ومن أهم معالمه سور الأزبكية الذي يعتبر معلمًا ثقافيًا وقبلة المثقفين من سكان القاهرة والوافدين والذي اشتهر على مر الأعوام ببيع الكتب القديمة في أكشاك خشبية متراصة، كما يوجد به بعض الباعة ممن افترشوا مكانًا غير مستحق من الرصيف

يعرضون بعض الكتب التي قد توقفت طباعتها منذ زمن، والبعض منها من التي استغنى عنها أصحابها بعد قراءتها. إلى جانب أنها مقصد بعض طلبة العلم لشراء بعض كتب المقررات المدرسية المستعملة لرخص أثمانها، على أحد أطراف هذا الميدان تستقر منذ زمن دار الأوبرا الأشهر وعلى الجانب الآخر مقر المطافي والنجدة، قيل لي إن هذا الميدان يعتبره بعض العامة بمثابة سرة مدينة القاهرة لأهميته وتوسطه لها.

قبل أن آخذ مقعدي ألقيت بنظري على الموجودين في بهو الفندق وجدت عالمًا غريبًا يضمهم مبنى واحد، للمرة الأولى أقيم في فندق، نزلاء يجيئون وآخرون يرحلون في هدوء ولا أحد يعرف الآخر، جلست على أحد المقاعد وتجولت بنظري على الموجودين علّني أحظى بمن يرشدني ويرسم لي كيفية الوصول إلى بعض الأماكن القريبة التي يمكنني الذهاب إليها وتستحق المشاهدة، ليس لي إلا أن أستعين بأحد العاملين في مكتب الاستقبال.

رحب بي السيد سامي الواقف خلف مكتب الاستقبال وكأنه على سابق معرفة بي شأن كل العاملين في هذا المجال، سألته عن بعض ما يهمني، أصغيت إلى إرشاداته دونت أسماء بعض الشوارع التجارية والميادين والحدائق التي لا تبعد كثيرًا عن محيط الفندق بالإضافة إلى أسماء بعض الأماكن الأثرية.

ألمح لي بوجود عدد غير قليل من المطاعم والكازينوهات التي تطل على نهر النيل مباشرة، وحثني على ضرورة زيارة الأهرامات التي كثيرًا ما سمعت عنها وشاهدت صورها في المجلات التي كنت أتصفحها من قبل والتي جعلتني أمني النفس برؤيتها وبالوقوف على مقربة منها، كما لم يفوته أن يدس داخل أذني مواقع بعض الملاهي الليلية وبعض الحانات القريبة، شكرته وصعدت إلى غرفتي.

عاودت الخروج بعد العصر وتنقلت بين الشوارع حتى بلغت ذاك الشارع الجميل الذي قيل لي من أحدهم إنه شارع "فؤاد" والذي سُمِّي فيما بعد شارع "26 يوليو"، والذي لا يبعد كثيرًا عن الفندق. كانت الشمس وقتها آخذة في الاختفاء وراء العمارات الشاهقة، كنت دهشًا ومأخوذًا، أرى أشياء لم أكن قد رأيتها من قبل.

تذكرت العادات والالتزام الذي تركته ورائي عندما رأيت بعض النسوة يتمخطرن بين واقفة تطيل النظر من وراء فاترينات عرض ذات واجهات زجاجية وسائرة وحدها تتسوق، وأخرى متأبطة ذراع زوجها كالخائفة من فراره، رأيت بعض الفتيات اللاتي في عمر الزهور، البعض كن يتسوقن والأخريات يخيل إليَّ بأنهن من العائدات من معاهدهن، كن ثلاث ورباع يتوقفن ثم يعاودن السير بعضهن كن يرتدين تنورات انحسرت حتى أعلى الركبة بقليل بما تسمى "مايكرو جيب" و"ميني جيب" لا فرق بين المسميين سوى بضعة سنتيمترات في القِصَر.. وأخرى... وأخرى...

طافت بذاكرتي نصائح أمي وخوفها عليَّ، تساءلت: أليس من حقها أن تقلق وتركبها الوساوس؟! واصلت سيري وأنا أتلفت يمنة ويسرة، كان نظري يجوب على كل من حولي، تنقلت من رصيف إلى آخر، أمعنت النظر إلى الأشياء الجميلة المعروضة بسخاء أمامي والتي أباحتها تقاليد هذه المدينة. من حقي كغيري من المتجولين أن أطلق ناظري وأمسح الغشاوة التي غطته منذ تفتحها على هذه الدنيا لتسبح في بحور الفتنة المتناثرة من حولي، لأدع عيني تتسلل إلى المحظور الماثل أمام ناظري، لقد أفرد لي ما لم أكن أحلم به، قد آخذ أيامًا حتى تتعود العين على رؤية ما لم تعهده من قبل. لجأت إلى مقهى في آخر الشارع لكي ألتقط أنفاسي الحارة وكأنني خارج للتو من حلبة سباق، أخذت في رشف الشاي الذي أمامي وألقيت بنظري على الموجودين من حولي أتفحصهم وأرقب تحركاتهم وأنصت لما يدور بينهم.

خلال فترة جلوسي كنت أطالع وجوه من كانوا حولي, رأيت ما لفت انتباهي، رأيت في أحد أركان المقهى شلة من الصبية يتبادلون المزاح فيما بينهم، أصواتهم كانت عالية مزعجة, على بُعد خطوات منهم كان هناك مسن ممسك بيديه صحيفة يقرؤها يسدد لهم بين آونة وأخرى نظراته ويرمقهم من فوق نظارته بحنق ظاهر، على الجانب الآخر أفراد التفوا حول اثنين يلعبان طاولة الزهر في تحدٍ ظاهر فيما بينهما، وآخر يلقي بنظره على المارين من أمام المقهى في تتابع لا ينقطع وهو صامت كما لو كان يحصي أعدادهم، على مقربة مني

أحدهم قابض على خرطوم أرجيلته, أخذ ينفث دخانها وهو ساهم يتبعها بنظره كمن يتلذذ برؤيتها وهي تتلاشى في الفضاء، وآخرون يثرثرون ويضحكون, المقهى ممتلئ عن آخره من الرواد، المقهى يضم تجمعًا عشوائيًا من كل فئات البشر.

صاحب المقهى يرمق الحضور من خلف طاولة معتلية قليلاً عن مستوى الموجودين قابضًا هو الآخر على خرطوم أرجيلته، يجول بنظره بين الجميع، تبدو على وجهه علامات الرضا ويلقي بأوامره بين وقت وآخر على أحد العاملين لديه، وضع في متناول يده جهاز راديو يخفض الصوت ويرفعه كيفما يشاء دون اعتراض من أحد، كانت أم كلثوم تصدح بأغنية "أروح لمين" الحديثة العهد آنذاك، صبي المقهى يتنقل بين طاولة وأخرى بخفة لافتة، وضح لي أنه على معرفة بمعظم مرتادي المقهى، كان يلبي طلباتهم مع ذكر أسماء بعضهم، يتكلم مع هذا ويضحك مع ذاك ويتلقى منهم الطلبات ويرفع صوته متفوهًا بكلمات غير واضحة لي تلتقطها أذن الواقف خلف النصبة الذي بدوره يقوم بتجهيزها.

أشرت إليه فاقترب مني.

- للمرة الأولى أجلس في مقهاكم, رأيت وسمعت ما أثار فضولي, ألا يزعجكم ما يحدثه هؤلاء الشباب من جلبة تثير الحنق عند البعض؟

- أنا اسمي حمدي، هذا يحدث كثيرًا، لقد اعتدنا على مثل هذا، ماذا نفعل؟ نخشى ردات الفعل، إنه عبث المراهقة يا سيد...

- اسمي صالح.

بعد أن دفعت ثمن الشاي وقفت تأهبًا للمغادرة. شكرته وودعته. عدت من حيث أتيت وتناولت وجبة العشاء في أحد مطاعم الفول التي صادف مروري من أمامها والتي احتلت ركنًا صغيرًا تحت إحدى البنايات الشاهقة القريبة من الفندق.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر ليلاً، عدت من بعد يوم بدا لي طويلاً حفل بالمتغيرات والمشاهد التي لم ترها عيني من قبل، لقد مرت الساعات دون أن أشعر بالملل والتعب، قضيت وقتًا ممتعًا، على أن أنام لأصحو باكرًا، قبل أن أتهيأ للنوم اقتربت من النافذة، أرسلت ناظري عبرها ولم أرَ سوى بضعة أفراد، الشارع عاد إليه هدوؤه، ذهب كل إلى شأنه ومبتغاه، سرحت قليلاً وتذكرت كل فرد من أفراد أسرتي، اشتقت إليهم، عجبي! لم يمض لي سوى يومين فقط لا غير...

عليَّ أن لا أتوه في الحنين إليهم، أخاف أن لا تنطبق جفوني جراء وحشتي ووحدتي، استلقيت على السرير وأغمضت عيني ونمت.

صباحًا أخذت طريقي نزولاً إلى صالة الاستقبال، جلست بين نفر

من النزلاء أرقب الذاهب والقادم والجالس والواقف، طلبت فنجانًا من القهوة وتناولت إحدى الصحف اليومية المتناثرة على المنضدة.

قبل أن أتصفحها عدت بذاكرتي إلى الوراء, كنت قد تعودت أن أحوم حول أخي الذي أدمن القراءة, نراه دائمًا منكبًا على تصفح الجديد من الصحف والجرائد التي يحرص على شرائها. أذكر منها مجلة المصور وآخر ساعة وجريدة البعكوكة التي كانت تنفرد بالمقالات الساخرة والأخبار الطريفة والرسوم المضحكة، أحببت القراءة وشغفت بها منذ الصغر، الفضل كله يعود إلى أخي الذي خلق مناخًا ثقافيًا في المنزل، حتى أختي نبيلة كنت أراها في وقت فراغها هي الأخرى تتناول إحدى الروايات في غفلة من أخي وتنزوي في ركن من أركان الدار وتقرؤها، كنت وأختي نبيلة نقرأ كتبًا بعضها يكبرنا سنًا ودراية.

****

بما أنه رحب بي ولم ألحظ عليه شيئًا من الضيق, لم لا أستعين بإرشاداته للمرة الثانية, كنت أرقبه بين حين وآخر، قد أنتظر وقتًا طويلاً حتى يفرغ مما هو فيه، أخيرًا اتجهت إليه: "صباح الخير يا سيد سامي" على أثر سماعه صوتي أمال رأسه قليلاً وبعد أن رآني أشار إليَّ بإيماءة مرحبة. لا زال منشغلاً مع أحدهم؛ عليَّ أن أنتظر حتى ينتهي، كمن استشعر أنني أنوي التحدث إليه، بعد أن فرغ بخطوات عجولة أتاني مرحبًا:

بعد أن جلس بجانبي:

- كيف كانت جولتك البارحة يا أخ صالح؟

- لقد كانت فسحة جميلة، لم أعد إلا بعد منتصف الليل.

- إذن أنت قضيت وقتًا ممتعًا.

- فعلاً كما قلت، أشكرك يا أخ سامي. في هذا اليوم أنوي الذهاب إلى خان الخليلي للتجول في أسواقه، لقد سمعت وقرأت عنها الكثير، أطلب منك أن ترشدني إلى كيفية الوصول إلى هناك، هل هي قريبة من هنا ويمكنني الوصول إليها سيرًا على الأقدام؟

- لا يا أخ صالح، لا يمكنك الوصول إلا بواسطة تاكسي، السير على قدميك قد يأخذ منك ساعات.

خان الخليلي

رافقني إلى خارج الفندق وأشار إلى إحدى سيارات الأجرة المارة وطلب من السائق توصيلي إلى خان الخليلي.

خلال دقائق كنت أقف في وسط ميدان الحسين، قبل أن أخطو تجولت بنظري إلى أرجائه، رأيت على أحد الجوانب مسجد الحسين وعلى الجانب الآخر مقهى تراصت كراسيه حتى الخارج، وبالقرب توجد بعض المطاعم التي تشير لوحاتها إلى انفرادها بتقديم بعض أصناف المأكولات الشعبية، وهناك ألمح وجود عدد من المكتبات الصغيرة.

خلال وقوفي رأيت عددًا من الباعة الجائلين يعرضون ما يحملونه من مسابح وبعض التحف والمحافظ الجلدية وأشياء أخرى تهم السائح، إلى جانب وجود قلة من المتسولين بين الجموع، الملفت وجود خليط متنوع من بعض الجنسيات.

سرت متمهلاً بعد أن أشار إليَّ أحدهم إلى المدخل الضيق القريب من مكان وقوفي الذي يؤدي إلى بازارات خان الخليلي المعلم الأشهر الذي غاص في القدم وأضحى أحد أشهر أسواق المدن العربية قاطبة، كان المكان على بعد خطوات قليلة من مكان وقوفي.

السوق تقع داخل مربع يتكون من عدة ممرات ضيقة كرقعة

الشطرنج، تنفذ كل منها إلى الأخرى، لا يزيد عرض بعض ممراته على مترين أو ثلاثة، يحتوي المكان على محال كثيرة متلاصقة ومتراصة على الجانبين يشغل كل منها حيزًا صغيرًا، ما يميزها عن بقية أسواق مدينة القاهرة هو تفردها ببيع جميع أصناف المشغولات الفضية والنحاسية والجلدية وبعض التحف الفرعونية المقلدة الرخيصة الثمن والتي تلفت أنظار السياح الحريصين على شرائها واقتنائها وحملها معهم إلى بلادهم للذكرى والإهداء.

خلال تجولي كنت أتمهل في سيري، كنت أقف قليلاً عند رؤيتي لأحد العاملين ممن يقومون بالنقش على الأطباق النحاسية لبعض المعالم الفرعونية، لفت انتباهي انكبابه على ما بين يديه دون النظر إلى المارة والمتسوقين مما يفسر لي معنى الجودة وشدة الاتقان، السوق احتفظ بعطر ماضيه.

على الطرف الآخر الملاصق والمكمل لهذه السوق تصطف على جانبيها الممر الضيق محال المشغولات الفضية والذهبية، لقد وصلت إلى ما يهمني ويشدني.

رأيت أعدادًا غير قليلة من المحال التي تعرض على واجهاتها أشكال مختلفة من المصنوعات الفضية البديعة التي لم أكن قد رأيتها من قبل، لا شك في أن اليد التي صاغتها ماهرة ومبدعة، لشدة اهتمامي بهذه المهنة كنت أتسمر لدقائق أمام بعض المحلات أدقق النظر في محتوياته المعروضة.

لدينا نحن الإمكانات ولكننا نفتقر إلى الأيدي الحرفية المتمرسة التي تحتضن القطعة عند تشكيلها، معظم المزاولين لهذه المهنة عملوا بها منذ الصغر، توارثوها عن آبائهم وأجدادهم لذا برعوا في صياغتها.

لا شك في أن السوق أخذت شهرتها منها، لفت نظري أن أغلب رواده من السياح القادمين من كل أصقاع المعمورة، رأيت مجاميع وفرادى منهم يجوبون أرجاء هذه السوق المحدودة المساحة ويتزاحمون للجلوس في أحد مقاهيها المشهورة.

الحس الذي يكمن في داخلي والعين التي تعودت أن تفرق بين بديعها ورديئها قادت قدميَّ إلى محل شد انتباهي دون بقية المحلات بتفرده بمحتوياته الجميلة والمتنوعة، عاودت الرجوع إليه من بعد أن مررت على معظم المحلات القليلة والتي لا يزيد عددها على بضع عشرات.

عندما خطوت إلى داخل المحل لمحت في أحد أركانه رجلاً يجلس صامتًا خلف طاولة يرقب مرتادي المحل، الكل يسأل ويفاصل ويستفسر من خلال العاملين، كان يرفع رأسه بين لحظة وأخرى ويجول بنظره عليهم، تدل هيئته من خلال تمركزه وحسن هندامه أنه مالك هذا المحل، كما يبدو لي أنه في العقد الخامس من عمره، ضئيل الجسم، تكسو وجهه المضيء لحية قصيرة خفيفة تتمركز فوق ذقنه الصغيرة تتخللها شعيرات سوداء وشارب خفيف، تميل لون

بشرته إلى البياض، أحسبه يرجع إلى أصول تركية، تبدو على ملامحه الطيبة والوقار، يتكلم همسًا عندما يدنو منه أحد من العاملين لديه، تزين قسمات وجهه جلال الوقار والرضا النفسي ممسكًا بإحدى يديه مسبحة وبالأخرى قلمًا ينقر به على ورقة وضعها بين يديه.

اقتربت منه وألقيت إليه التحية سحبت مقعدًا وجلست قبالته دون أن آخذ إذنًا منه بالجلوس، بعد أن مددت إليه يدي لمصافحته.

رفع بصره ورحب بي ورمقني بنظرة متفحصة.

بادرته القول: اسمي صالح أتاجر بالمشغولات الفضية في بلدي وأحد المهتمين بها وكنت قد زاولتها من قبل، لم آتِ إلى هنا لغرض الشراء.

علت وجهه ابتسامة خفيفة حائرة وكأن لسان حاله يقول "ولماذا أتيت إذن؟".

دخلت عليه وأطلقت للساني عنانه دون أن أمنحه الحق بالتفوه ولو بكلمة واحدة، لم يفطن إلى سر هذه المقدمة اللاهثة بعد، بداية بدت على وجهه علامات الدهشة.

ألمحت إليه بأنني عاقد النية على مزاولة هذه المهنة التي أخبرها جيدًا وأسعى من خلال وجودي هنا في مدينة القاهرة بامتلاك محل يخصني لأزاول فيه مهنة المتاجرة بالمشغولات الفضية ولا ينقصني المال ولا الخبرة.

غمزته تلميحًا بأن لديَّ الرغبة في التعاون مع الغير من أرباب هذه المهنة ومشاركتهم.

لا أدري كيف انطلقت الكلمات التي أطلقتها وكأنها كانت مصطفة وراء بعضها وخرجت تباعًا بترتيب متسق.

لكي لا أسرق جزءًا كبيرًا من وقته وأطيل الشرح والاستفاضة، أكون بهذه الكلمات القليلة قد أبلغته مقصدي وألمحت إليه بحاجتي إلى مساعدته إن هو رغب في ذلك.

لقد فتحت له نافذة النفع مستقبلاً إن هو وضع يده في يدي وأحسب أنه لا تنقصه الحنكة كواحد من أرباب هذه المهنة والوالجين في دهاليزها، لعلي بهذه الكلمات الموجزة أكون قد غمست أطراف أصابعه في جرة عسل.

لمحت من خلال طرحي هذا أن وهج السعادة لديه بدأ يكبر ويشع على تعابير وجهه وتناثرت من فمه كلمات الترحيب بي "أهلاً وسهلاً يا سيد صالح, أنا اسمي مصطفى، وبما أنك في متجري أعتبرك ضيفًا حللت عليَّ، اسمح لي بداية أن أستضيفك بفنجان من الشاي إن كان لديك متسع من الوقت.

سر بلقائي وأفسح لي شطرًا غير قليل من وقته، أصغى إليَّ باهتمام بالغ ودبت في عينيه اليقظة، ارتحت إليه طيلة فترة جلوسي التي امتدت لأكثر من ساعة.

قبل أن أودعه كرر لي القول بأنه يترقب قدومي في أقرب وقت، وبأنه سوف يكون عونًا لي، بادرته القول بأن هذا هو كل ما أتمناه منه، شكرته وودعته على أمل بأن ألتقيه ثانية.

بعد مغادرتي محله شعرت بارتياح نفسي وسرور غمرني بلقاء لم أكن أتوقع حدوثه.

كنت جائعًا؛ اتجهت إلى أحد المطاعم الموجودة في باحة الحسين، كنت قد رأيت عددًا غير قليل من تلك المطاعم التي يشتهر معظمها بتقديم المأكولات الشعبية التي أفضلها على غيرها، والتي كنت قد تعودت على تناولها من قبل عندما كان أبي يحضرها إلينا من سوق الطباخين في مدينة الطائف في اليوم الذي تكون فيه أمي منشغلة بغسل ملابسنا.

على ذكر يوم الغسيل تحضرني مواقف لا تغيب عن بالي، وكانت حدثت لي في بدايات أيام طفولتي، أتذكر بأنني في ذلك اليوم عندما كنت أمر من أمامها جريًا خوفًا من أن تطالني يدها وهي منكفئة على طشت الغسيل في فناء الدار، كنت أسمع تأففها وهي تنظر إليَّ وتمسح عرق وجهها بظاهر كفها المغطاة برغوة الصابون، كانت تخصني بالكم الأوفر من ملامتها نظرًا إلى كثرة الأوساخ الملتصقة بملابسي أنا تحديدًا، علمًا بأن ثيابي لا يزيد عددها على ثوبين أو ثلاثة، كانت تخاط لي من هذا العيد إلى الذي يليه.

لم أكن أعرف في ذلك الوقت كم من الإرهاق كانت تعانيه من أجلنا، لا أنسى منظرها في ذلك اليوم الذي جلسَت فيه بعيدًا تنظر بعين باكية إلى حبل الغسيل الذي انقطع واتسخ العالق به من الملابس التي بذلت فيها جهدًا والتي فرغت للتو من غسلها.

دخلت إلى أحد تلك المطاعم ونعمت بأكلة شهية، بعد أن ملأت معدتي استقليت أحد سيارات الأجرة وعدت للفندق وكأنني أتيت لإنجاز مهمة بعينها وأنجزتها.

بعد عودتي جلست على أحد المقاعد في بهو الفندق، كنت مشتت الفكر تساءلت: هل الطرح الذي تناولته مع العم مصطفى خطط له من قبل؟ أتذكر أنه لامس خاطري قبل أن تطأ قدماي أرض هذه المدينة، ولكن لم يكن بهذا الاهتمام وهذه الجدية، بهذا ربما أكون قد قبضت على مجداف الغيبيات وأبحرت نحو المجهول.

لعل المبادرات التي تكون وليدة لحظتها وترد من دون سابق تخطيط تتحول إلى حقيقة.

بعد أن انفردت في غرفتي وأنا مستلقٍ أنظر إلى سقفها تدافعت التجاذبات والهواجس، الأمر في حاجة إلى وقفة طويلة متأنية لمراجعتها مع النفس، لقد كنت جادًا في حديثي معه، هل هي بداية ظهور تحقيق سلسلة أحلامي وآمالي.

كان الوقت ظهرًا، عليَّ أن أنام قليلاً وأصحو بعد العصر.

وأنا في طريقي إلى الخارج وقبل مغادرتي، رأيته واقتربت منه، سعدت مساءً يا سيد سامي.

أشار إليَّ وهو منكفئ على أوراق بين يديه يتفحصها بما يعني أن أنتظره قليلاً، توقفت قبل أن أخطو إلى الخارج، وبعد دقائق قليلة لحق بي.

- كأنك على عجلة من أمرك يا أخ صالح.

- لا، لست كذلك، ولكنني لا أفضل البقاء في غرفتي لمدد طويلة ولم أتعود الجلوس وحيدًا.

- هل قضيت وقتًا ممتعًا في خان الخليلي؟ آمل بأن تكون قد وفقت في شراء بعض المقتنيات الجميلة التي تزخر بها أسواقها.

- إلى أين أنت ذاهب الآن؟ أجبته بأنه ليس لديَّ وجهة أقصدها, هل تشير عليَّ بمكان جميل أقضي فيه بقية يومي هذا؟

أنصحك بأن تستقل أحد سيارات الأجرة وتقوم بتمضية ساعة العصاري بالجلوس في أحد المقاهي المنتشرة على ضفتي نهر النيل، لا تدع الفرصة تفوتك, هناك سوف تستمتع بمنظر المراكب المحملة بالمتنزهين وهي تتهادى على صفحة النيل, وسترى جموع المتنزهين والباعة الجائلين.

قلت له: ماذا لو رافقتني إلى تلك الأماكن التي أشرت إليها إن كان

لديك فسحة من الوقت.

وهو يداري سعادته: لم لا؟! وليكن في يوم عطلتي الأسبوعية بعد الغد.

تواعدنا على اللقاء ثانية، ولم لا أصطحبه معي ليكون مرشدًا ومسليًا لأجرب وسوف لن يضيرني شيئًا ولن أخسر كثيرًا.

خلال أيام تكونت بيني وبينه علاقه وديّة دون غيره من بقية العاملين في الفندق، ربما لأنه الوحيد الذي يقاربني سنًا ويمتلك شيئًا من الأناقه وحسن المظهر، وكما بدا لي للوهلة الأولى بأنه هادئ الطباع لا يتصف بالثرثرة كبقية العاملين في الفندق.

كرت الأيام، لقد مضى على وجودي في هذه المدينة أكثر من خمسة عشر يومًا، تسارعت أحداثهم ولم أشعر بتعاقبهم، ما زالت كلمات أمي ترن في أذني "لا تغِب أيامًا كثيرة, لا تنسى أن لك أهلاً في انتظار عودتك".

قادتني أفكاري إلى قادم الأيام، فما عساي أن أفعل؟! هل فعلاً قررت البقاء في هذه المدينة؟ تدافعت الأفكار والتساؤلات.

يجدر بي أن أولي هذا الأمر اهتماما بالغًا وأفكر بشيء من الجدية بحاضري ومستقبلي وأن لا أدع الوقت يمضي سدى.

هل في مقدوري أن أوطن النفس قبل أن أوطن القدم في هذه المدينة، إن كنت قد قررت البقاء فيها عليَّ أن أتحمل كل التبعات

التي قد تحدث لي، وأن أطرد شعور الخوف بالفشل، وأن لا أفكر في التراجع عن التزامي مع الغير.

كانت الشمس تؤْذِن بالمغيب، لم أشعر بمرور الوقت.

سرت بتمهل حتى آخر الشارع، قادتني قدماي إلى شوارع وميادين أخرى لا تبعد كثيرًا عن مكان الفندق ولم يسبق لي أن مررت بها أو تجوّلت فيها، أمعن النظر فيمن حولي، انتقل من رصيف إلى آخر إلى أن انتهى بي المطاف أخيرًا إلى مقهى حمدي، ذلك الصبي الخفيف الظل الذي أثبت لي أن ذاكرته أقوى مما كنت أتصور، بمجرد أن أخذت مكاني على أحد المقاعد الخالية أتاني مرحبًا:

- مرت عدة أيام ولم نرك يا أستاذ صالح.

حتى اسمي لم يغب عن باله؛ هذه الفئة من الناس يملكون ذكاءً وقَّادا، لقد عرفني للوهلة الأولى على الرغم من تبدل عشرات الوجوه عليه في اليوم الواحد.

- فعلاً كما تعرف يا حمدي، السائح لا يرتاد المكان الواحد أكثر من مرة واحدة، كنت مارًا من هنا وفضلت الجلوس لآخذ قسطًا من الراحة وأشرب فنجانًا من الشاي.

- إذن أنت سائح، كنت أظن أنك أحد الطلبة العرب ممن يتلقون العلم في جامعة القاهرة والذين اعتاد بعض منهم الجلوس في

مقهانا في أوقات متفاوتة، ويوجد منهم جماعات وأفراد يقطنون الشقق القريبة من هنا.

كان يكلمني ويصغي إليَّ وعيناه تبحران في أرجاء المقهى يرقب مرتاديه تحسبًا لإشارة من أحدهم، متأهب دائمًا لتلقي الطلبات، كان يقف إلى جانبي وهو يسترق النظر بين التفاتة وأخرى لصاحب المقهى وكأنه يقول له أنا موجود حتى لا يقع تحت تطاوله عليه بتقريعه اللاذع.

لم أشعر بمرور الوقت، تبيَّن لي أن المقهى المصري عالم من الأنس وملتقى الصحاب والتذاكر فيما بينهم.

قمت بعد أن لامست أذني أصوات أبواب المتاجر وهي تغلق الواحد تلو الآخر، ولاحظت تقلص أعداد المارة من أمام المقهى من المتسوقين والجائلين.

خلال سيري عائدًا لم أرَ سوى قلة من الأفراد، تذكرت قول سامي "كن حذرًا لا تتجول بعد منتصف الليل، إن من بين من تراهم في ذلك الوقت من تبتدئ يقظتهم بعد منتصف الليل من المتسكعين العابثين الذين ينشطون في تحصيل رزقهم عندما تخبو الأنوار ويحل السكون"، قال لي: "في أثناء سيرك يا صالح لا تتحدث مع أي أحد من الناس، حينما يستوقفك أحد لا تقف ولا تصغ إليه، لتكن خطواتك متلاحقة لأجل أن يخيل للرائي أنك من غير المتسكعين المتصيدين

الذين يبغون عوجًا وأنك في عجلة من أمرك".

سرت على عجل وبلغت الفندق خلال دقائق، عند دخولي لم ألحظ أحدًا، الهدوء يخيم على البهو الذي كان منذ ساعات يعج بعدد من النزلاء وغيرهم، لم أرَ سوى الحارس الليلي الذي تمترس بالقرب من المدخل يرقب الداخل والخارج وهو بين النوم واليقظة، وآخر من العاملين ليلاً في مكتب الاستقبال بدا لي أنه كان منكبًا على ما بين يديه, لمحني حين دخولي ورفع رأسه ورمقني بنظرة خاطفة وواصل عمله، كانت الساعة وقتها تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، استلقيت على السرير دون حراك.

في صبيحة هذا اليوم عليَّ أن أبدأ بزيارة العم مصطفى لاستكمال ما كنا بدأناه من قبل، وأنا أحتسي كوبًا من الشاي في بهو الفندق وأرقب بعض النزلاء المتناثرين من حولي أخذت ورقة وقلمًا وكتبت رسالة إلى أخي أطلعه على المستجدات التي حالت دون عودتي، حتى لا تختلط عليهم الأفكار وتتكاثر التأويلات ويتملكهم الخوف والقلق، وسلمتها لأحد العاملين على أن يودعها مكتب البريد.

على الرغم من أنني حتى هذه الساعة لم أجزم تمامًا على شيء, لكن لا بد من الذهاب إلى خان الخليلي في هذا اليوم.

جلسنا، استعدنا ما كنا بدأناه، توافقت أفكارنا إلى حد بعيد، خضنا ما فيه الكفاية حول بعض الأمور الملزمة نحو امتلاكنا محلاً يكون

شراكة فيما بيننا ينحصر نشاطه فقط على شراء وبيع وتصنيع المقتنيات الفضية بجميع أشكالها.

بعد مغرب هذا اليوم أخذته نشوة كرم ورافقته بناء على إلحاحه إلى مطعم وارف يطل على نهر النيل، هناك استمتعت بالهواء النقي والطعام الشهي، كان المكان جميلاً يأخذ موقعًا فريدًا يطل على نهر النيل مباشرة، وهناك لم يفتنا الخوض في مناقشة بعض النقاط الهامة وأرجأنا ما تبقى إلى لقاءات تجمعنا في قادم الأيام.

لمست منه الاهتمام اللافت ولا أشك في أنه قد تأكد من جديتي، على أن أدنو منه أكثر وأختصر المسافات والوقت لكي أجد نفسي منه.

علمًا بأن المعرفة وحدها ليست حاسمة في عملية الاختيار الصحيح، ولكن قد تشفع لي حسن نيتي وثقتي فيه.

أخلص إلى أنني قد قررت البقاء في هذه المدينة وأن أتوكل على الله، وأسأله مباركة أولى خطواتي التي أخطوها على عتبات مزاولتي لهذه المهنة.

لقد تركت ورائي أربعة وعشرين عامًا انقضت بحلوها ومرها، ليس أمامي إلا ترتيب أوراقي ورسم طريق مستقبلي، لقد تولدت الفكرة ودخلت تحت حيز التنفيذ.

وجدت فيه طرازًا آخر من الرجال، أوليته ثقتي التامة، أشعر

بالارتياح كلما اقتربت منه على الرغم من فارق السن الكبير الذي بيننا.

كان لديَّ إحساس داخلي بطيب معدنه هكذا كانت التصورات التي تكونت لديَّ عنه من خلال أيام قلائل، عسى أن أكون محقًا فيما ذهبت إليه، قد يكون للحظ نصيب لي في هذا الاختيار.

من خلال وجودي معه لاحظت أن الاحترام ولطف الكلام يسودان تعاملاته مع كل العاملين لديه، الكل يؤدي عمله في صمت ومن خلال نظراته يدركون ما يشير إليه، هادئ بطبيعته، رطب اللسان، يتكلم همسًا، لا تكاد تسمعه، أنيق في ملبسه لطيف في تعامله مع الآخرين، لا أشك في أنه ممن جمع بين الفضيلة والثروة.

بعد مرور شهر واحد على وجودي في هذه المدينة كان لزامًا عليَّ أن أجود على ذاتي بنزهة ليلية على ضفاف نهر النيل، من بعد عصر هذا اليوم خرجت من الفندق وقت أن كانت الشمس آخذة في السقوط وراء الأفق ورسمت طريق ذهابي تخوفًا من انحرافي حين عودتي، سرت راجلاً حتى كوبري قصر النيل.

في طريقى عبرت ميدان التحرير البالغ السعة الذي تصب فيه عدة شوارع رئيسية، وأنا ذاهب رأيت على يميني مبنى المتحف المصري الذي كنت قد زرته قبل يومين بصحبة سامي وقضيت فيه ما يزيد على ساعة، التحمت فيه بأعداد غير قليلة لخليط من

الجنسيات الأوربية تحديدًا، شاهدت محتوياته التي تتكون من آلاف القطع الأثرية الفرعونية منها الورقية والمنحوتة والتي يعود تاريخ بعضها إلى آلاف السنين.

وفي الجهة المقابلة له مبنى مجمع التحرير الشامخ الذي تحتوي أدواره المتعددة على عدد من المصالح الحكومية.

بعد أن سرت وقتًا غير قصير، وصلت إلى كوبري قصر النيل رأيت على طول ضفتي النهر وعلى امتداد الكورنيش وفوق الكوبري أعدادًا غفيرة من المتنزهين سائرين أو مفترشين الرصيف الذي يشرف على النهر مباشرة، يستمتعون بالنظر إلى المراكب التي تتهادى على صفحة النيل وآخرين يقومون بنزهة نيلية فوق تلك المراكب.

كما لمحت بين تلك الجموع ممن انتحوا جانبًا قصيًا التصقوا ببعض يتكلمون همسًا، أحسب- كما ترائى لي- بعضًا منهم من المتزوجين حديثًا والآخرين من العشاق البسطاء، في أثناء سيري شاهدت أعدادًا من الباعة بين سائر وواقف ممن يبيعون المأكولات الشعبية كالترمس والفول السوداني واللب وحمص الشام وبعض الحلويات الشعبية التي تستهوي وتلفت أنظار الكبار والصغار، ورأيت العربات التي يشوى فوقها ذرة والأخريات بطاطا.

أكملت سيري وأنا أمتع النظر على كل هذه الجموع من حولي،

سرحت قليلاً طافت بمخيلتي أطياف أماني، من خلال ما شاهدته تمنيت لو كانت لي زوجة تسير بجانبي ويدانا مشتبكتان وأطفالنا يجرون ويتسابقون من حولنا، وقتذاك كم تكون سعادتي.

تجاذبات أفكار لم تطرق على مخيلتي، طيلة سنيني التي مضت لم أفكر في مثل هذا من قبل، لا شك في أن للمكان والماثل للعيان فعله وتأثيره على النفس.

واصلت سيري فوق الكوبري حتى كازينو قصر النيل الذي احتل موقعًا فريدًا بالتصاقه بأحد طرفي الكوبري الذي اشتق اسمه منه، أخذت مقعدي في مكان يطل على النهر مباشرة.

سرت نسائم الليل وأنا جالس في مكاني، الهواء المنساب برفق أخذ يلامس وجهي برقة، الطقس يميل قليلاً إلى البرودة، سرحت بعيدًا عن المكان.

تساءلت: هل كنت متسرعًا في اتخاذي البقاء والعمل في هذه المدينة، أعرف بأن ما أقدمت عليه سوف يلزمني العيش هنا لأجل غير معلوم. لم أسقط من حساباتي العثرات التي قد أصطدم بها، لم يغب عن بالي أنني في أسوأ الظروف قد أنزلق إلى قاع حفرة النحس التي قد تدفن كل ما بحوزتي من مال.

عليَّ أن ألتزم بالمثل القائل "البيض كله لا يجب أن يوضع في سلة واحدة"، عليَّ أن أحتفظ بالنصف الآخر منه حتى أثب ثانية عندما

أكبو.

لست أدري كم مر عليَّ من الوقت، كانت خطوات الليل سائرة نحو منتصفه وبدأ الكثير من الرواد في المغادرة وأخذ الهدوء يخيم على المكان شيئًا فشيئًا، رأيت على البعد بعض أنوار النوافذ تطفأ واحدة تلو الأخرى آخذة المدينه نحو الهجوع وأنا جالس في مكاني، رشفت آخر قطرة شاي ووقفت.

عدت من حيث أتيت، ذهب كل إلى حاله، سرت متمهلاً؛ لم أكن في عجلة من أمري، المشي أراح أعصابي، خلال سيري عائدًا شعرت بلسعات أولى برودة فصل الشتاء التي تتسللت إلى داخلي من خلال القميص الرقيق الذي يغطي جسمي النحيل.

صحوت باكرًا، المدينة نائمة، السكون يسود المكان، الغالبية من الخلق يغطون في سبات.

حملت مقعدي واقتربت من النافذة التي تطل على الشارع التجاري الذي يخيم عليه الهدوء النسبي، رأيت قلة من المارة يسيرون بتثاقل، شعرت في هذا الصباح بارتياح وبأن نفسي شملها واحتواها الصفاء والهدوء بعد أن أخذ مني الإرهاق الفكري في الليالي والأيام السابقة مأخذه.

قادتني أفكاري إلى قادم الأيام وربما السنوات، إدراك الحلم يتطلب مني وقتًا وصبرًا، ولكي لا أتوه في الزحام عليَّ أن أقتحم الحياة

وأخالط الناس وأذوب في الشارع.

حال دخولي المحل لمحته خلف مكتبه يدوِّن شيئًا ما، جلست قبالته أرقبه، لم يفاجأ بوجودي وكأنه كان يترقب قدومي وبأننا كنا على موعد مسبق.

دون أن ينظر إليَّ سألني إن كنت قد تناولت طعام الإفطار قبل أن آتي إليه، بعد أن عرف طلب من أحد العاملين لديه أن يحضر لي كوبًا من الحليب ريثما ينتهي مما هو فيه.

رفع رأسه ونظر إليَّ قائلاً: عوِّد نفسك على تناول كوب منه قبل أن تفطر وستجد أنه يمدك بالطاقة والحيوية طيلة النهار.

دلالة مهذبة تشير إليَّ بأنه منشغل بعض الشيء وعليَّ الانتظار قليلاً.

بعد أن انتهى، أخذ نفسًا عميقًا ونظر إليَّ بابتسامة وكأنه يقول لي "اعذرني لانشغالي".

ثم قال: أرى الارتياح باديًا على وجهك، أليس كذلك؟

- أولاً: صباح الخير يا عم مصطفى، ثانيًا: فعلاً أنت محق فيما قلته، البارحة استمتعت بنزهة ليلية جميلة على كوبري قصر النيل وعدت منتشيًا، لقد نمت ما فيه الكفاية، وها أنا أكثر حيوية عن كل يوم.

لم يتبق لنا سوى البدء الفعلي في البحث عن موقع مناسب للمحل،

وقد يأخذ ذلك منا بعض الوقت، تركت له وحده مهمة البحث والاختيار للخلفية التي لديه بحكم خبرته المستفيضة عن الأماكن والحس الذي يمتلكه كونه أحد الغائصين في أحشاء السوق.

كان الوقت ظهرًا، قبل أن أودعه سبقني بقوله "هل لديك سعة من الوقت غدًا بعد صلاة العشاء لكي تصحبني إلى داري التي لا تبعد كثيرًا من هنا؟".

لم يزد على هذا، وكأنه على يقين بتلبيتي دعوته، ودعني وتركني وسار بخطى سريعة وكأنه على موعد قد أزف.

تسمرت في مكاني أرقبه إلى أن تلاشى من أمام ناظري، تبعثرت أفكاري لم أستطع أن ألتقط سببًا واحدًا لدعوته المفاجئة.

بطبيعة الحال أنا لا أعرف عنه الكثير، منذ أن التقيته ووضعت يدي في يده أسعى جاهدًا لمعرفة المزيد عن جوهره، لا أخفي أنني أنساق أحيانًا إلى تلوث فكري؛ يقودني إلى بؤر مظلمة على الرغم من أن بعض الصور وضحت لي رؤيتها.

أكاد أعيش في عزلة، عليَّ الحضور في الموعد الذي حدده، لعلِّي أخرج ولو قليلاً من صمتي وأغادر وحدتي، قد تكون كوة أطل برأسي منها وأنفذ من خلالها على مجتمع أسعى إلى الانخراط فيه.

كان في انتظاري، بادرني القول: لم أكن أتوقع حضورك قبل الموعد الذي حددته لك، بما أنه لم يتبقَ على الأذان سوى دقائق، ما

هو قولك في أن نؤدي صلاة العشاء في مسجد الحسين قبل أن نذهب؟

- قلت له : أصبت الرأي يا عم مصطفى؛ لقد كنت أتمنى ذلك من قبل ولم يسبق لي رؤيته من الداخل.

كنت أسير بمحاذاته، خلال سيرنا كان يصافح هذا ويرد التحية بأحسن منها إلى ذاك، لا يفرق بين أحد وآخر، لطيف يقابل البسطاء بابتسامة وتودد، يسحب يده ممن كان يجاهد في تقبيلها، عند مرورنا بالقرب من بعض المحلات كانوا من بها يدعونه لشرب الشاي كأحد المفردات التي ينطقون بها عادة، التفت إليَّ وقال: لا تتعجب، كلنا فقراء، فقط مظهرنا الخارجي هو ما يفرق بيننا.

بعد أن تركنا الفضاء خلفنا، احتضنتنا الحارة واحتوتنا الأزقة الضيقة المتعرجة، كنا خلال تلمسنا طريقنا نمر ببعض الفوانيس الخجولة المعلقة التي بالكاد ترسل ضوءها على الأمتار القريبة، كنا بين وقت وآخر نمر من تحت الأسقف التي يسودها الظلام، لم أكن قد رأيت ومررت من تحتها من قبل، سألته عن الغرض من إنشائها، قال لي بأنها أنشئت أصلاً لأجل أن توصل مكونات الدار الواحدة ببعضها بدلاً من تمزق الأرض الواحدة.

بعض الأزقة الضيقة كانت تدفعنا إلى السير بمحاذاة بعض البيوت والالتصاق بجدرانها التي تنفذ من شقوق نوافذها أنوار خافتة،

وللسكون والهدوء اللذين يلفان تلك الأزقة كانت تتسرب منها إلى آذاننا بعض الكلمات والهمهمات التي كانت تدور فيما بين قاطنيها وتتسلل إلى آذاننا أصوات بكاء الأطفال الصغار، لانعدام وسائل السهر، غالبية قاطني هذه الأحياء الشعبية يخلدون للنوم من بعد صلاة العشاء مباشرة.

بعد أن تحررنا من سيرنا في تلك الدروب والأزقة، خرجنا من دهاليز الصمت المطبق إلى رحبة واسعة بعض الشيء تطل عليها من جهاتها الأربع واجهات دور، أغلبها شيد من طابقين تنفذ من خلالها الأزقة التي تؤدي إلى بقية أرجاء الحي وإلى الشوارع الخلفية والميادين القريبة.

يقيم هو وأفراد أسرته في إحداها، المبنى ظاهريًا آخذ في الاتساع لطول واجهته المبنية بعناية فائقة من الأحجار والآجر الأحمر.

بعد أن رحب بي أشار إليَّ بالجلوس على مصطبة (دكة كما يطلق عليها) التحمت بجدار داره ومرتفعة قليلاً عن مستوى الشارع الترابي، نثرت عليها الوسائد الجلدية المحشوة بالقش التي تستخدم كمتكأ، كنت رأيت بعضًا منها معروضة للبيع في خان الخليلي.

المصطبة

المكان يتسع لجلوس عدد من الأفراد، ذكر لي ونحن في طريقنا إلى هذا المكان بأن ثلاثة من أخلص أصدقائه من الذين امتدت صداقته معهم سنوات طوال يأتون للسمر وقضاء بعض الوقت للترويح من بعد يوم حافل بالعمل وذلك من بعد صلاة العشاء في كل ليلة.

كان أول القادمين الحاج عبد الستار، من خلال تعريفه ذكر لي بأنه يمتلك ويدير فندقًا صغيرًا يقع في حي الحسين ورثه عن والده، صافحته فهز يدي بعنف كاد أن يخلع كتفي من جسمي الضئيل.

كان طويل القامة مع شيء من الامتلاء، كث الشاربين ثاقب النظرات من خلال عينين ضيقتين، جهوري الصوت، يرتدي جلبابًا بلديًا ويعتلي رأسه طربوش أحمر يغطي نصف جبهته، بدا لي جامد الوجه من خلال طلته الأولى رأيته يتفحصني بدقة، لا شك في أن طبيعة عمله أملت عليه بعض إيماءاته.

يخال إلى من يلتقيه للوهلة الأولى أنه قاسٍ وفظ اعتمادًا على تضاريس وجهه التي لا تدل على ما بداخله، وهذا ما تبين لي بمرور الأيام، بعد أن قام بتعريف كلانا للآخر تركنا العم مصطفى ودلف إلى داخل داره.

في هذه الأثناء وفد إلينا السيد فتحي، عرفت أنه يعد أحد كبار تجار الأقمشة في سوق الموسكي إلى جانب امتلاكه لعدد من المحلات في أماكن أخرى.

بدا لي مشرق الوجه دقيق التكوين مع نحافة بادية، حليق الذقن والشارب قصير القامة حنطي البشرة، يقبض على عكاز بمقبض من العاج لا يتكئ عليه، يتقدمه يضرب به الأرض كنوع من الوجاهة، تعلو وجهه ابتسامة لا تفارقه تنم عن الرضا الذاتي، صافحني بحرارة وكأنه على سابق معرفة بي، وبعد أن أخذ مجلسه بيننا منحنيًا وساجدًا على ركبتيه ومسلطًا نظره إلى الأرض موجهًا كلامه إلى العم مصطفى كمن يطلب منه إنصافه، ومن دون أن يرفع نظره وبنبرة تنم عن عتاب: سوف لن ألبي أي دعوة تأتيني مستقبلاً من قبل الحاج عبد الستار.

باستغراب: خير! ماذا جد بينكما؟ أنتما دائمًا كالضرائر، ماذا جرى لكما؟

دون أن يوجه نظره إليه موجهًا كلامه هو الآخر إلى العم مصطفى طالبًا منه الوقوف معه في تبرير موقفه والأخذ بحجته قائلاً: كل ما في الأمر هو أنني تخلفت عن حضور عقد قران ابن أخته، لم أغادر الفندق في تلك الليلة إلا بعد منتصفها لطارئ استجد، كلكم يعرف ما نعانيه نحن أصحاب الفنادق من منغصات تطرأ فجأة من بعض النزلاء، عمومًا أقدم اعتذاري.

على الرغم من قساوة ملامحه بدا لي أنه طيب القلب كالطفل، وعلى حد قول العم مصطفى "كلمة توديه وكلمة تجيبه".

موجهًا إليهما حديثه المصحوب بابتسامة: في هذه الليلة يحضرنا ضيف؛ اتركوا العتاب جانبًا، ولا تفضحونا.. يا سيد صالح هذا دأبهم على طول، ولكن للحق أقول عتابهم وتحرشاتهم الدائمة تنبع من حب كل منهما للآخر ولا تحلو السهرة إلا بجدالهما. ولكن ماذا عن السيد عبد الغفار؟ لماذا لم يأت معك يا سيد فتحي، ألم تمر عليه وتصحبه معك كما عودتمانا دائمًا؟

نسيت أن أذكر لكم بأن نسيبه أتاه صباح هذا اليوم مصحوبًا بأخت زوجته الدائم الشجار معها، ماذا يفعل كلما احتدم الجدال بينهما؟ يلجآن إليه، كلاهما يلقي باللوم على الآخر، وهو في حيرة من أمرهما، وأكمل: منذ أن تيتمت بعد موت أبويها ليس لها إلا أختها الوحيدة تلوذ إليها عندما يدب الخلاف بينهما. واختتم كلامه بقوله: من الواجب على زوجها أن يعطف عليها ويراعي يتمها.

أعقبه العم مصطفى بقوله: ما أدرانا بظروف حياتهما المعيشية؟! أنتم أول العارفين بقساوة تعاملات وسلاطة لسان بعض النسوة على أزواجهن، وحارتنا تعج بهن وقد لا يمر يوم من دون أن نسمع بأن فلانًا طلق زوجته لتطاولها عليه، وأحيانًا يصل الأمر إلى تعديها عليه بالضرب، هل غابت عن بالكم تلك الليالي التي كنا نستيقظ فيها على أصواتهم؟!

واصلوا الكلام وتبادلوا القفشات، كانت أمسية جميلة لم أكن أرقَ إليها إلا بدعوة من العم مصطفى ومصاحبته. المزاح اللطيف المتبادل فيما بينهم يغلفه الاحترام، كما قيل لي جمعتهم صداقة قديمة وعِشرة طويلة، نبذوا الفوارق المادية والثقافية فيما بينهم، لاحت في تعاملات كل منهم مع الآخر الروح المصرية المرحة. كان فارق السن بيني وبينهم كبيرًا، وحتى لا أنزلق إلى خطأ لفظي أو قول غير مستساغ كان لزامًا عليَّ أن أجلس في الظل وأسمع ما يدور فيما بينهم؛ التزمت الصمت طيلة الوقت، لم أتفوه إلا بكلمات قليلة تحسبًا وتقديرًا؛ لم أشاركهم الكلام، هم يتحدثون عن ما كان قد جرى في بيوتهم، عن أقاربهم، عن حياتهم اليومية. أعرف أنه في مثل هذه المواقف يكون تاج الكلام حسن الإصغاء.

بدا لي من خلال استقبالهم وترحيبهم بي بمشاركتهم أمسيتهم بأن العم مصطفى قد أفاض ومهد ونال موافقتهما المسبقة قبل أن أنضم إليهم، قضيت معهم قرابة الساعتين لم أشعر خلالهما بالغربة، لصفائهم، لن يكون عسيرًا عليَّ الالتحام بهم، انفض الجمع وذهب كل منهم إلى وجهته، قيل لي هذا دأبهم في كل ليلة. ودعتهم وأنا أحمل شعورًا بأنني قد تركت أثرًا طيبًا لديهم. في أثناء جلوسي معهم كان لديَّ إحساس بصدق ترحيبهم بي وذلك من خلال عذوبة تعاملهم معي وكأنهم قد التقوا بي من قبل.

غادرتهم منتشيًا وسعيدًا، تجولت في الأسواق القريبة من الفندق

التي لا تزال مزدحمة بروادها، سرت متمهلاً أرقب ناسها، على أن أعود إلى الفندق، أعرف بأن وطأة الحرمان تفضي إلى الشجن، أخشى جرح العين المؤلم.

ركنت قرب النافذة أرشف فنجانًا من القهوة أرقب المارة، حرمت الأهل والدار، كعادتي عندما أخلو إلى نفسي أذهب بعيدًا ويسحبني الخيال، في هذه الليلة تخيلت القادمة التي سوف تزورني وتداعب أحلامي، أبحث عنها، ربما تكون قادمة لكي تخلع عني رداء الوحدة، وهم وخيال وأحلام تعودت على نسجها منذ الصغر، أستسقي منها أشياء جميلة أعيشها لدقائق, بعد عودتي إلى واقعي أكون في حالة يطغى عليها الصفاء الذاتي وكأنني عشت الحقيقة، منذ أن قدمت كبرَت لديَّ تلك الأحلام, أخشى أن يمضي عمري في التعلق بخيالات واستحضار الصور. حمدت الله على أنني أملك القدرة على الحلم، ألوذ إليه كجرعة مسكنات تطفئ افتقاري إلى أشياء، وفي اعتقادي بأن الإنسان الذي يفتقر إلى الخيال هو دون ذلك. عليَّ أن أخلد إلى النوم.

لم تسعني الفرحة عندما وجدت رسالة من أخي، لا أدري على ماذا تحتوي سطورها، كانت يداي ترتعشان وأنا أفضها، اطمأن قلبي وسررت لاحتوائها فقط على دعوات وأمنيات ولم يزد على هذا، كنت أخشى منهم الملامة التي لا أحتملها في غربتي.

جلست أحتسي كوبًا من الشاي في بهو الفندق، وذلك بعد عودتي

من تناولي وجبة الإفطار في أحد المطاعم القريبة كما تعودت صباح كل يوم.

في بعض الأيام قبل مغادرتي أطيل الجلوس في بهو الفندق، أسلي النفس بمراقبة القادم والمغادر، وقراءة بعض الصحف اليومية المتناثرة على الطاولات والتي تقوم إدارة الفندق بطرحها بين أيدي النزلاء.

نفسي لم تعد تتقبل أكل المطاعم؛ ثلاثون يومًا وأنا على هذه الحال، اشتقت إلى طبخ أمي، لا يزال طعمها ذائبًا في فمي.

أدرك أن أيامي سوف تمتد إلى زمن لا أعلمه في هذه المدينة، لذا كان لزامًا عليَّ أن أقوم بالبحث عن سكن مناسب يأويني ويريحني من بعد أن وطنت النفس والقدم، يجب عليَّ أن أقبض يدي من الإنفاق، لم تعد الإقامة في الفندق مجدية، ولم تعد الغرفة التي تقبع بين أربعة جدران تروق لي.

رسمت في مخيلتي صورة شقة واسعة أنعم بالتجول في أرجائها، أتنقل من غرفة إلى أخرى، أدخل إلى المطبخ أهيئ لنفسي كوبًا من الشاي، أتناوله متى أشتهي وبالكمية غير المحددة وليس كما هي حالي هنا.. لقد اختمرت الفكرة في رأسي، لماذا لا أبدأ من هذا اليوم رحلة البحث عن شقة، أعرف أن الحصول عليها قد يأخذ مني وقتًا وجهدًا ليس بالقليل.

لمحته داخلاً الفندق، تقدمت إليه مسرعًا واستوقفته قبل أن يأخذ مكانه خلف مكتب الاستقبال ويتفرغ لعمله المعتاد ولا ينالني من وقته شيء.

- سعدت صباحًا يا سيد سامي، لقد قررت ترك الفندق والبحث عن شقة لانتقل إليها، بالأمس خطرت لي فكرة الانفراد بمسكن يأويني وحدي كي أستقل بذاتي، هل بإمكانك إرشادي إلى كيفية الحصول عليها وإلى من أذهب؟ وهل لديك الوقت الكافي لمعاونتي؟

نظر إليَّ باستغراب: ماذا جد؟ هل أساء إليك أحد العاملين لا سمح الله؟ أم أنك زهقت منا بهذه السرعة؟

مقولة يرددها عادة معظم العاملين في مثل هذه المرافق.

أجبته: لا ليس الأمر كذلك، ولكن لأن مدة إقامتي في مدينة القاهرة قد تطول لعدة أشهر وربما لأكثر من ذلك، إلى جانب أنني مللت القيود وطقوس العيش في الفندق.

- معك كل الحق فيما ذهبت إليه، أعطني بعض الوقت، في غضون يومين سوف أسأل وأبحث وأختار ما يناسبك؛ البحث عن شقة تتفق مع حالتك الراهنة يتطلب وقتًا ولا بد من الانتقاء بعناية كمن يبحث عن عروس بمواصفات محددة.

غمرتني السعادة لدى علمي بأن العم مصطفى وفق في الحصول على موقع مناسب لمتجرنا، والشيء الذي زاد من سعادتي وأسعدني

كثيرًا موقعه الذي لا يبعد سوى عشرين مترًا تقريبًا عن متجره.

تسارعت خطوات موعد افتتاحه، زود بكامل تجهيزاته اللازمة خلال أيام قليلة.. دعوات والدتي بالتوفيق لا زالت تتقدم كل خطواتي.. لم يتبق لي شيء هام أعمله أثقل وأكثر مما أنجزته، لقد قطعت شوطًا طويلاً من الطريق، خلال أيام سوف أجد نفسي جالسًا في متجر أمتلكه، جزء هام من أحلامي سوف يتحقق، لا أصدق هذا.

سرّه ما ذكرته له من أنني قد عقدت العزم في البحث عن شقة أقطنها؛ بادرني القول: أعرف أن خطوتك القادمة ستكون الاستقرار والاستقلالية.

أجبته: هذا هو ما أنوي الإقدام على فعله.

دون أن يصوّب نظره إليَّ: من بعد انتقالك إلى شقة لا يشاركك فيها أحد سوف لن يتبقَ لك سوى زوجة تتولى إدارة شؤونك المنزلية وتنظم لك حياتك.

نظر إليَّ نظرة خاطفة ليرى ردة فعل كلماته. وكأنني منشغل بوضع بعض المقتنيات الفضية بعناية في مكانها: البركة فيكم أنتم، وأنت يا عم مصطفى في مقام والدي رحمه الله.

لم ينس أن يلقي إليَّ ببعض من نصائحه وإرشاداته كعادته بقوله: يا صالح هناك أمور هامة يجب عليك الحرص في الالتزام بها، ومن أهمها الابتعاد عن الشقة المنزوية التي تقع في الأزقة والحواري

الشعبية الضيقة، وابتعد عن العمائر التي يوجد بها بعض الشقق المفروشة التي تؤجر لأيام محددة، ابحث عن شقة في إحدى العمائر التي تطل على ميدان فسيح أو شارع واسع ويكون قاطنوها من الأسر المصرية.

قالها بنبرة شبه آمرة، فيما بعد استوعبت ما كان يرمي إليه، نظرته البعيدة كانت تهدف إلى حمايتي من نفسي في المقام الأول وتجنيبي إلحاق الضرر بالآخرين. أعرف بأن أمري يهمه.

أرجات البحث عن شقة إلى ما بعد عودتي من مدينة الطائف بعد أن عقدت العزم على زيارة الأهل لعدة أيام أقف خلالها على أحوالهم لحين عودة الهدوء إلى النفوس المضطربة الوجلة من الأحداث الجارية في بورسعيد للمعارك الدائرة هناك لصد الجيوش الغازية من اليهود المعتدين والتي كان لها أثر بالغ في تقليص أعداد الجائلين من المتسوقين، والذي على أثره حل الركود بشكل لافت في تبادل عمليات البيع والشراء بعد أن لزم الغالبية من السكان منازلهم ترقبًا لما قد يحدث في قادم الأيام، عم مصطفى بدوره راقت له فكرة زيارة أسرتي في هذا الوقت تحديدًا.

أعود إليهم بعد غياب لأكثر من ستة أشهر، شعرت خلالها بوحشة الفراق، لم أعتد البعد عنهم مدد طويلة من قبل؛ تفجرت لديَّ منابع الشوق وازداد حنيني إلى رؤيتهم. لقد عانيت الكثير لحين ترويض النفس على البعد، من الطبيعي أن أشتاق إلى رؤيتهم، كيف لا وهي

أمي وذاك أخي وتلك أختي؟!

العودة الأولى إلى مدينة الطائف

اشتقت إلى رؤيتها أكثر من غيرها، الآن أنا أحوج ما أكون إلى التزود بدعواتها ورضاها لتصطبغ مسيرة حياتي المستقبلية ببركتها.

اطمأنت قلوبهم، فرحوا لوجودي بينهم، أخي الذي كنت أتأذى من لغة حواره الحارقة التي كانت تصفع أذني في كل يوم بدا لي سعيدًا بقدومي، هز بدني وأحسست بحنان الأب عندما ضمني بقوة إلى صدره، للمرة الأولى شعرت بصدق مشاعره، الآن تأكد لي أن حب الأخ من نوع فريد، دمعت عيناي وقت أن أمسك بكتفي ونظر إلى وجهي مليًا قبل أن يهزني بعنف مستحب، وهو يقول لي: قسوت عليك لتكون أحسن مني يا صالح.

للمرة الأولى رأيت الدموع تترقرق من عينيه، هل انتابه شعور بالذنب أم فرحًا برؤيتي، كيف لا ونحن من تفتحت أعيننا تحت سقف هذه الدار.

أمي ظهر على وجهها معالم زحف العمر، لم أغب عنهم طويلاً، لم ألحظ هذا من قبل، وضحت لي هذه الرسوم عندما ضممتها وتفرست في وجهها بعمق غير مسبوق، رأيتها كما لو كانت أكبر من عمرها، هكذا رأيتها الآن، أحاسيس غريبة هزتني هل لأنها المرة الأولى التي أتغيب فيها عنهم؟ لا شك في أن الضغوط النفسية اشتدت

وطأتها عليها بدئًا من فقدها شريك عمرها والسند الوحيد التي كانت تلوذ إليه.

أمي فقدت أشياء, كنت أرى أبي يربت على كتفها ويمسح على رأسها عندما كان يرى العرق يتصبب من وجهها بعد الإرهاق والحركة الدؤوبة طيلة النهار والليل في سبيل راحة كل المتظللين تحت سقف هذه الدار، كنت أراها تتسول الراحة.

انفردت بها ووضعت رأسي على صدرها: ماذا جرى لكِ يا أمي؟ كعادة كل أم على ظهر هذه الأرض اصطنعت الفرح ورسمت على وجهها ابتسامة، أعرف أنها مغتصبة: لا شيء يا صالح كلنا بخير ولم يكن ينقصني سوى وجودك بيننا، أوهمتها أنني صدقتها، الجوهرة الملتصقة بقلبها لم تحركها النوائب، والشهد الذي كنت أغترف منه ما زال يتدفق، أعادت إلى نفسي صفاءها وأزالت ما تراكم عليها من مرارة البعد عنهم.

أمي ذكرت لي أن أختي الوحيدة تقدم إليها عريس، خلوت إليها سألتها، صارحتني بأنها قانعة بنصيبها, رضيت به بمحض إرادتها وبعيدًا عن أي ضغوط من أي منهم، لقد كان يهمني أمرها لمعرفتي المسبقة باستكانتها وحيائها الملازمين لها منذ صغرها، أعرف أنها تستسلم أحيانًا لما أريد لها.. دعوت لها بالتوفيق.

كانت مناسبة لقائي به والتعرف إليه من خلال وليمة غداء جمعتني

به أقامها أخي احتفاءً بعودتي، بعد أن انفض المدعوون انتحيت به جانبًا وتكلمت معه، قال لي بأنه يعمل في إحدى الإدارات الحكومية بمرتب لا بأس به، عدت بذاكرتي قليلاً إلى الوراء، كنت أشاهد يوسف في بعض المناسبات التي كان أخي يجمعنا فيها ببعض أفراد أسرة زوجته، علمت منه أنه ينتمي إلى إحدى تلك الأسر التي تربطها صلة قرابة مع زوجة أخي.

فترة وجودي التقيت بصديقي عبد العزيز، ذهبنا إلى أحد المقاهي التي كنا نرتادها من قبل، رويت له ما أقدمت على عمله هناك، طفت على بعض الأزقة التي كانت لها مع النفس وقفات، قابلت بعض أصدقائي ممن كانوا لا يفارقونني وكنت دائم اللقاء بهم واللعب معهم في أزقة مدينة الطائف، عندما التقيتهم استأنفنا حديثنا وكأن لقاءنا لم ينقطع إلا بالأمس، قابلتهم فردًا فردًا- كعادة أبناء الحارة الواحدة- حتى من كنت أختلف معه طرقت باب داره وسلمت عليه, لا أدري لماذا حرصت على وداع الكل, كان لديَّ إحساس بأن غيابي ربما قد يطول.

الأهل كنت قد غادرتهم في المرة الأولى وأنا في قمة الإرهاق النفسي، والآن أغادرهم وأنا أحمل هم البعد عنهم, لم ينتبني هذا الشعور حينما غادرتهم في المرة الأولى، لأن النية وقتها كانت متأرجحة بين المكوث هناك أو العودة.

فى الأيام الأولى لم أقل لها بأنني قد قررت العيش هناك, عندما

أخبرتها لم تقوَ على الوقوف ونظرت إليَّ باستغراب وجلست على الأرض ووضعت كفها على جبهتها وأطرقت قليلاً ثم رفعت بصرها إلى صورة أبي المعلقة على الجدار وقالت لي: "حتى أنت تريد أن تتركني وتذهب يا صالح؟!".

بعد أن تأكد لها مغادرتي, ليلة سفري قضت عدة ساعات في عمل الكعك المحشو بالتمر, كنت كلما دخلت عليها في المطبخ تصرف النظر عني وتدير وجهها إلى ناحية أخرى وتمسح دموعها خشية رؤيتي لها وهي في هذه الحال.

دست بين طيات ملابسي قليلاً من الحلوى التي كانت من عادتها إخفائها عن أعيننا للاحتفاظ بها لتقديمها حين قدوم زوارها, كنت أحيانًا أغافلها وأسطو على شيء منها.

عند وداعها نظرت إلى وجهها مليًا، كنت أستعطفها وألتمس رضاها، صبت على مسمعي كمًا من الدعوات، كانت تودعني وهي رافعة يديها إلى السماء وعيناها مليئتان بالدموع، كانت راضية عني، الرضى قارب نجاة أبحر به خلال مسيرتي في قادم الأيام، أعود بعد أن أعادت إلى نفسي صفاءها، لم أمكث عندهم طويلاً.

خطوت إلى خارج الدار ووقفت على عتبتها التي طالما جلست عليها، قبل أن أعاود التقاط حقيبتي تلفت يمنة ويسرة، لا أدري لماذا، وقفت دقائق، ألقيت بنظري على الشارع الذي تصطف على جانبيه

عدة بيوت متلاصقة يعرف كل من قاطنيها عدد أفراد الأسر الأخرى، الشارع منذ سنوات تسكنه أسر بعينها، في الأفراح يجتمعون وفي الأتراح يلتفون حول بعضهم، إنها شيمة أهل الحارة.

ألقيت بنظري على هذا الشارع الذي ترعرعت وجريت ومرحت وضحكت وبكيت فيه، هل كنت ألقي عليه نظرات الوداع؟ الأعوام التي قضيتها هنا غاصت في أعماقي، هذا الشارع يوحي لي بالكثير.

لمحته يقترب مني، إنه العم إبراهيم الذي يفصل دارنا عن داره جدار يرتفع قرابة المترين، كنت أرى أمي في بعض العصاري تضع صندوقًا خشبيًا وتعلوه للحديث لدقائق مع زوجته الخالة مريم.

كانت بيوتنا تطل على السماء، يتكون معظمها من دور واحد، بعض منها شيد من الحجارة والغالبية منها كانت تبنى من قوالب اللبن (الطوب الطيني) المعمول من خليط يتكون من الطين اللدن مع قليل من القش لتفادي تفسخه بعد أن يجف، تكسب البيوت البرودة صيفًا والدفء شتاءً، كانت البيوت تسقف بعروق معينة لبعض الأشجار ومن فوقها يرص سعف النخيل ثم يليه الخوص المنسوج والطبقة العلوية تدك بالتراب.

ولكي لا أنسى في هذا السياق شيئًا مما أتذكره، عندما كانت الأمطار تهطل بغزارة وتتسرب بعض النقاط من سقف الغرفة كان أبي يرفعني ويناولني جفنة بها خليط من الرماد والملح ويشير إليَّ

بأماكن وضعها، قائلاً لي: دوس عليها عدد من المرات ودكها بقدمك، لا أدري ما هو سر هذا الخليط العجيب، قد يكون لديهم ما يبرر عمل مثل هذا, علمًا بأن مادة الأسمنت كانت ناقصة من أسواقنا في تلك الفترة من الزمن.

كنت أرى أمي في بعض الأوقات تطل على جارتها لتتناول أو تعطيها شيئًا مما طبخته في ذلك النهار, من العادات التي كانت متداولة بين الجيران المقربين، كانوا يتبادلون في بعض الأوقات والمناسبات أطباق الأكل والحلوى، ألفت في بعض الأيام رؤية ألوان من الطعام فوق مائدتنا، كانت أمي تشير إلى بعضها وهي تنظر إلى أبي ترقب ردة فعله قائلة له: هذا الطبق وصلنا من فلانة وذاك أرسلته فلانة، وكمثال من أمثلة سخافة وعقلية تلك المرحلة السنية من العمر, كنت قبل أن أمد يدي إلى ذاك الطبق أتخيل وجه من طبخته, كنت أعرف كل واحدة منهن, أمي تعرف قصدي وكانت دائمة القول لي: من نضافتك يا فالح؟!

كانت الأطباق تدور في بيوت الجيران، كنت ألمحها متراصة بعضها فوق بعض على أحد أرفف المطبخ، كانت مختلفة الأحجام والألوان، قد تحتفظ بها لأيام لحين إعادتها إليهم محملة بما لذ وطاب، أمي هي الوحيدة التي تعرف أن هذه لفلانة وأخرى لتلك، فراسة فطرية تدعو إلى الإعجاب الشديد.

أعود إلى العم إبراهيم.. وقف على مسافة قريبة مني وبحنق ظاهر

قال: من بعد موت أبيك تركت أمك يا صالح وذهبت للعيش بعيدًا عنها في وقت هي في أمس الحاجة إلى ملازمتك لها لتلبية طلباتها والوقوف بجانبها، بعدت عنها يا صالح بعد أن تقدم بها العمر؟!

لم يعطني الفرصة لتقبيل يده كما تعودت منذ الصغر عندما كنت ألتقيه، تلعثمت قبل أن أجيبه وقلت له: الظروف هي التي أجبرتني على هجرتي، أدار لي ظهره وهز رأسه يمنة ويسرة كمن يتحسر على فعلتي ولوَّح لي بظاهر كفه من فوق كتفه وكأنه يقول لي دعك من هذا، بعد أن ابتعد قليلاً سمعته يقول: أي ظروف تجعلك تترك أمك وحيدة. وأكمل سيره وهو يردد القول: رحم الله والدك! رحم الله والدك!

العم إبراهيم- إلى جانب كونه جارنا من قبل أن أرى الدنيا في هذه الدار- يعد من أقدم وأخلص أصدقاء أبي، يمتلك محلاً لبيع الأقمشة في وسط البلد، الصرامة تسكن محياه ولا تفارقها إلا ما ندر، على الرغم من قساوة ملامحة كان يتصف بالطيبة والكرم وحسن التعامل مع الداني والقاصي. لا زلت أتذكر صوت بكاء الخالة مريم من جراء تعديه عليها بالضرب غير المبرح، والذي من بعده تجري هاربة منه مولولة تلوذ إلى أمي وتجلس القرفصاء مستندة إلى الجدار دافنة رأسها بين ركبتيها, بين برهة وأخرى ترفعه لتمسح دموعها وأنفها السائل بطرف عباءتها, بعد قليل تستوي في جلستها بعد أن تكون كحلتها السوداء الملازمة لها التي لا أفرق بين لونه ولون الفحم

قد غطى نصف وجهها المثير للضحك بدلاً من الشفقة عليها وهي في هذه الحالة.

كنت أرى أمي تخفي فمها بكفها وتضغط على أنفها بإصبعيها لكي تكتم ضحكتها وهي تنظر إليها، والتي هي بدورها كانت تضحك وعيناها مليئتان بالدموع، وبعد أن تهدأ قليلاً تقوم بغسل وجهها ونفض أنفها السائل.

بعد أن تمكث قليلاً وتهدأ كانت أمي تصحبها إلى دارها، كنت أسمعها تكلم العم إبراهيم من خلف الباب وترجوه أن يعفو عنها.

على الرغم من طيبة قلبها كان أبي دائم القول إنها بلهاء تصدر عنها بعض الأفعال والتصرفات المستفزة الساذجة من دون قصد، مما يجعل العم إبراهيم يثور ويغضب من أفعالها تلك، ويضطر إلى تأديبها كل فترة.

العم إبراهيم من الصنف الذي لا يملك رحابة صدر، هذا ما كان يقوله أبي لأمي عن سبب تعديه عليها بالضرب.

حملت حقيبتي وذهبت إلى رأس الشارع أترقب مرور سيارة أجرة توصلني إلى المكان الذي تتجمع فيه السيارات المتوجهة إلى مدينة جدة، كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا، جاء وقوفي على بعد أمتار من صالون الحلاق عبد الشكور الذي كان مقفلاً في هذا الوقت، كانت لي في الصغر مواقف معه لا تنسى ولا بد أن تروى...

كان أبي يأخذني ويسلمني له بعد أن يوصيه بحلق شعري بالموس وذلك بناء على طلب أمي التي أسمعها تقول له: من كثر تلبد شعر رأس صالح أستهلك نصف الصابونة وبالكاد رأسه ينظف، خذه اليوم إلى الحلاق, عندما أسمع ذكر اسم الحلاق, كان صدري يضيق وأحسب ألف حساب لتلك الساعة التي أطأطئ فيها رأسي بين يديه.

أبي كعادته كان يتركني عند الحلاق ويذهب على أن يعود بعد قضائه بعض حوائجه، لشدة ضيق خلقه عندما كنت أعطس أو أسعل كان يلسعني على قفاي بكفه قائلاً بحنق: لا أريدك أن تتحرك والموس يعمل وأنت بين يدي، هل تريدني أن أسلمك لأبيك بأذن واحدة؟!

عند عودة أبي أكون في حالة يرثى لها، كان ينظر إليَّ بحنق قائلاً لأبي: خذه وانقعه في طشت الغسيل لكي ينظف، لقد لطخ الفوطة التي وضعتها في رقبته بدموعه والمتسرب من أنفه كالصنبور، قلت لك مرارًا لا تتركه وتذهب إلى حالك. أبي كان يمده بالمعلوم ويسحبني من يدي ويولي بي وهو يضحك.

في تلك الفترة من الزمن عندما أمر من أمام محله كنت أراه في وقت فراغه يقف أمام المرآة منتصبًا يمشط شاربه الكث الذي يغطي شفته العليا بمشط صغير يحتفظ به دائمًا في الجيب العلوي من البالطو الأبيض اللون الذي يرتديه.

بعد أن كبرنا وتوالت الأعوام وأخذت من حيويته، أذكر عندما أمر من أمام محله كنت ألمحه جالسًا على كرسي الحلاقة يغط في نوم يسمع شخيره كل من يمر بالقرب من محله، ينتفض عند سماعه صوتًا أو وقع أقدام زبون دخل محله، عندها يفرك عينيه قائلاً: سهرت مع أم العيال ولم أنم طيلة الليل، ليوهم الغير على أنه ما زال محتفظًا بشبابه.

يممت نحو دنياي وعالمي الجديدين، تفرست في الوجوه السائرة من حولي ورددت في داخلي: متى أراكم؟! إن قدر لي أن أعود بعد زمن ورأيت أن القاطنين في هذا الشارع الضيق قد تبدلوا وتغيرت معالمه، عندئذ تكون الحياة بالنسبة إليَّ قد ماتت.

بعد عودتي إلى القاهرة عاودت البحث عن شقة. لم تنقطع صلتي بالسيد سامي؛ لم يبخل عليَّ بشيء من وقته، بعد مغرب كل يوم بمجرد انتهائه من عمله كنا نلتقي ونبدأ رحلة اللف والدوران، ساعدني رغم الإجهاد الذي يتكبده جراء عمله المتواصل طيلة النهار، نطوف معًا نستقصي ونسأل لنختار ما يناسبني، أسمع صدى تعليمات ون

صائح العم مصطفى.

أخيرًا وجدت ضالتي في عمارة جميلة, تطل بلكونتها الواسعة على أحد أهم الشوارع التجارية في وسط البلد، وبإيجار مناسب لا يفوق طاقتي.

في هذه الليلة اكتمل نصاب صحبة العم مصطفى بحضور السيد عبد الغفار الذي لم أكن قد التقيته من قبل، من خلال تلك الخطوات المنضبطة وهو مقبل علينا رأيت في مشيته أنه يرسل نظراته إلى البعد، كانت عيناه تسبقان موقع أقدامه، كيف لا وقد قيل لي إنه قد أمضى عشرات الأعوام في السلك العسكري؟! عمله أكسبه شيئًا من الهيبة والاتزان، رأيته طويل القامة مع نحافة شديدة، يميل لون بشرته إلى السمرة، غائر الخدين، أجعد شعر الرأس، حليق اللحية والشارب، منتصب الظهر، عرفت منهم أنه من أهالي مدينة أسوان، قدم في صدر شبابه إلى القاهرة والتحق بكلية الشرطة وترقى إلى

رتبة عميد، وقبل سنوات شمله التقاعد الوظيفي، كان قليل الكلام، رأيت فيه الاعتداد بنفسه من دون المساس أو التعدي على مشاعر الآخرين، يجيد الإصغاء، لا يقحم نفسه في جدل لا يفضي إلى شيء.

على عكسه كان الحاج عبد الستار لا يعطي لأحد مجالاً للاسترسال في الكلام، يقحم نفسه ويدلي بدلوه فيما يعرفه أو يجهله، على الرغم من هذا مداخلاته لا تلقى تأففًا، كان الكل يتقبلها لصفاء نيته، رأيتهم ينصتون إليه باهتمام بالغ ويتجنبون جرح معلوماته التي غالبًا ما تفتقر إلى الصواب لضآلة ثقافته.

كادت السهرة تنقضي والحاج عبد الستار يروي لنا بعضًا من مشكلاته اليومية مع بعض نزلاء فندقه الذي بطبيعة الحال ترتاده أنماط متباينة من البشر، ولم يغفل عن ذكر سلوك ابنه الوحيد الذي لا يراه إلا نادرًا، علمت فيما بعد أن ابنه امتنع عن الوقوف بجانبه ومساعدته في إدارة شؤون فندقه، وبأنه صادَقَ شلة السوء وانغمس في الموبقات.

على الرغم من كل ما كان يعانيه كانت تغلب على أحاديثه الظرافة وخفة الدم اللافتان وحضوره الذي لا يُمَل، هم يطلقون عليه "حكواتي الشلة" والذي لا تحلو السهرة إلا بوجوده لثرثرته المقبولة التي يغلفها الظرف الذي يجعل الكل يأنس لسماعها ويخرج في نهايتها بضحكة مدوية يهتز فيها بدنه كله يسبق بها ضحكة المصغين والمحيطين.

العم مصطفى خفف عني وطأة العمل بإلحاقه الفتى أيمن الذي يقاربنى عمرًا ليكون عونًا لي في إدارة شؤون المحل، كان حسن المظهر وشعلة نشاط، هادئ الطباع، يجيد التعامل مع الزبائن، كان قد أثنى على أمانته وإخلاصه وهو من عمل في خدمته وعرفه لسنوات طوال منذ أن ألحقه والده بالعمل معه وتربى على يديه منذ صغره.

في الأيام الأولى اعتاد العم مصطفى التردد علينا لمرات خلال اليوم الواحد، يلقي بنظره على المحل ويطمئن على سير العمل، كنت أصغي إلى ملاحظاته وتوجيهاته التي لا غنى لي عنها، يمكث قليلاً ثم يغادر.

استقليت في شقتي, أعود إليها مساء كل يوم بعد قضاء يوم حافل بالعمل المتواصل الذي بدا لي مرهقًا في أول أيامه إلى أن اعتدت عليه.

لكي أتجنب الوحشة كنت لا أفضل الجلوس داخل الغرف المغلقه، أمضي معظم وقتي بعد عودتي مساء كل يوم في البلكونة الواسعة أشرب الشاي وأسمع صيحات وأصوات الجائلين من المارة والمتسوقين في الشارع التجاري الذي تطل عليه شقتي الواقعة في الطابق الثاني. سامي يزورني بين ليلة وأخرى ويشاطرني الجلوس والسمر.

هدأت نفسيًا؛ لم يعد هناك محل للصخب الفكري، كل اهتماماتي انصبت على عملي الذي أصبح هاجسي الوحيد والذي أخذ الكثير من وقتي, وبمضي الأيام تقلصت نبضات الحنين إلى الأهل، هل هي طبيعة النفس البشرية؟

لتبديد جزء من ساعات الفراغ وحتى ألتحم بالشارع كنت ألجأ إلى قضاء بعض الوقت بالجلوس في أحد المقاهي الشهيرة المطلة على ميدان التحرير أتحدث إلى هذا وأستمع إلى ذاك أو أواصل السير حتى كوبري قصر النيل الذي في الغالب يأخذ مني وقتًا طويلاً بحيث أعود مرهقًا وأخلد إلى النوم مباشرة.

لم ينقطع تواصلي وترددي بين ليلة وأخرى على شلة المصطبة- كما سميتها- كنت أميل إليهم بعد أن أكون قد فرغت من عملي لألتصق بهم وأقتطع جزءًا من ساعات وحدتي الليلية.

في بعض الأيام عندما أكون مجهدًا من جراء عمل يوم متواصل امتد لأكثر من اثنتي عشرة ساعة وأكون خلاله قد أرهقت وقوفًا وجلوسًا وفصالاً مع الزبائن، كنت أعود مباشرة إلى شقتي وأخلد إلى النوم، بهذا أصبحت أيامي موزعة بين العودة والمرور على شلة العم مصطفى.

تتعاقب أيام أعيشها رتيبة تمضي على نمط واحد لا تتبدل ولا يبدو على مشارف أفقها شيء جديد.

بدأت الليالي في الإطالة وأخذ دبيب خطواتها البطيئة يسري بتثاقل لا ينتهي إلا بطلوع ضوء النهار.. أليس من المحزن أن لا أذوق كغيري من البشر شيئًا من طعم متعة الحياة الزوجية بعد أن اكتملت لديَّ متطلباتها وانغرست في طينة هذه الأرض؟! تذكرت قول العم مصطفى "لم يتبق لك سوى زوجة ترعى شؤونك وتهتم بك كبقية الناس".

فاتنة الغورية

كعادة بعض أصحاب المحلات المجاورة عند انحسار موجة البيع والتي تنحصر ما بين صلاة الظهر والعصر، كنت أخرج مثلهم وأقف أمام المحل أتجاذب مع من يجاورني بعض الأحاديث التي تكون في العادة بعيدة عن عالم البيع والشراء، ومن بعد أن أكون قد بددت الخمول أعاود الدخول ثانية إلى المحل.

قبل عصر هذا اليوم خلال وقوفي أمام المحل كعادتي أتجاذب الحديث والنكات مع جاري رزق، رأيتها مقبلة، تسير وتلقي بنظرها على المحال المصطفة على الجانبين، تقبض بإحدى يديها على محفظة نقود صغيرة، وباليد الأخرى تسحب معها طفلة لا يتعدى عمرها السابعة.. الطفلة بطبيعة الحال قد لا تعرف لماذا اصطحبتها معها والتي كانت ترفع رأسها وتنظر إلى وجهها كالمستفسرة عن سبب توقفها أمام بعض المحال، قيل لي فيما بعد إنها تصطحب الطفلة لأجل أن تحميها، لم أرقَ إلى فهم هذه الفلسفة المحيرة بدايةً، كما لو كانت أحجية صعبة التصديق، ولكن بعد أن فسرت لي تفصيليًا اقتنعت بها.. كانت تسير نافرة صدرها، في مشيتها ثقة وشموخ، متجاهلة الأعين المتطفلة الشاخصة التي كانت تلتهمها وتلاحقها.

رحل بصري إليها ونالني شيء من تكوينها، قالب جسمها

المتناسق أمتع العين واستفزها، استقر صدرها العالي فوق عجزها المترنح، متمهلة في سيرها، تتوقف وتنظر وكأن لا وجود لأحد غيرها.. ترتدي رداء يغطي معظم جسمها وينساب حتى أصابع قدميها المخضبة بالحناء، تدثر أكتافها بوشاح ارتمى من الخلف حتى خصرها النحيل مما حرمني النظر إلى جزء من شعرها النائم على صدرها، أنوثتها الطاغية أملت عليها أن تستر الانحناءات بردائها الذي التصق واحتضن جسمها لكي يبرزها ويجعلها أكثر جذبًا, كانت تدفن بدائع كنوزها التي كبلتها.

أنَّى لي مكامن جمال في تلك الانحناءات التي سحبت عيني إليها! والأخرى مشتركة مع سائر الناس، لفتت انتباهي بطريقة غير مسبوقة، للمرة الأولى يخفق قلبي وتثار عواطفه، عقدت النية على تعقبها، وحتى لا ألفت الأنظار مكثت برهة ولم أتحرك من مكاني، عيناي كانتا تلاحقاها، حتى لا تذوب بين الجموع وتبتعد عن مجال بصري؛ أسرعت الخطى حتى دنوت منها، عيناي كانتا لا تريان غيرها، من على بعد قليل كنت أتبعها وكنت أراها تتوقف برهة أمام بعض المحال، وقتها كنت أرى الجالس من بعض العاملين يهب واقفًا وينظر إلى فمها أملاً في أن تشير إلى هذه أو تستفسر عن سعر تلك، فجأة تدير له ظهرها وتكمل سيرها، ينظر خجلاً إلى جاره الذي كان يرقبه فيرى ابتسامة وضحكة مكتومه بادية على أسارير وجهه هو وحده يعرف معناها، هذا المشهد تكرر لعدد من المرات خلال

سيرها، كل من بالسوق يعرفونها ويتسولون كلمة تقولها.

مشت تاركة السوق خلفها. يا لحظي العاثر! إذن هي عائدة من حيث أتت، تقدمتها لأجل أن أنعم بالنظر إلى محياها, نظرت إليَّ ثم أشاحت بوجهها. جربت السير بمحاذاتها وعندما أحست بوجودي بقربها تمهلت في سيرها، ففعلت، لاحظت أنها تنقل خطاها ببطء حينما اقتربت منها، توقفت ومالت برأسها إلى الوراء وألقت بنظرها نحو الأرض وارتفعت به حتى التقت عيناي بعينيها، رأيتها بعلياء ترفع أحد حاجبيها، لا أدري إن كان تعجبًا أم استخفافًا، لا أدري إلى أين سوف تأخذني، تبعتها حتى خرجت بي عن محيط منطقة الحسين وانتقلت بي إلى أزقة حي الغورية وواصلت سيرها وأوغلت إلى عمق الحارة، خفت من أن ينالني ما لا أتوقعه إن تبعتها إلى داخل دائرة محل إقامتها؛ وقفت في مكاني، هل بلغت نهاية الطريق، عيناي لم ترتويا بنعمة النظر إليها، هل سأراها ثانية؟

عدت من حيث أتيت، يقصر اللسان في وصفها، هي غانية ارتوت من ماء النيل العذب وأشرق محياها.

بعد أن عدت نظر إليَّ جاري السيد رزق وقال لي: لم تكن الوحيد المبهور بجمالها؛ لا تتعب نفسك؛ تبعناها وتأوهنا من قبلك وتبعها غيرنا.. يقال إنها لم تتزوج بعد, أي إنها تمتلك عذرية مخزونة، دأبت على إطلالتها هذه منذ سنوات قليلة.

وأكمل بأن أقاويل كثيرة نسجت حولها على الرغم من أن الكل عرف عنها نصاعة سيرتها وارتفاعها فوق الشبهات، قيل إنها تعيش مع أمها وهناك قريب لهما دأب على زيارتهما بين وقت وآخر.

ذكر لي بأنها بين فترة زمنية وأخرى تطل علينا طلة البدر يوم كماله ثم تحتجب من بعد أن تكون قد تركت في السوق الأماني وسحبت وراءها التأوهات، وختم كلامه بالقول: يا أخ صالح إن النظر إلى خلق الله المبدع يلهمنا الخشوع له.

حتمًا هي تعرف تمام المعرفة أن سلطان طلتها بين وقت وآخر يجعل من يراها يتأوه شغفًا، هل ما تفعله لشيء ما في داخلها؟ أم هي تكملة لعذابات من هم على شاكلتي؟

عمرها يشير إلى أنها في العقد الرابع، ولكن إلى متى يمكنها كبت ولجم ضجيج جسدها، تساءلت: هل من المعقول أن تكون أعين الرجال المحيطين بها تخلت عن هذه المرأة الفاتنة, إن لم تنعم بربيع عمرها السائر نحو الأفول فسوف تنعي مستقبلاً ضمور كنزها المخزون, ويتدنى تحليقها في سماء المتيمين.

بعدها كبرت لديَّ الأحلام والرغبة الملحة في الاقتران بزوجة تشاطرني العيش وتحد من إبحار بصري ملاحقة الحسناوات.

عبث ونداء شيطاني أخذ في التسلل إلى داخل مخيلتي، أخشى الولوج والوقوع في أنفاق الرذيلة، عليَّ أن أخطو بحذر، وبأن

المستور لا يخفى على أحد من الناس، أعي تمامًا إن انغمست رجلي في الوحل فسوف يطمرني حتى رأسي.

في أوقات كثيرة ألمح نظرات الريبة في أعين بعض أفراد أسر القاطنين من حولي، العبوس يقنع وجوههم عند رؤيتي وكأنني من فصيلة مؤذية، وأخص بالذكر السيد كمال المجاور لي في نفس الطابق، الذي لا يمل من مراقبتي عند قدومي ومغادرتي، عندما كنت ألقاه مصادفة يقف برهة ويحملق من وراء نظارته السميكة في وجهي وكأنه يتفحصني، يفعل هذا في كل مره ألقاه فيها, عندما كنت ألقي عليه السلام كانت كلمات الرد تخرج من بين شفتيه مكرهة بالكاد تصل إلى أذني. حتمًا هو يقول شيئًا لا أسمعه.

لقد مللت الجوار المستفز لمشاعري، لا أدري إن كانوا محقين.

هاجر

في عصر ذلك اليوم فوجئت بدخول صديقي سامي إلى المحل وكان برفقته والدته وزوجة أخيه الذي يكبره وأخته التي تصغره, وكانت هذه هي بداية رؤيتي لهم والتعرف عليهم, بعد أن رحبت بهم ألقوا بأنظارهم على محتويات المحل ولم يمكثوا طويلاً وغادروا, لم أكن أتوقع مروره على محلي بصحبة أسرته.

لم أُعِر أخته هاجر أدنى اهتمام وقت زيارتهم لي في المحل، لم تلفت نظري ولم تترك أي أثر بوجودها بينهم، تبدلت نظرتي إليها بعد أن التقيتهم مصادفةً في تلك الأمسية، كنت وقتها أجلس وحيدًا أحتسي الشاي بأحد المقاهي المنتشرة على ضفتي نهر النيل، كانت برفقة أخيها سامي وزوجة أخيها مروة.

لمحتهم واقفين عند مدخله كانوا يجولون بنظرهم في أرجائه، يبحثون عن مكان خالٍ يضمهم، بعد أن أخذوا أماكنهم ترددت قبل أن أتقدم إليهم، ثلاثتهم كان ترحيبهم بي لافتًا مما دفعني إلى تلبية دعوتهم, أفسحوا لي مكانًا بينهم لمشاركتهم الجلوس، لم أكن أتخيل أن الظروف سوف تجمعني بهم وتضمنا طاولة جلوس واحدة، في البداية أصبت بالحرج، ولفرط خجلي آثرت الصمت. لم أكن قد تعوّدت من قبل الجلوس والتحاور والغوص مع الأخريات في مناقشات وحورات كلامية، أفتقر إلى لغة التخاطب مع النساء، لا

أملك إلا بعض الكلمات التي تعودت على نطقها مع بعض المترددات على متجري والتي تقتصر على بعض المفردات التي تلزمني عادةً في عملية البيع والشراء.

زوجة أخيه كانت لها الريادة في إدارة الحوار ونشر جو من الألفة، كان حديثها لا يخلو من بعض الكلمات المرحة، ثرثرتها المقبولة أدت إلى كسر حاجز الصمت، ولولا وجودها بيننا لأطبق السكون على لقائنا، كانت كمن كممت أفواهنا ولم تتوقف عن الكلام إلا بعد أن تفرق جمعنا، باستغراب شديد منهم كانت استفساراتهم منصبّة حول أسباب اختياري الإقامة في مدينة القاهرة وتفضيلي العيش فيها وحيدًا بعيدًا عن أهلي وأقربائي ومكان نشأتي وإن تصرفي هذا يعد من الحالات النادرة.. أسئلة كثيرة حاصروني بها وعلامات استفهام كبيرة لم تنتهِ لديهم حتى انتهاء تلك الأمسية الجميلة التي أتت من غير ميعاد، قد يكون للقدر يد في رسم خطوطها.

بعد أن سرت نسائم الليل المصحوبة بشيء من البرودة التي لامست وجوهنا وجعلت كل واحد منا يتحسس ويمرر كفه على ذراعه العارية، غادرنا المقهى، في البداية كان خط سيرنا واحدًا، أخذنا وقتًا سائرين، كنا نقف برهة بعضنا قبالة بعض ونتكلم ونعاود السير ثانية، لم أشعر بمرور الوقت، كنت لا أتمنى انقضاءه. بمبادرة من زوجة أخيه وتعقيبًا واستحسانًا منه تواعدنا على تكرار اللقاء في

الأيام القادمة، واصلنا سيرنا إلى أن أخذوا منعطفًا، ودعتهم وأكملت طريقي.

أسندت رأسي على حافة السرير وأعدت شريط وقائع سهرتي الجميلة، استرجعت ما التصق في مخيلتي من ملامحها وتكوينها، أغمضت عيني ووضعت صورتها أمامي، طيلة الوقت الذي أمضيته بصحبتهم كانت هاجر صامتة لا تتكلم، لم تتفوه بكلمة واحدة، ربما يكون الخجل قد اعتراها لوجودي بينهم، أو أن هذه هي طبيعتها، طوال الوقت كانت تجول بنظرها لمن حولها من السمار دون النظر إلينا، كانت تقفز بالتفاتة وتميل بوجهها إلينا، مما يدل على أنها كانت تصغي باهتمام بالغ إلى ما كان يدور بيننا، لا أدري لماذا كنت أرقبها خلسة، لقد نالت كل اهتمامي وحركت لديَّ باعث الفضول، أريد أن أعرف كل شيء عنها، خلال جلوسنا لا أدري لماذا صوبت نظري إلى أصابع يديها, وقتها لم ألحظ ما يكدر خاطري.

بدت لي جميلة، كانت نحيلة بعض الشيء ومتوسطة الطول مع قليل من استطالة الوجه، تميل إلى السمرة الخفيفة التي تتميز بها البشرة المصرية دون غيرهم من البشر, حباها الله بعينين واسعتين ملونتين وبلون شعرها الأسود الطويل، كنت أنظر إليها كما لو كنت أحمل عينين غير التي كانت قد رأتها من قبل، كنت كمن يبحث عن ضالته وعثر عليها وكأنها أشرقت على وحدتي، لا أدري إن كنا سنلتقي ثانية.

قد أبرر اهتمامي الشديد بها لإيحاءات تملكتني وكمنت في مخيلتي وغلفت أفكاري على أثر الكلمات التي صبت في أذني من العم مصطفى في الأيام القليلة الماضية، والتي بدورها كان لها التأثير السحري للركض بي وراء أول واحدة ألتقيها، وكأن هذا الباب كان موصدًا من قبل وفتحه وأذن لي بالخروج منه.

بعد مرور عدة أيام على تلك الأمسية الجميلة كنت وقتها منشغلاً كعادتي، وكان الوقت ظهرًا، فإذا بي ألمحها وزوجة أخيها واقفتين خلف الفاترينة الزجاجية للمحل تتجاذبان حديثًا بينهما, كانتا تمعنان النظر إلى ما تحتويه من مشغولات قد تكون لفتت انتباههما، في اعتقادي أنهما كانتا في حالة تجاذبات حول الإقدام على الدخول أو الانصراف، بعد أن دخلتا وكأنني فوجئت بوجودهما وقفت مرحبًا وقدمت إليهما مقعدين للجلوس وأشرت إلى أيمن بأن يأتي بزجاجتي مشروب.

بعد أن أخذتا مقعديهما قالتا: لقد كنا نتسوق بعض الحاجيات ومن محاسن الصدف وجدنا أننا أصبحنا على بُعد خطوات من متجرك فكان واجبًا علينا الدخول والسلام عليك وإلقاء النظر إلى بعض المشغولات التي لفتت أنظارنا عند زيارتنا الأولى لمتجرك.

- أهلاً وسهلاً.. ليتكما تتسوقان كل يوم حتى أكون سعيدًا باستضافتكما.

- لم أعرف كيف انطلقت من فمي تلك الكلمات التي لم أتعود على قولها لأي واحدة من قبل.

بداية لم تجدا مدخلاً للحديث سوى المديح الذي كالتاه على مقتنيات المحل والسؤال عن أثمان بعضها.

للمرة الأولى توجه هاجر كلامها إليَّ مباشرة بقولها إن كل المقتنيات التي يضمها المحل جميلة، هل أنت من اختار كل هذه المعروضات الرائعة؟ أنت عالي الذوق.

سرني إطراؤها؛ كانت كلماتها أجمل ما سمعت منذ أن وطأت قدماي هذه المدينة، فرحت لأنها أولتني اهتمامها، كلماتها لامست قلبي قبل أن تصل إلى سمعي.. كان ردي لها وأنا بادٍ الفرحة: أشكرك على مديحك، ولكن للحقيقة كل هذا بمعاونة شريكي العم مصطفى.

- نحن نغبطك بامتلاكك نصف هذا المحل الذي يمكننا القول بأنه يحتوي أجمل الأشكال والأصناف الفضية, لم نر مثيلاً لها خلال تجوالنا.

- ربما كانت محقة في تقييمها، ولكن الأرجح أنها كانت مجاملة منها.

قبل أن تغادرا المحل نطقتا معًا: نشكرك على حسن استقبالك لنا.

- لم أفعل شيئًا يستحق الشكر، أنتما من يستحقه على

كرمكما

واستضافتكما لي في مقهى الكورنيش في تلك الأمسية الجميلة.

ألمحت إليهما برغبتي في تكرار ذلك اللقاء الذي جمعنا.. قبل أن أودعهما سرت معهما ورافقتهما حتى الشارع الرئيسي الخلفي لميدان الحسين ووقفت معهما، إلى أن استقلتا إحدى سيارات الأجرة وأدارتا وجهيهما ولوحتا لي من داخل السيارة بإشارة الوداع.

لم أجد سببًا واحدًا مقنعًا لتلك الزيارات المتعاقبة التي قامتا بها لعدد من المرات خلال شهر واحد تحت ذرائع وحجج شتى وغير مقنعة، لتكرارها كانت لديَّ علامات استفهام، هل كانت كلها مصادفة بحتة أم لأجل الالتفاف عليَّ؟ أم كانت بتخطيط من كلتيهما للوصول إلى هدف تسعيان إليه معًا، أو بالاتفاق مع سامي لخلق جسر من التواصل والتآلف الذي سوف يؤدي إلى غرض شريف تسعيان إلى تحقيقه فيما بعد.

لأدع كل هذه التساؤلات لقادم الأيام تجيب عليها. كما اعتدنا كنا نتناول طعام العشاء في أحد المطاعم القريبة، بدا لي على غير عادته صامتًا مهمومًا، استبدل ابتسامته المعتادة ونكاته المسلية إلى عبوس، لم أعرف سبب التبدل المفاجئ الذي طرأ على طبيعته المرحة.

وبكلمات تقطر ألمًا، ذكر لي سامي أنه قد استُغنِيَ عن خدماته صبيحة هذا اليوم مع نفر من العاملين معه وذلك من بعد استبدال

مدير الفندق بآخر، وأعطوه مهلة حتى آخر الشهر. صب كل غضبه على المحسوبية إلى جانب حظه العاثر، وللمرة الثالثة على حد قوله ينتقل من فندق إلى آخر خلال خمسة أعوام، وذكر لي أنه لا يجيد حمل المباخر كغيره ويتقدم مستقبلي المدير الجديد، قلت له هذا دأب كل مسؤول يحل محل آخر.

- ابحث لك عن عمل في مكان آخر، وأنت كما أرى تمتلك الخبرة الكافية.

- يا سيد صالح لا أجيد غير هذا العمل ولا أعرف إلا لغة الأرقام؛ أحمل شهادة دبلوم محاسبة حصلت عليها من أحد المعاهد الأهلية، ليتني التحقت بالجامعة، لم أعلم بأن والدي- رحمه الله- كان على حق عندما كان يدفعني ويصر على التحاقي بإحداها، كم كانت لديه حاسة التنبؤ بما سوف تحمله لي الأيام القادمة.

ودعني وتركني في وقت مبكر على غير عادته على أن نلتقي فيما بعد. عليَّ أن أبحث عن مكان آخر أقضي فيه ما تبقى لديَّ من وقت وحتى تحين ساعة نومي. سرت على مهل أرقب المارة من المتسوقين والمتسوقات والمتسكعين من أمثالي، خليط عجيب من البشر، في هذه اللحظة تمنيت أن تكون لي زوجة كغيري نتجول معًا وندخل هذا المحل ونخرج منه لآخر تسير بقربي وهي متأبطة ذراعي، نرتاد دور السينما ونستمتع بمشاهدة الأفلام، أو نعود إلى

شقتنا نتسامر ونقضي بعض الوقت في البلكونة ننظر إلى المارة ونتجاذب الحديث إلى أن يحين وقت نومنا.

بت أحسدهم وأنا أراهم في كل يوم وفي كل مكان كيفما سرت وأينما ذهبت، خلال سيري صادف مروري من أمام إحدى المكتبات، تجولت بين رفوفها التي اصطفت عليها أعداد لا حصر لها من الكتب المختلفة، أخذت في تقليب بعض مما تحتويه إلى أن وقع نظري على أحد قصص آرسين لوبين.

بعد عودتي إلى الشقة حاولت أن أقضي بعض الوقت باستعادة قراءة بعض من قصص الخيال التي كنت قد أدمنت قراءتها، كنت حتى وقت قريب أستعيرها من بعض الأصدقاء وكنا نتبادل قراءتها فيما بيننا. قرأت جزءًا يسيرًا منه ولم أستطع تكملة الصفحة الأولى وقذفت به جانبًا، هجرت القراءة على غير عادتي التي تعودت عليها منذ الصغر، كنت من أشد المدمنين على القراءة للاطلاع والمعرفة والسباحة في فضاء قصص الحب والخيال التي كنت أعشقها وأعيشها وقت قراءتي لها، مما غذَّى ونمَّا رومانسيتي وجعلني خياليًا أحلم حتى في يقظتي.

كنت قد اعتدت على قراءة كل ما كان يقع بين يديَّ من مواضيع ومقالات، كنت ألتقط كل قصاصة وأقرؤها، صفحات الجرائد التي كان يقتطعها البقال ويبرمها بطريقة مذهلة بحيث تصبح في شكلها كالقمع، ويضع داخلها السكر أو الشاي وغير ذلك، حتى هذه كنت

أفضّها وأحرص على قراءة محتوياتها.

كعادتي مساء كل يوم بعدما أفرغ من ترتيب وتنظيف الشقة، أحمل كوبًا من الشاي أو القهوة وأجلس في البلكونة أرشفه على مهل مسلطًا نظري إلى الشارع المزدحم بالجائلين، قد يمتد بي الوقت إلى أن أستند بذقني على ساعدي فوق سور البلكونة المنخفض وأبقى على هذه الحالة إلى أن يغلبني النعاس، في بعض الليالي أضطر إلى الهروب إلى داخل الشقة عندما أتألم من لسع البعوض وبالذات في الليالي التي يكون فيها الهواء ساكنًا.

تبدلت طبيعة نمط عيشي إلى النقيض، منذ أن نشأت كنت دائم الركون في مناطق الهدوء والجلوس في الظل، أصبحت أميل إلى الأماكن المفتوحة التي يكون فيها الصخب غالبًا، ألقي بالتهمة لهذا التبدل الذي طرأ على عادتي إلى وجودي طيلة النهار وسط الزحام حيث الضوضاء والأصوات العالية التي لا تنقطع من الباعة الجائلين وبعض المتسوقين.

في أغلب الليالي عندما كنت أستلقي طلبًا للنوم كانت تدب في عيني اليقظة ويأتيني عازف الليل ويقبض على أوتار مخيلتي ليأخذني بعيدًا، أسرح لساعات وأعيش في الخيال أتقلب يمنة ويسرة، في بعض الليالي أتردد على البلكونة عدة مرات عندما يصبح الأرق نديمي.

صبيحة هذا اليوم حضر إلى متجري العم مصطفى في وقت متقدم، ولم يرض بدخول المحل كعادته التي عودنا عليها، وبادرني القول: قم معي لكي نتناول طعام الإفطار مع بعض.

أدركت بأن وراء قدومه شيئًا ما، بت أقرأ تحركاته وإيماءاته بوضوح.

- ماذا جرى لك يا صالح؟ لعدة ليالٍ مضت لم تنضم إلينا؛ الكل يسأل عنك، أصبحت واحدًا منا إلا إذا كانت مجموعتنا لم ترق لك وعثرت على من هم في مثل سنك.
- صدقني لا شيء يمنعني من الاستمتاع بأمسياتكم الجميلة وليس هناك من سبب يحول دون انضمامي إليكم، سوى عامل الإرهاق الذي يحل بي من بعد يوم حافل بالعمل أعود بعده إلى شقتي مباشرة، فقط هناك صديق لي يزورني في ليالٍ متفاوتة أقضي معه القليل من الوقت ثم يذهب إلى حاله وأخلد إلى النوم باكرًا.
- لا بأس من وجود صديق أو أكثر في حياة كل إنسان منا، ولكن عليك بالحذر والابتعاد قدر الإمكان عن أبناء السوء، انتق أصدقاءك، ومن الأحسن لك أن تسهر معهم في غير محل إقامتك وسوف أزورك قريبًا.. نحن في انتظارك هذه الليلة لتشاركنا سمرنا.

- أعدك بالحضور وسوف تجدني أول القادمين.

بعد أن عدت إلى المحل وضح لي كل ما كان يرمي إليه وسبب قدومه المبكر، كان يريد الوقوف على سبب غيابي لعدة ليالٍ عن شلة المصطبة ولأجل أن يطمئن على مدى حرصي ومواظبتي في الحضور إلى عملي في الوقت المحدد صباح كل يوم.

أعرف بأنه إلى جانب حرصه على حسن سير العمل ينظر إليَّ نظرة الأب إلى ابنه وهو من حُرم خلفة الأبناء وقد رزقه الله بثلاث بنات، اثنتان منهن تزوجتا وتعيشان بعيدًا عن مدينة القاهرة والصغرى تدرس بالمرحلة النهائية في جامعة القاهرة وتشاركه هو وزوجته العيش.

كنت أول الواصلين، وبعد دقائق انضم إلينا الحاج عبد الستار، خلال جلوسنا لمحنا السيدين فتحي وعبد الغفار قادمين يسيران خطوتين ويقفا أحدهما قبالة الآخر ويدور حوار فيما بينهما، تكرر هذا المشهد عدة مرات، تابعنا سيرهما حتى أخذا مكانهما بيننا.

السيد عبد الغفار استهل حديثه وبضيق ظاهر: عديلي طلق زوجته للمرة الثانية وتركها عند أختها في داري، وذهب إلى حاله، ليس لها أحد غيرنا في هذه الدنيا تبث شكواها إليه وتأوى إلى حضنه.
انشغالي بمشكلاتهم سبب غيابي عنكم لعدة ليالٍ خلت. قالها السيد عبد الغفار بتأفف وتألم واضحين، على الرغم مما عهدناه منه من الاتزان

وندرة الشكوى.

بكلمات مواسية من العم مصطفى: سوف يكافئك الله على رعايتك لها ويرزقك من رزقها، رعايتك للأرامل طريقك إلى الجنة يا سيد عبد الغفار.

كعادة الحاج عبد الستار في بعثرة الأنين والخروج بنا إلى جو المرح، التفت إليَّ قائلاً لا تخاف مما سمعته، المشكلات نحن من نختلقها ونتفنن في ابتكارها وانت يا سيد صالح لن تفلت من بين أيدينا، أعني سوف نزوجك سواء رضيت أم أبيت.

حتى في هذه المواقف الجادة كعادته يشيع جوًا من المرح والدعابة، أعقبه السيد فتحي موجهًا كلامه إلى العم مصطفى: إن وافقتني سوف أصطحب صالح يومًا إلى متجري بالموسكي وهناك سوف يري بعينه أجمل بنات البلد من المتسوقات وهن يتمخطرن بغنج ودلال داخل متجري دون انقطاع وعلى مدار اليوم وأنت يا صالح فقط عليك أن تشير إلى أي واحدة تعجبك ونحن بدورنا نبحث عن أصلها وفصلها ونزوجك منها.

قاطعهم العم مصطفى: لماذا تذهبون بعيدًا؟ وماذا عن بنات حينا؟ نحن على معرفة ودراية تامة بآبائهن وأجدادهن وأخلاقهن، وعندي أم ساميه للمرة الأولى في حياتها سوف أكلفها بأن تعمل لك خاطبة يا سيد صالح ولا تزعل.

وأعقبها بضحكة خفيفة كعادته.

الحاج عبد الستار لم يدع السجال يفوته كعادته موجهًا كلامه إليَّ: ليتنى مكانك يا صالح.

سأله أحدهم: وماذا عن التي تقف خلف الباب متربصة قدومك في كل ليلة؟

رفع رأسه إلى السماء باسطًا يديه: يااااا رب تكون نامت ويكون كلامكم خفيف عليها.

هم دائمو التندر بما تفعله به زوجته، وغير خافي على كل فرد من أفراد الشلة ما يناله منها عندما يعود إليها في بعض الليالي متأخرًا.

كم من ليلة صدته زوجته وجعلته يعود وينام في فندقه! هي لا يهمها شيئًا كان صوتها يرتفع ويسمعه من بالجوار، هم يعرفون أنها سليطة اللسان وسبق لها أن فضحته ووبخته بقولها له: تصلني أخبارك وأعرف ما تقوم بفعله في الفندق، يا راجل يا خايب، يا أبو عيون زايغة.

عدت إلى كلمات سمعتها من قبل بأن الحاج عبد الستار يشرب ويعبث على فترات، هذا ما ذكره لي مصدر معلوماتي عن بعض ما كان يجري في منطقة الحسين ابن الحارة جاري السيد رزق، ذكر لي بأن زوجته على الرغم من جفاف لفظها وقساوة تعاملاتها معه كانت تتمسك به بتغيير ملامحها بين فترة وأخرى، وحتى لا تبدو

قديمة في نظره تلجأ إلى إحدى الدايات التي تزورها بين وقت وآخر لأجل أن تمدها بوصفاتها التي كانت تتباهى بها بين نساء الحي وتبيعها لهم ويصدقنها.

تلك الداية دأبها في كل يوم التجول والدوران ودخول أغلب بيوت الحارة وهي حاملة تحت إبطها صرة، الله وحده هو العالم بما في داخلها، قيل أن بها بعض أصناف البخور وبعض أنواع البذور المطحونة التي كانت توصي بعض النسوة بمغافلة أزواجهن ووضع شيء منه في مشربه أو مأكله. هو كان يعلم بما تفعله زوجته وأخبارها تصله أولاً بأول، ولكنه كان دائم القول وهو يمسح على شاربه الكث: لا بأس ربما هي تضع لي أشياء أستقوى بها على نداءات زوجتي الملحة التي لا تنقطع بين وقت وآخر.

في البدايات قبل أن يعرفها جيدًا، ذكر لي رزق بأنه التقى بها وجهًا لوجه وقت دخوله الدار وصادف خروجها من عند زوجته، حينها أمسك بيدها قائلاً لها: إن رأيتك ثانية فسوف أكسر رجلك. عندها قالت له: لولا جلوسي مع زوجتك بين وقت وآخر لكنت على رأس الخائبين الذين ينامون الليل كله على وجوههم كالأموات من دون حراك.

ويقال بأنها من أشهر الدايات وأكثرهم خبرة وحنكة، وكانت تعمل إلى جانب هذا خاطبة وتكمل المسيرة بتزيين العروس في ليلة زفافها ولمن أراد تقرأ له الفنجان، مما يعني أنها قابضة على زمارة حلق

أغلب نساء حى الحسين، ومع كل هذا كانت موضع احترام الجميع وبالأخص الذكور منهم لأفضالها الكثيرة على بعضهم لاعتقادهم بأنها تعيد إليهم شيئًا من حيويتهم التي أخذت في الأفول.

كنت قد رأيتها من قبل عندما أشار إليها السيد رزق عند مرورها من أمام المحل، كان منظرها مسليًا، على الرغم من بدانتها كانت تبدو من خلال سيرها وكأنها في مقتبل العمر، لم ألحظ كثيرًا من تكوينها سوى الكحلة التي سحبتها حتى أذنيها، خلال سيرها كانت تدير رأسها يمنه ويسره وكأنها تريد أن ترى كل شيء في طريقها, كانت تتكلم مع هذا وتضحك مع ذاك، الكل يأنس لطلتها بين وقت وآخر ويتبادل معها القفشات, كل من يعرفها يتحاشى المساس بها كما هي تعاملاتها معهم.

ويل لمن يستخف بها ويقلل من شأنها, قيل كان يومًا مظلمًا لصبى القهوجى بكر الذي تلاعب بألفاظه معها, أهل السوق لم ينسوا ذلك اليوم الذي بطحته أرضًا وأشبعته لطمًا بالشبشب, قيل إنه من بعد تلك الحادثة لم يجدوا له أثرًا، ومن باب التندر قالوا بأنه ترك القاهرة وهاجر إلى أرض الله الواسعة.

السيد رزق ختم بأنها تنفرد بميزة لا تجاريها فيها كل نساء الأرض، ذكر لي بأن لديها المقدرة العجيبة أن تتكلم وتمضغ العلكة التي لا تفارق فمها في آن واحد.

من خلال انفرادهم بي وحصارهم وضح لي أن العم مصطفى قبل أن أنضم إليهم في هذه الأمسية قد اتفق معهم على أن ينفضوا عني غبار العزوف عن الاقتران بزوجة تشاركني العيش من بعد أن استقرت أحوالي المعيشية، كانوا كلما خرجوا من هذا الطرح يعودون إليه ثانية، كمن يكونوا قد نصبوا لي شركًا وتكاتفوا للزج بي في داخله.

قبل أن أغادر لم ينسَ العم مصطفى أن يسر في أذني بأن آخذ كل ما تم تداوله في هذه الليلة على محمل الجد ولم يكن من قبيل المزاح.

معهم كل الحق؛ لماذا أحجم عن الزواج؟! لقد آن الأوان كي أبحث عن الاستقرار وأسعى جادًا في اختيار زوجة ترعاني كغيري من البشر.

****

بعد تلك الزيارات التي قاموا بها تعددت لقاءاتي المسائية مع هاجر وزوجة أخيها بعد عودتي من عملي، كنا ثلاثتنا نقضي وقتًا غير قليل في أحد المقاهي المنتشرة على ضفتي نهر النيل.

أظن أنهما كانتا تبتكران المبررات للقائي. بعد عدة لقاءات أصبحت هاجر تلتقي بي منفردة وتمضي كل وقتها معي، حلاوة اللقاء جعلتني لا أسألها لماذا كانت تأتي معها وتتركنا وحدنا وتمضي إلى وجهة أجهلها وكأنها تأتي معها فقط لتسلمها لي وتعود من حيث

أتت.

لم أعر هذا السلوك أدنى اهتمام ولم أجهد نفسي في فك طلاسم هذا اللغز، فقط كل ما كان يهمني هو أن أقضي بصحبتها وقتًا ممتعًا أفتقر إليه, كانت المقاهي المطلة على نهر النيل هي أماكن جلوسنا، في بعض الأمسيات كنا نفضل الوقوف كغيرنا في بقعة تطل على النهر، ولم يكن يفسد خلوتنا إلا أصوات بعض الباعة الجائلين الذين كانوا يمرون بالقرب منا دون انقطاع.

فى تلك الأمسية ونحن مستندان بمرفقينا على سور نهر النيل ننظر بعيدًا ونتجاذب الأحاديث، التفتت إليَّ وقالت: ألم تُصَب بالملل يا صالح من تكرار لقائنا في هذه الأماكن؟ يا عزيزى لماذا لا نستبدله بمكان آخر أكثر هدوئًا؟

قلت لها: وهل لديكِ البديل؟ هزت رأسها بأينعم وأعقبت: لا تصب بالدهشة إن قلت أنت من يملك البديل, ألمحت لي برغبتها في أن نقضى وقتنا في شقتى بدلاً من قضائه في المقهى الذي اعتدنا الجلوس فيه والسير بمحاذاة النهر جيئة وذهابًا كغيرنا, أكملنا وقوفنا وسيرنا إلى أن حانت ساعة رجوعنا, ودعتنى وذهبت لحالها بعد أن قالت لي: لقاؤنا في المرة القادمة في شقتك. وواصلت سيرها من دون أن تحصل على موافقتى.

خلال عودتى استرجعت كلماتها, وأقنعت نفسى بأنه لا بد من

استبداله بمكان آخر أكثر دفئًا خصوصًا مع دخول فصل الشتاء الذي بدت بوادره تلوح بهواء بارد أخذ في التسلل إلى داخلنا وبأن الأيام القادمة سوف يكون البرد خلالها أكثر قساوة, ولكن ماذا إن أخذت خلوتنا منحى منحدرًا, ركبتنى الوساوس وفى نفس الوقت أقنعت نفسى المتأرجحة بين السير في الخطأ والعودة إلى الصواب بأن الأمر سوف يكون بيدى.

بعد أن فتحت لها باب شقتى, للمرة الأولى قبلتنى من خدى وكأننا قد تعودنا على فعل هذا من قبل وطوحت بحقيبة يدها على المقعد المعد للجلوس عند مدخل الشقة, وتركتنى في مكانى مذهولاً وأدارت لي ظهرها.. لثوانٍ ظللت واقفًا في مكانى, كنت أسمع صوتها وهى تنتقل من غرفة الجلوس إلى غرفة النوم إلى المطبخ حتى انتهت بالجلوس في البلكونة, ألقت بنظرها إلى الشارع والتفتت إليَّ وقالت: شقتك واسعة وتحتل موقعًا جميلاً.

تعددت زياراتها, خلال الأسبوع الواحد كنا نلتقى لأكثر من مرة, كنت أرقب قدومها بشغف, كنت لا أرافقها عند دخولها العمارة, دخولها وحدها لم يكن يثير الشكوك لوجود عدد من العيادات الطبية في الطابق الأول, قبل قدومها أخرج للبلكونة وأنظر إلى الشارع مترقبًا وقت حضورها, أفتح الباب وأجعله مواربًا كى لا تقف ولو لثوانٍ عنده.

بمرور الأيام البلكونة طردتنا إلى الداخل, لم يعد جلوسنا فيها

ممكنًا للجو البارد والممطر أحيانًا, ضمتنا غرفة الجلوس، وشدة البرودة زادت من التصاقنا بحجة التدثر بالغطاء الشتوى الوحيد الذي أملكه, كنا نقضى وقتنا في مشاهدة البرامج التلفزيونية أو قزقزة اللب الذي تحضره معها, كانت أنفاس كل منا تلفح وجه الآخر.

بمرور الأيام, الحميمية مالت إلى منحى متدنٍ, كنا ناقصى الإدراك بعواقب ما قد ننجرف إليه, حسب ما وضح وتكشف لي بأن لديها الرغبة في المضى إلى نهاية الطريق, كنت أتوجس خيفة من قدوم تلك الساعة, وكغيرى من البشر كنت في داخلي راغبًا ورافضًا, كنت مثل ربان يقود سفينة بدفتين لا يعرف إلى أي الاتجاهين سوف يبحر.

فى تلك الليلة القارسة البرودة للمرة الأولى لم نستطع أن نوصد باب الهوى, فجمعنا سرير نوم غرفتى, كنا نرتعد بردًا تحت غطاء واحد, بعد مضى دقائق على التصاقنا لا أدرى أي شيء انتابنى, في لحظات فكرت في أمر ما ونزلت من سماء نشوتى, اعتدلت وجلست وتركتها وأدرت لها ظهرى وخطوت خارجًا, قبل أن أغادر الغرفة استدرت إليها, النور الخافت المتسلل من الممر المؤدى إلى غرفة النوم هدانى إلى رؤية تعابير وجهها, رأيتها وقد جلست من رقدتها, كانت تنظر إليَّ من فوق الغطاء السميك الذي رفعته حتى عنقها لتغطى الجزء الأعلى من جسدها العارى، كانت ترمقنى بنظرة تميل إلى الاستغراب وخيل إليَّ وكأنها استشعرت ندمًا.

لم أجد ما أعمله, لم أدر لماذا اتجهت مباشرة إلى المطبخ وشرعت في إعداد كوبين من الشاى, قبل أن أحمل الصنية وأنتظرها في صالون الجلوس, سمعت صوت وقع أقدامها وأعقبها صوت الباب الخارجى يغلق, إذن هي ارتدت ملابسها وذهبت على عجل, هي بتصرفها هذا أغلقت تجاذبات قد ننساق إليها إن لم تذهب.

بعد خروجها غمرنى ارتياح نفسى, أهو للخلاص من اقتراف خطيئة؟ أم التمسك بنصيحة أمي التي طلبت من الله الستر لي في غربتى؟

بعد تلك الليلة تأكد لي بأنها ليست الزوجة ولا حتى الونيسة التي أبحث عنها، بعد ثبوت الدليل القاطع وضح لي بأن سلوكها لا يوحي بالطمأنينة.

خلال الأيام التي أعقبت لقاءنا هذا وقعت في تردد شديد, بين أن أخفف اللقاء وأن أبتره, وكنت إلى الرأى الآخر أشد ميلاً, وفى هذه الحالة عليَّ النأي بعيدًا قبل الوقوع في مستنقع الخطيئة.

بعد انقطاع دام لعدة أيام كان لقاؤنا في أحد المطاعم، حاصرتها بأسئلتي، في البداية جاهدت في التهرب والتطويح بي بعيدًا، أخيرًا نثرت بين يدي بكل صدق ما كان خافيًا عليَّ ومزقت قناعها.

قالت بأن زوجة أخيها مروة تأخذها معها لتتوارى خلفها بخروجهما معًا وتذهب وحدها إلى أحد الأماكن، وفي وقت بعينه في

المكان المحدد تلتقيان وتعودان معًا لأجل أن لا تقع تحت طائلة الشكوك بخروجها وعودتها وحدها، ولتتدثر معها تحت عباءة واحدة. وعندما التقت بي كانت كمن وجدت ضالتها في قضاء تلك الساعات حتى عودتها.

قلت لها: لم لا تدعينها تخرج وحدها؟ لماذا ترضين بأن تشاركيها وزرها؟ ألم يؤنبك ضميرك نحو أخيك؟ أن ما تقومان به يخدش كرامته.

كانت إجابتها بعد أن سالت الدموع من عينيها بأنها لا تستطيع فعل شيء- وعلى حد قولها- هناك أسباب أوصدت أمامها نافذة البوح بكل ما يجري، كانت تخشى أن تطالها العصا هي الأخرى لأنها في مرات سابقة شاركتها بعض لقاءاتها السرية في الشقق المفروشة، ولكنها كانت تنأى بنفسها بعيدًا عنهم، وأقسمت لي بأنها لم تصب بدنس.

قلت لها: أنتِ جميلة وفي مقتبل العمر؛ لا تكوني كالشمعة التي تضيء لغيرها وتحرق نفسها وتتلاشى في النهاية إلى لا شيء.

عشت الحلم، كانت الأيام الجميلة القادمة تتراقص أمامي، كنت واهمًا, عرفت الآن أنها كانت تتسلى وتختبئ ورائي وتقضي وقتها معي ساعة جنوح زوجة أخيها, وفى آخر لقاء لنا أفصحت لي بأنها كانت متزوجة من قبل, ولم تزد على هذا.

أحلامي بترت ولم تكتمل، أنا لا أريدها أن تفقدني جزءًا من إنسانيتي, وعليَّ أن أطوى صفحتها للأبد...

عدت إلى وحدتي أسندت رأسي إلى مقعدي المعتاد في البلكونة، دمعت عيناي، بكيت بحرقة وألم مكبوتين، لم أكن هكذا من قبل، أهي الغربة؟! أهي الوحدة؟! أم الفشل؟! في تلك الليلة لم يتيسر لي النوم كثرة الحزن علمتني البكاء.

في الأيام الأولى بعد هجرها شعرت بأنني فقدت شيئًا كان يجلب لي البهجة وانتابني شيء من الضيق والكآبة، كانت أولى انكساراتي العاطفية في هذه المدينة, كانت أولى الشموع النسائية التي تنطفئ في حياتي، لقد ظننتها ابتسامة صادرة من ثغر الحياة.

على الرغم من كل ماجرى أعرف بأن الحب تجربة قابلة للتكرار, وبأن الحلم لم ينم.

****

تتسرب الأيام، ثلاثة أعوام أمضيتها في هذه المدينة، انغماسي في العمل التهم الجزء الأكبر من وقتي وصقل تجاربي، مرت بي أحداث صغيرة لا أريد التوقف عندها كأي إنسان تعصف به الحياة بحلوها ومرها.

كان من عادته التي درج عليها أن يغادر متجره بعد صلاة العشاء مباشرة، لم أكن أتوقع منه القدوم في مثل هذا الوقت، كانت الساعة

تشير إلى الثامنة ليلاً، وقبل أن أطفئ أنوار المحل وأغادره، انتصب أمامي وأشار إليَّ بمرافقته وأكمل سيره من دون أن يلتفت وراءه، أدركته وسرت بمحاذاته، لقد تعودت على رؤيته هكذا حينما تكون في جعبته أمور، أحس بقربي منه ودون أن ينظر إليَّ:

أريدك أن ترافقني إلى داري لأطلعك على محصلة أرباحنا خلال عامين بناء على الجرد الذي قمنا به قبل عدة أيام ولنتناول العشاء معًا، وفي نفس الوقت تسلم على أم سامية وتتعرف عليها، وهي كما تعرف تعتبر في مقام والدتك ودائمة السؤال عنك.

- ثقتنا يا عم مصطفى ليست بحاجة إلى إطلاعي على حسابات أراجعها معك.

تسائل: أليس من حقك أن تعرف كم هي؟ لقد جنينا مبلغًا قدره...

- بهذه المناسبة أنا أدعوك بمصاحبتي لزيارة شقتي لأنال مباركتك لها ووقوفك عليها، وأم سامية في قادم الأيام سوف أتشرف بزيارتها والسلام عليها.

بدلنا وجهتنا واستوقفنا سيارة أجرة ويممنا صوب شقتي.

بعد أن فرغنا من تناول العشاء ونحن نشرب الشاي في البلكونة:

إلى متى يا صالح ستعيش وحيدًا في هذه الشقة الواسعة الجميلة؟ ما رأيك في أن نقوم بعد عدة أيام بزيارة السيد فتحي في داره وترى ابنته لعلها تروق لك وتروق لها؟ وبقية التفاصيل اتركها لي، وأم

سامية فيما بعد بدورها ستتولى الأمور النسائية بمعرفتها. نحن يا صالح على دراية كاملة بأخلاقها، محافظة هادئة حصلت منذ ثلاثة أعوام على شهادتها الجامعية، ست بيت، نشهد لها بهذا كونها تتردد علينا كثيرًا لالتصاقها بابنتي الصغرى سامية، ولكثرة زياراتنا ولقائنا بهم عرفنا عنها الكثير، وعلى حد قول زوجتي: لو كان لنا ابن لكنا زوجناه منها قبل أن يخطفها أحد منا.

- ولكن ماذا لو أنها لم تنل قبولي؟ عندها ماذا سيكون موقفك منه وهو كما عرفت يعتبر صديق عمرك وأنا لا أود أن تصاب صداقتك معه بأدنى شرخ بسببي؟

- لا عليك؛ هو ليس كغيره، إنه إنسان منفتح واسع الأفق كما أنني سبق أن ألمحت إليه بهذا ولم يبد اعتراضًا وأثنى عليك، هو يتقبل كل التبعات بصدر رحب، أنا أعرفه تمام المعرفة.. عشرة عمر يا صالح.

قبل أن يغادر: اجلس مع نفسك وفكر في الأمر وستجد أنني محقًا في كل ما قلته لك. نحن نتمنى لك السعادة ونسعى إلى تتويج مسيرة حياتك بواحدة ترعاك وتحتضنك.. أنتظر إجابتك خلال أيام وفتحي هو الآخر في انتظار ردي عليه، وأنا بدوري قد فرشت لك عنده أرضية وردية تستحقها.

أعلم تمامًا أن العم مصطفى يملك القدرة الفائقة على الإقناع.

استوقفني عند باب العمارة وقال لي: لا أخفي عليك بأنه سبق وأن تقدم إليها واحد من الناس واستمرت خطبتهما عامًا واحدًا ولم يوفقا في تكملة ارتباطهما، وكان قرار إنهاء علاقتهما وفسخ خطبتها بناء على رغبتها.

وقفت معه إلى أن استقل إحدى سيارات الأجرة وودعته، لقد مهد لي الطريق.. جلست في البلكونة التي أصبحت مستقري ومكان أناتي، سألت نفسي إلى متى أظل وحيدًا، كل يوم يمر كسابقه لا جديد، أعرف يقينًا أن المجتمع لن يتقبلني وأنا على هذه الحالة. وعند ارتباطي بواحدة سوف تكتمل منظومة حياتي وتتبدل صورتي داخل المجتمع للأحسن.

تذكرت والدتي، أين هي من كل هذا النسيج الذي يحيكه لي الغير؟ أين هي من كل ما يجري الآن في غيابها؟ لقد حل الآخرون محلها، أليس كل ما يحدث هو حق من حقوق أمومتها المسلوبة؟ ولكن أين هي وأين أنا؟

عمق حزني هو علمي بأنها منذ فترة تعاني من علل انتابتها فجأة وأقعدتها الفراش مما جعلها لا تقوى على الحراك، هذا ما ألمح إليه أخي في رسالته الأخيرة. عدت بذاكرتي قليلاً إلى الوراء، بعد فقدها رفيق عمرها لاحظ كل من في الدار انكسارها وذبول حيويتها واختفاء البسمة التي كانت تلازمها حتى في أحلك الأزمات، صاحبتها بعض الأوجاع التي لم تكن تعهدها من قبل، الكل لاحظ

أنها من بعد موته ظهرت على ملامحها آثار حزن مكبوت، تغتصب البسمة لكي توهمنا بأنها في حال أحسن مما هي فيه حتى لا نشاركها همها.

حبست دمعتي التي أخذت موقعًا قريبًا من مكان خروجها منذ أن وطأت قدماي هذه المدينة كي تتدفق عند أقل طرفة أسى.

عدة أيام مرت بعد تلك الزيارة التي قام بها العم مصطفى.

عليَّ الوفاء بوعدي، عليَّ أن أرافقه إلى دار السيد فتحي للقاء ابنته ورؤيتها، لا شك في أنها سوف تكون إحدى أهم محطات حياتي، كنت راغبًا ومترددًا، بين ليلة وأخرى كنت أميل إليهم وأشاركهم سمرهم المعتاد، بمرور الأيام اقتربت منهم واحتواني عطفهم وحبهم وأنا بدوري بادلتهم التقدير والاحترام.

انسلخت من لقاء هاجر بعد أن تلكأت بشتى الأعذار، وهي بدورها نبهها حسها وأشار إليها بأن العلاقة وصلت إلى منتهاها، لم أعد التقيها، وانقطعت صلتي بها تمامًا.

بينما علاقتي بسامي لا زالت كحالها، يزورني وألتقيه متى ما سمحت له الظروف بذلك.

بعد ذهاب رفاق السمر وقبل مغادرتي استمهلني العم مصطفى وتساءل بملامة حانية: انقضت عدة أيام يا صالح ولم تفاتحني بنية زيارتك لدار السيد فتحي، هل نسيت؟ أم أنك عدلت عنها؟ لقد جرى

الحديث بيني وبينه ووعدته بعزمنا على زيارته قريبًا لا أريد أن أصغر أمامه بعد أن لوحت لي برغبتك مصاهرته.

- لك الحق في كل ما قلته يا عم مصطفى وأرجو منك أن تتقبل عذري لأنني في حقيقة الأمر تلقيت منذ عدة أيام رسالة من أخي يخبرني فيها أن والدتي قعيدة الفراش، ومنذ تلك اللحظة وأنا منشغل البال عليها ولم أعد أفكر في شيء آخر، وهذا هو سبب تأخري عن الوفاء بوعدي؛ أعطني بعض الوقت لأطرد القلق ويصفو ذهني لتقبل اللحظات السعيدة، لا أزال عند وعدي يا عم مصطفى، ولتكون زيارتنا لهم خلال أحد أيام الأسبوع القادم، وهل تتقبل إقتراحى بأن كان لقاؤنا في الهواء الطلق وفي الفضاء الفسيح، مثلاً في إحدى الحدائق الواقعة خارج حدود القاهرة أو في أحد المطاعم المنتشرة على ضفتي نهر النيل التي من خلالها يتم التعارف فيما بيننا بدلاً من الجلوس في الغرف المغلقة التي تصاحبها عادة الطقوس العائلية وتكون الأعين مسلطة على شخصي وأغوص في الخجل وتحتبس الكلمات داخل فمي وأغادر من دون الاستفادة من لقائنا.

- لقد أصبت الرأي وأحسنت الاختيار، دعني أنسق معه وأنا على يقين بأنه سوف يتفق معنا وهو كما أعرف إنسان عصري أبعد ما يكون عن التعقيدات والطقوس الأسرية

والتقاليد القديمة.

رميت بأحمالي إلى كاهل العم مصطفى، لم يكن يخطر على بالي بأنني في يوم من الأيام التقى بمن يحتضنني ويحفني برعايته.

بناء على دعوته السابقة وحتى تتوسع مساحة معرفتي بمن سوف أجتمع بهم، صحبته إلى داره للتعرف على أسرته المكونة من زوجته السيدة هنيه وابنته سامية.

الدار على سعتها لا تضم بين جنباتها إلا ثلاثتهم إضافة إلى خادمة تعاونهم في إدارة شؤونه.

كنت قد تلكأت لعدة مرات وأرجأت زيارتي لهم خوفًا من تلعثمي وارتباكي اللذين يلازماني عادة عند الالتقاء بمن لم يكن لي سابقة معرفة بهم.

حال دخولي استقبلتني زوجته السيدة هنية بترحاب لافت، هي بهذا أزاحت عني غطاء الخجل. ولاحظت أن ابنته سامية كانت تقف خلف أمها وكأنها تحتمي بها.

بداية لم تشاركنا الجلوس وانتحت جانبًا قصيًا وبعدها بدقائق قليلة انضمت إلينا وشاركتنا حديثنا.

بدت لي مفرطة في البدانة وبعيدة بعض الشيء عن مقاييس الجمال، ولكنها تمتلك حضورًا قويًا وخفة روح لافتة، بادلتني الحديث وكأنها قد التقت بي من قبل، كانت السعادة بادية عليها.

لم يمطروني بأسئلتهم واستفساراتهم التي اعتدت على سماعها ممن كنت ألتقيهم للمرة الأولى، لمست من خلال جلوسي بينهم أنهم يعرفون عني الكثير، مما يدل على أن العم مصطفى قد أفاض وزودهم بقدر وافٍ من المعلومات عني.

ودعتهم وشكرتهم للحفاوة البالغة التي غمروني بها.

استدعاني العم مصطفى وذكر لي أن السيد فتحي استحسن اقتراحي، وعليه فقد تم الاتفاق بيني وبينه على قضاء يوم كامل مع أفراد أسرتيهما في الهواء الطلق بضاحية القناطر الخيرية التي تقع على حافة مدينة القاهرة.

- هناك سوف نقضي ساعات قد تكون كافية بعض الشيء تمكنك من الاقتراب منها والانفراد بها وسوف نجهز غداءنا وهناك نتناوله مجتمعين كأسرة واحدة.

دبت في داخلي روح الشهامة المتعجلة وقلت له: أليس من الواجب أن أكون أنا الداعي ومن يعد ويتحمل كل ما يترتب على هذه المناسبة من بذل وعطاء وهي التي تخصني وأنا المعني بها في المقام الأول.

بنبرة تميل إلى الدعابة: لا تتعجل الإنفاق، هي من تتكفل بكل شيء وسوف تطهو وتعد طعام الغداء مع لبنى لكي يلتصق بفمك مذاق وحلاوة طبخ ابنتها، ألم تسمع بأن من تمتلك معدة زوجها تدخل

قلبه دون استئذان وكأنه واقع تحت تأثير مخدر ويصبح طوع إرادتها وإدارتها؟! اسألني أنا.

صحوت باكرًا على غير عادتي بعد قضاء ليلة نمت فيها نومًا متقطعًا ازدحمت بالأحلام والكوابيس المتتالية التي جعلتني أصحو لعدد من المرات.

في صبيحة ذلك اليوم كنت أقف في باحة مسجد الحسين قبل ساعة من الموعد الذي حدده لي العم مصطفى الذي أتى مصطحبًا زوجته السيدة هنية وابنته سامية لأرافقهم إلى حيث نذهب ونلتقي بهم.

كانوا قد سبقونا وهيؤوا لنا مكان قضاء يومنا تحت دوحة وارفة ظليلة فرشت بعدة بسط إلى جانب عدد من المقاعد الخشبية.

عندما اقتربنا منهم سمعتهم يلقوننى بتحية الترحيب قبل أن ألقى السلام عليهم, بعد أن أخذت مكانى بينهم انتابني شيء من التوتر واعتراني قليل من الارتباك وتتابعت ضربات قلبى, لا أعرف ما ينبغي عليَّ أن أفعله وماذا أقول وكيف أتصرف، حالة قد تحدث مرة واحدة في العمر, كمن يبحث عن ضالته تقلبت عيناى بينهم لالتقاطها ووقع نظري عليها وخفق قلبي، رأيتها متوهجة بينهم، السيد فتحي ووالدتها السيدة نادية، إلى جانب خادمتين اصطحبوهما لخدمتنا جميعًا.

كما هي العادة عندما تلتقي الأسر يدور فيما بينهم حديث أسرى

ومن بعدها يغوصون في الجديد من الأحداث العامة التي تهمهم وتحدث عادة في محيطهم.

هم بدؤوا في حواراتهم وظللت أنا على صمتي أرفع بصري إليهم تارة وتارة أخرى أخفضه، أرقب فنجان الشاي الذي بين يدي أو أرفع رأسي وأجول ببصري على المكان الواسع المفروش بالنجيلة الخضراء وعلى بعض الصبية الذين كانوا يقفزون ويمرحون بجوار أسرهم المصاحبين لهم ويصدرون الأصوات التي تتردد بين الأشجار العالية المتناثرة.

كانوا بين لحظة وأخرى يتوجهون بالحديث إليَّ لإزاحة غطاء الخجل عني مما جعلني أسير إحساس قوي برغبتهم في جذبي إليهم لانتشالي مما أنا فيه من الغربة التي بدت ظاهرة على ملامحي.

خلال انشغالنا بالحديث انسلتا من بيننا وأخذتا جانبًا وابتعدتا أمتارًا قليلة عنا كانتا تتجاذبان حديثًا لا نسمعه يدور فيما بينهما كعادة الفتيات عندما يلتقين في مكان واحد وينفردن ويتحادثن في خصوصياتهن التي لا يردن أحدًا أن يطلع عليها.

دعتني سامية بصوت مسموع للكل بأن انضم إليها ولبنى وأشاركهما الجلوس، وقتها مال إليَّ العم مصطفى الجالس بقربي وهو خافض رأسه وهمس لي بأن أنضم إليهما، وقفت بتثاقل مفتعل كالمتردد.

قبل أن ألبي دعوتها تلفت إلى الموجودين أرقب ردة فعلهم، لمحت السيدة هنية تنظر إليَّ وهي ترسم على وجهها ابتسامة خفيفة وكأنها تقول لي بأننا موافقون في أن تلحق بهم.

قبل أن أنظم إليهم كانت تتكلمان بصوت أقرب إلى الهمس, تتابعت دقات قلبى إذ توهمت أنهن يخضن في شأنى, أشارت إليَّ سامية بالجلوس مرحبة بقدومي، لثوانٍ التصقت الكلمات في حلقي ولم أدر كيف أبدأ، هما استهلتا كلامهما عن جمال المكان الموجودين فيه وعن المراكب الشراعية التي خصصت للنزهات النيلية، أعرف بأنه كان استهلالاً لمشاركتهما الحوار ولخلق جو من الألفة فيما بيني وبينهم، في هذه الدقائق التقت أعيننا في نظرات خاطفة للتمعن.

بعد برهة تركتنا سامية وحدنا وانسلت من بيننا كمن عهد إليها بأن تؤدي دورها من خلال السيناريو الذي أعد من قبلهم لتطريز الملحمة الجميلة التي نسجوها لأجل أن تتاح لي ولها فسحة الحديث والتعرف بمنأى عنهم وكأنها أحد رسل العواطف.

قبل أن نبدأ حديثنا كنت أختلس النظر إلى عينيها فترتجف أهدابها الطوال, ابتعدنا عنهم وبعد أن هدأت نفوسنا سرنا وتحدثنا طويلاً، تكلمت معي وكأنها على معرفة بي من قبل، كنت أكثر خجلاً منها، كانت تغتصب الكلمات من فمي بأسلوب يميل إلى السجع، أعرف أنها تريد أن تعرف عني ما يهمها قدر الإمكان وأن تخرج من خلال هذا اللقاء القصير بالشيء الكثير.

لم يقطع حالة انفرادنا إلا نداء سامية الذي أتانا من البعد بأن وقت الغداء قد حان وعلينا العودة والانضمام إليهم. تناولنا غداءنا متحلقين حول طاولة صُفَّ عليها ما لذ وطاب من طعام لم أذق مثله منذ أن حُرمت طبخ أمي, كان هناك لحم وفطائر وأشياء أخرى.

قبل حلول الظلام أخذوا في لملمة الأشياء، عند مغادرتهم مدت يدها وصافحتني، أهي عادة أم جذب؟ كدت أقبل يدي من بعدها، عند ملامسة يدها بيدي انتقل إليها كل ما يملكه بدني من تجاذبات وأحاسيس.

عدنا بعد قضاء يوم اختزلت ساعاته ومضت على عجل، لم أكن أريد انقضاءه ولم يكن يومًا عاديًا، عشت ساعات وكأنني في حلم جميل، نبرات صوتها من خلال حديثها الذي يميل إلى الهمس نبه قلبي وأيقظه من سباته.

هل أنعم في يوم من الأيام برحابها؟ وكيف أن هذا كله سوف يكون لي وحدى؟ وكيف يكون الأمر مع الدنو وعند الشروع في ضمها؟

كان بداية اللقاء صعبًا ونهايته ممتعة، فيما بعد عليَّ أن أستعيد بتأنٍ كل مجريات وتفاصيل الساعات التي مرت بصحبتها وأستعيد ملامحها.

من شدة غبطتي قبلت يد العم مصطفى على مرأى من الكل، كان

له دور الأب الذي حل محله باقتدار.

احتبست كلمات الشكر داخل فمي، لم أقو على إخراجها عند وداعه، لمعت عيني ببريق دموع العرفان، خفضت رأسي ودعته وشبكت أصابع يدي خلف ظهري وأدرت وجهي ومشيت.

لفرط نشوتي في هذه الأمسية عندما عدت سرت هائمًا يممت إلى وجهة لا أقصدها، أعرف تمامًا إن عدت إلى شقتي فإنني لن أقوى على النوم.. أتمنى أن لا يكون لقائي بها سرابًا يتلاعب بظمئي، لأنني لم أنهل من العاطفة والعشق إلا اليسير، أنا على يقين بأنني قد أنفق عمري تشوقًا إلى الأنثى وتجلياتها.

سرت في الشوارع والأسواق القريبة من مكان إقامتي، أتفرس في وجوه كل الموجودين والسائرين من حولي، أرقبهم، أنظر إلى أعينهم، خيل إليَّ أنهم يبادلونني النظر ويشاركونني الفرحة.

في هذه المرة لن أتنازل عن أحلامي، عليَّ أن أداري شمعتي وأحوطها بكل جوانحي كى لا تعصف بها أي نسمة عابرة وتطفئها، أتمنى أن تصل الأمور إلى منتهاها الذي أنشده وأن يباركها الله برعايته وتوفيقه، لقد تسللت إلى وجداني بسهولة ويسر.

دخلت إلى أقرب مقهى، تمنيت وجود إنسان ما ينصت إليَّ، تملكتني شهية البوح بما في داخلي، صرخات الفرح تريد أن تشق طريقها خارج حنجرتي.

غرقت وغصت في الأحلام، طردت عن ذاكرتي ذكريات غابرة كنت قد وأدتها، من حقي أن أفرح، الكل كان مبتهجًا، الكل في هذا اليوم سعى إلى الجمع بيني وبينها وباركها، رأيت سطوع الضوء في عينيها، رأيتها كما لو كانت عروسًا متوشحة بفستان الفرح وزفت إليَّ بمباركتهم.

ماذا أسديت إليهم حتى يغمرونني بكل هذا العطف والحنان؟

لا ولن تغيب عن عيني نظرة الرضا التي وزعها علينا أبي ونحن متحلقون من حوله قبل أن تغمض عيناه إلى الأبد، الكلمات التي تمتمت بها أمي وربتت بيدها الحانية على كتفي لدى وداعها لي هي سر توفيقي وسعادتي.

كانت واسعة الاطلاع فائقة الجمال تكلمت كثيرًا، أصغيت إليها وأنا أنظر إلى عينين واسعتين جميلتين تظللهما أهداب طويلة يحفهما من أعلى حاجبين قوس قليل عند نهايته، خط بعناية فائقة يلتقيان أعلى أنف صغير جميل يتوسط وجهًا يميل قليلاً إلى الاستدارة، وشعر أسود طويل منسدل قليلاً حتى أسفل كتفيها متوسطة الطول مائلة إلى البياض، أول ما يلفت نظر الناظر إليها هي تلك النقطة المثيرة في وجهها، تلك الشامة الصغيرة المستديرة التي وضعت برفق ورقّة أسفل خدها واستقرت قرب التقاء نهاية شفتها اليسرى زادتها فتنة.

استرسلت في الحديث دون ملل، كانت النشوة طاغية على ملامحها، أتمنى أن تكون تلك علامة من علامات القبول لديها وأن لا أكون واهمًا، أتمنى أن يكون الله قد أذن وبارك إقترانا قبل أن يباركه بقية الخلق.

قالت لي بأن خطبتها الأولى لم تستمر طويلاً، ولم يحالفهما التوفيق في استمرارها بعد فترة خطوبة امتدت قرابة عام واحد تنبهت خلال مشوارها معه بأنها وقعت في شباك إنسان انتهازى, من خلال عدة لقاءات تكشفت لها محاولته استغلالها ماديًا كونها ترفل في العيش تحت سماء أسرة متوسطة الثراء، فكان رفضها له قاطعًا بعد افتضاح مآربه.

شرعنا في السير نحو استكمال بقية الطقوس المتبعة عادة نحو اقتراني بها بعد أن وضعت يدي على مواقع الرضا منها في المقام الأول ومباركة السيد فتحي ووالدتها السيدة نادية.

تكللت موافقة جميع أفراد أسرتها بقدوم أخيها الوحيد محسن الذي يكبرها بسنوات من مدينة الإسكندرية حيث يعيش هناك منذ زمن مع زوجته، حظيت بدقائق خاطفة جمعتني به، لقاء غلفه الود والقبول الذي لمسته منه على أثر دعواته التي نثرها قبل أن يعود.

قرعات طبول الفرح بدأت ترن في أذني.

بعد مرور شهر واحد تمت مراسيم عقد قراننا في دار العم

مصطفى وسط جو من الود والبهجة اللذين طفيا على وجوه الموجودين، اقتصر الحضور على قلة من أفراد أسرتها إلى جانب شلة المصطبة وأسرهم الذين شملوني بحنوهم ودعواتهم المصحوبة بفرحتهم الكبرى التي رأيتها تقفز من أعينهم قبل أن تنطق بها ألسنتهم.

بعد عقد قراننا شرعت لنا النوافذ المواربة بفرجة أوسع تبيح لنا لقاءات متحفظة, كنا نسير تحت قرص الشمس الساطعة وداخل الإطار الذي يسمح به العرف السائد بمباركة ذويها واطلاعهم التام على مجرياتها وأماكن وجودنا.

نخرج بين يوم وآخر وأتعمد الإمساك بيدها مزهوًا لتقليص جرعات الحرمان التي ابتلعتها في الأيام الخوالي وأرقب أعين الناظرين من حولنا ويخال إليَّ وكأنهم يرمقونني بحسد كنت قد عشت أيامه القاسية من قبل.

في أيام متفاوتة كنا نرتاد دور السينما المنتشرة حول مكان إقامتي لنستمتع بمشاهدة بعض الأفلام الحديثة الماثلة للعرض، كنا نجلس ملتصقي الكتفين في حماية الشرعية المتحفظة، نسلط ناظرينا إلى شاشة العرض، أعيننا مبحلقة وقلوبنا تخفق، نكون في وضع أقرب إلى الأطرش في الزفة، إن سألنا أحد بعد خروجنا عما شاهدناه، حتمًا سوف تتراقص شفاهنا ولا نجد جوابًا.

وهذا ما حدث لنا عندما خرجنا في إحدى المرات بعد مشاهدتنا أحد الأفلام وصادف وقتها مرور إحدى صديقاتها وأخيها من أمامنا وتوقفا وسألني أخوها عما شاهدنا، عندها تلعثمت ونظرت إلى لبنى كمن استنجد بها، لحسن الحظ تدخلت وشرحت لهم بعض اللقطات، كنت وقتها أهز رأسي مؤيدًا لكلامها وزدت قليلاً على ما قالته بعد أن استرجعت البعض مما شاهدت.

في بعض الأيام عندما نشعر ببعض التعب كنا ندلف إلى داخل محل جروبي الواسع الصيت حيث كنا نقضي فيه بعض الوقت نشرب الشاي والقهوة ونتناول قطعة من الكيك اللذيذ الذي انفرد بعمله دون سائر الأماكن الأخرى، هذا المكان الوارف يقع في جانب من ميدان طلعت حرب الواقع في قلب مدينة القاهرة، المقهى متميز بأناقته يرتاده عادة علية القوم ويحمل طابعًا أوربيًا.

لقاؤنا بين يوم وآخر كانت الصراحة والشفافية تظللاه، لم تكن مجرد فتاة مدللة كونها وحيدة أبويها وقرة أعينهما، ولكنها كانت متشحة برجاحة عقلها وبساطتها، لم تغرق في المظاهر، سلوكها المتزن احتواني.

ضربت بعرض الحائط فوارق الطبقات، تباسطت وتواضعت.

يخال إليَّ أنني سطوت عليها وسرقتها من كل الموجودين من على سطح هذه البسيطة.

المكان الذي كنت أرتاده مع هاجر عاودت التردد عليه بصحبتها، هل هو مجرد عشق المكان أم هو أحد طبائع الإنسان لإيقاظ واستفزاز مشاعره التي نامت منذ زمن، مع تأكدي بأن نبضها قد توقف وخبا من دون رجعة.

في عصر يوم من أيام الشتاء الماطرة كنا نتجول في الأسواق القريبة من محل إقامتي نرتاد معارضها وننتقي بأعيننا أثاثها ونتبادل الرأي فيما سوف يلزمنا لاقتراب موعد ليلة الزفاف الذي وقت من قبل، والذي ولم يتبق عليه سوى شهر واحد.

لم ننزوى إلى مكان يحمينا كغيرنا من المطر المنهمر بغزارة دون توقف خلال سيرنا، جلسنا على عتبة إحدى البنايات بعد أن بلل المطر ملابسنا كنا كالأطفال سعداء نضحك من منظرنا، كان بعض المارة ينظرون إلينا ويبتسمون لا ندري هل كان تعاطفًا أم سخرية.

عرضت عليها اللجوء إلى شقتي القريبة من مكان وجودنا لنحتمي فيها وحتى تطّلع بنفسها على مكان عيشي الذي طالما تطرقت إلى ذكره لها.

- هل رأيتِ هذه البلكونة يا لبنى هنا أقضي معظم وقتي وحيدًا وأخلد إلى النوم عندما يغلبني النعاس وبعد أن يسكن الشارع ويهدأ الضجيج الصادر من حولي.
- لقد مضى أكثر من عامين على وجودك في القاهرة ألم

تتوفق في اختيار أكثر من صديق يبدد وحدتك وتستأنس بقضاء وقت فراغك معه؟

- أصارحك بشيء سوف تدركينه بمرور الوقت, حرصي الشديد في تعاملاتي مع الآخرين جعلني أكثر حساسية وحذرًا مما أدى إلى تقليص أعدادهم، قد يظن البعض أنني أميل إلى التعالي. في وقت حاولت أن أغير نفسي وأنزع منها تلك الصفات ولكنني فشلت لأن في داخلي مخزونًا من الحذر صاحبني منذ الصغر. هناك شخص واحد فقط استأنست به دون غيره ممن التقيتهم منذ أن حللت هذه المدينة، اعتاد على زيارتي في أوقات متفاوتة ولكنه ليس بالإنسان الملتصق بي، هو الآخر لا يملك الوقت الكافي للتردد عليَّ في كل ليلة، ووفقًا لطبيعة عملي اعتدت أن أعود آخر النهار منهكًا بعد يوم حفل بالعمل المتواصل وفي أغلب الأيام أخلد إلى النوم باكرًا. كان الله في عونك يا لبنى بعد أن ترتبطي بي سوف تعانين الوحدة القاتلة طيلة النهار وتنتظرين عودتي مساء كل يوم.

- لا تحمل همًا لقد تعودت منذ صغري على البقاء طيلة النهار في المنزل، بطبيعتي لا أميل إلى الخروج كثيرًا، سوف أجد ما يشغلني حينذاك، لا مانع لديَّ يا عزيزي في أن أدفع عندئذ فاتورة حبي لك لا عليك.

إفرازات غدد غريزة حواء طفت على السطح وأملت عليها أداء

وظيفتها بالبحث والتنقيب المستتر في كل أرجاء وزوايا الشقة عن أثر ما لشيء ما، إضافة إلى تمعنها في قراءة عناوين بعض الروايات التي كنت قد رصصتها فوق أحد الأرفف والتي كنت قد احتفظت بها ولم أجد الوقت المتاح لقراءة بعضها لضيق وقتي وانشغالي بأمور أخرى.

سرني نيل الشقة استحسانها بموقعها وسعتها.

فى المطبخ كانت تقف خلفى وأنا أجهز كوبين من القهوة بعد أن أصريت على عملها بنفسى: أدرت رأسى وألتفت إليها ووجدت الأبتسامة على وجهها وهى ترقبنى وأنا أقوم بتجهيزها، بعد أن جلسنا قلت لها : ألم تكوني متسرعة في الحكم عليَّ من خلال عدة لقاءات جرت بيننا لا تتعدى أصابع اليد الواحدة؟

أجابتني: وهل كان أبي يقوم بخداعى ويسعى إلى تزويجى بإنسان لا يعرفه؟ هو من أجزل في الثناء على سلوكك وطموحك ودلل على ذلك بقبول العم مصطفى مشاركته لك في تجارته.. يا صالح عند هذا الحد يكون دور أبي قد انتهى، وبقية الأدوار نكملها أنا وأنت، لا زال لدينا متسع من الوقت لكي يفهم أحدنا الآخر، أليس كذلك يا عزيزي؟

وأكملت: إن غرقنا يا عزيزي في قاع المجاملات كما هي عادة الذين يقضون فترة ما قبل ليلة الزفاف فسوف تبنى حياتنا على الخداع وتنتهي بكارثة تشملنا معًا، لا أريد أن ننهج السلوكيات

الخاطئة عند أولى خطواتنا.

لقد حباها الله رجاحة العقل، أطيل النظر إلى وجهها وأقول في داخلي لا بد أنني سوف أدفع ضريبة هذا الجمال في يوم من الأيام حينما أكون غير قادر على حجبها عن أعين الغرباء وأكون أنا أول من يحسدني على ارتباطي بها.

رمقني بواب العمارة النوبي وأنا خارج من أمامه بصحبتها، ألقى إليَّ بنظرة أعرف مغزاها، وحتى لا تتشوه صورتي وتخرج من إطارها الجميل الذي وضع فيه، وحتى لا تتوه أفكاره وتسرح في أمور كثيرة، من بعد أن ودعتها عدت إليه مباشرة: بناءً على ماقد قيل لي بأن بوابى العمارات هم بمثابة عين من أعين قاطنيها والمتطفلين على المترددين عليها.

الفتاة التي رأيتها برفقتي يا عم علوان خطيبتي، لقد عقدت قراني عليها منذ عدة أيام، هي كما تعرف الآن في حكم زوجتي.

بعد أن منحني مباركته: لقد خبرنا نزاهتك كل هذه المدة يا سيد صالح أنا لا أشك إطلاقًا في نقاء سريرتك.

لم يساورني القلق حيال علاقتها السابقة التي ركلتها بإرادتها دونما تدخل من غيرها، نمر بأيام يحوطها الهدوء والرضا، متوارين عن أعين الناس ومتدثرين تحت معطف مبلل برحيق الحب.

لا يوجد ما ينغص خاطري ويكدر صفوي سوى انشغال بالي

بالوعكة التي ألمت بوالدتي والتي تردني أخبارها في أوقات متباعدة من خلال رسائل أتبادلها مع أخي وكان آخرها تلك الرسالة التي زف إلى فيها بشرى اقتران أختي بعريسها يوسف.

في غضون شهر واحد جهزت الشقة بكامل احتياجاتها من أثاث ولوازم أخرى، يعود الفضل إلى والدة لبنى التي لم تبخل علينا بكل وقتها، تخرج معها وتقضي ساعات برفقتها في الأسواق بعد عصر كل يوم وتقومان باختيار ما يلزمنا.

ليلة زفاف لبنى

اتسمت ليلة زفافنا التي جرت مراسيمها في قاعة أحد الفنادق الراقية بالبساطة والرفاهية المقننة واقتصر المدعوون على عدد قليل من صديقاتها إلى جانب بعض المقربين من أسرتها.

لم يغب عن بالي دعوة سامي الذي حضر مصطحبًا هاجر التي بدت لي كما لو كانت غير سعيدة برؤيتي وأنا على هذه الحالة من الغبطة، وضح ذلك عندما أشاحت بوجهها عني عندما أمسكت بيد لبنى وتقدمت إلى سامى وإليها للتعرف عليها.

لن أنسى دور الأم في ليلة زفاف ابنها الذي أدته السيدة هنيه، كانت فرحتها غامرة تمثلت في الاهتمام اللافت بي وكأنها تقول لي أنا أمك، ألقت إلى كتفي بمعطف الأمومة.

لم تسعني الفرحة عندما استقبلتني عند مدخل قاعة الفرح وكانت تقف إلى جانبها ابنتها سامية.

أزاحتا عنى الاضطراب والرهبة التي تملكتني عندما لامست أذنى أصوات المدعوين الصادرة من الداخل قبل أن أطل عليهم.

هذه الليلة أعادت إلى الذاكرة صور ومشاهد كنت عشتها ورأيتها من قبل وكأنها حدثت بالأمس على الرغم من أن ما يفصلني عنها قرابة عشرين عامًا، أذكر يوم أن كنت صغيرًا عندما كانت أمي

تأخذني معها إلى بعض الأفراح، كنت أرى الأعناق تشرئب وقت دخول العريس بالوقوف على رؤوس أصابعهم لرؤيته والبعض منهن كن يعتلين الكراسى، وقتها كنت بدوري أتعلق برقبتها لأجل أن أرقى إلى مشاهدة ما يجري من حولنا، كنت أرى أهل العريس يستقبلونه ويحيطون به إلى أن يوصلوه إلى المكان المعد سلفًا لجلوسه.

سارت هي وابنتها بمحاذاتي إلى أن أجلستاني بجانبها وتركتاني وذهبتا إلى شأنهما.

تمنيت وقتها أن تجلس هي الأخرى إلى جانبي ولا تتركني نهمًا لكل الأعين التي كانت تنظر إليَّ وترصد تحركاتي، من لي غيرها وابنتها في هذا المكان.

بعد أن لاحظت ارتباكي وتشتت بصري، اقتربت مني وهمست في أذني: أنت بين أهلك يا صالح، أحسست وقتها كما لو كانت أمي قد أوصتها بأن تحل محلها ولم تصادر حقها، تماسكت خشية أن تدمع عيني ليلة فرحي، وكما يقال "الدمع فضاح".

في هذه الليلة رأيتها تقفز كالطفلة الصغيرة بين طاولة وأخرى للترحيب بالمدعوين وللتعبير عن فرحتها التي طغت على تصرفاتها، التففن الحسناوات من حولها، طلتها ألغت وجودهن، هكذا رأتها عيني، كنت ولبنى محاطين بعدد من صديقاتها، تارة أتطلع إليهن

خجلاً وأخرى أتصنع الابتسامة.

بعد اقتراني الكثير من عاداتي اليومية تبدلت، انتشلتني من وحدتي، اكتشفت العالم الجميل للحياة الزوجية، تعددت زياراتنا الأسرية ولم يعد لديَّ وقت فراغ، لم تعد وتيرة حياتي روتينية كما كانت من قبل، لقد تغيرت مجرياتها، أمسكت بيدي وجرت بي بعيدًا عن أشباح الماضي.

تمضى الأيام وأنا أرفل في ثوب السعادة والهدوء النفسي، أصبحت ملهمتي ألوذ إليها في أوقات كثيرة، أستقي وأحتمي بآرائها عندما كانت تتوه بي الحيلة، نتداول الآراء ونناقشها بهدوء، أقبلت على عملي بكل همة وأصبح للأيام طعم لم أتذوقه من قبل، أصحو مبتهجًا متطلعًا إلى الآتي المشرق، أسعى جاهدًا إلى جلب السعادة والطمأنينة إلى قلبها، بت أستقوى بنظراتها الحانية، بدأت سلسلة الأحلام تتوالى وتعاقبت الصور الجميلة في الظهور.

هلت عليَّ أولى البشائر، عند مرافقتي لها لزيارة الطبيب، ذكر لي أن لبنى حامل، تمنيت لو كان بمقدوري حملها فوق كتفي حتى شقتنا، على أثره أجزلت العطاء لكل العاملين لدينا ووزعت الحلوى على كل المجاورين لي في متجرى.

الفرحة غمرت شلة المصطبة، كان أول المهنئين لي العم مصطفى الذي وعدهم بوليمة سخية يقيمها، تبعه كل أفراد الشلة وعلى رأسهم

بطبيعة الحال السيد فتحي وهو المعني في المقام الأول بهذه المناسبة السعيدة.

نحصي الأيام, نترقب بشوق طلة القادم الذي سوف ينضم إلى عشنا، أرخيت عليها بكل قطرات الحنان.

نظرت إليَّ وقالت: ماذا تتمنى؟ هل تطلب من الله أن يرزقك ولدًا أم بنتًا؟

قلت لها: قد لا تصدقينني إذا أجبتك بأنه لم يخطر على بالي شيء من هذا، ولكن إن طلبتي مني التمني فسوف أجيبك بأنني أتمنى بنتًا، خلافًا لكل ما يتمناه الغالبية العظمى من الرجال. وإن سألتيني عن السبب فسأقول لكِ إن جل من غمروني بعطفهم خلال عيشي حتى هذه اللحظة هم من النساء.

كانت باكورة أبوتي ابنة جميلة كما تمنيت.

أطلت علينا بسنا طلعتها، تركت لي لبنى انتقاء اسمها، فسميتها فاطمة تيمنًا وتبريكًا باسم والدتي.

كان لطلتها قدوم السعد الذي جعلنى من خلال فرحتى أقترح على العم مصطفى فتح محل آخر, تحمس كثيرًا ولم يعترض, فكان لنا ما أردنا.

لم تسعنا الفرحة، أصبحت ملهاتنا والشاغل الذي التهم معظم وقتنا، تمضي لبنى كل وقتها في رعايتها وإعطائها حق أمومتها، أرضعتها

الغذاء والحنان، أقعدتنا بقربها اختزلت زياراتنا للأسر الصديقة.

ننحني معًا، نمعن النظر إليها ونقبلها ونرفع رأسينا، يلمح كل منا دموعًا شفافة تغطي حدقتي أعيننا. أهي دموع فرحة إطلالة الضنا وإشراقة شمس وبارقة أمل؟ أم دموع نوح مبكر؟ لا أدري.

طيرت البشرى لأخي وأختي ووالدتي ملتمسًا دعواتها ورضاها لأجل أن أتوكأ عليها وأستظل تحت سقفها.

حضرتني الآن مقولتها التي حفرت في ذاكرتي، خلال أيام طفولتي عندما كنت أستلقي في حجرها وأضع رأسي على ركبتها كنت وقتها أحس براحة عجيبة، كانت تنظر إلى وجهى وتقول لي: متى تتزوج ويكون لك أبناء وأفرح برؤيتهم يا صالح؟

- يا أمي لقد تحقق جزء من أمانيكِ، هل تكتمل كلها برؤيتك ابنتي؟

فاطمة أعطتنى إحساسًا بأن العمر قد تقدم بي سنوات وبأن حجم من يجب أن أشملهم برعايتي كبر، وبأن مساحة مسؤولياتي قد اتسعت.

كرت الأيام التي لم تكن تخلو من بعض المنغصات اليومية العابرة التي تعترض العاملين عادة, بمرور الأيام كنت قد تعودت عليها، أصبحت لا أتوقف عندها ولا أشرك لبنى فيها وأصارعها وحدي.

وبعد مضي عامين من إطلالة فاطمة رزقنا الله بابننا منير الذي

أشاع البهجة في نفوسنا، وبإطلالته منحنا الإحساس باكتمال العمود الحامل لسقف دارنا.

لازدحام متطلبات الحياة التي جدت كنت قد أرجأت زيارة والدتي لعدد من المرات، تساءلت: هل أنا محق فيما ذهبت إليه من تلكُئي واختلاقي بعض الأعذار؟

أكثر ما كنت أخشاه وأتوجسه أن تحمل لي الأيام القادمة أنباء تعصف باستقراري النفسي، بت أخشى العواصف التي تهب عليَّ بغتة وتنقشع الخيمة الممطرة التي ظللتنا وأمطرت علينا بقطرات السعادة.

عين الزمن لم تغفل عنى، لقد صدقت مخاوفي، فجعت بالنبأ الذي حملته رسالة أخي بوفاة والدتي، برحيلها انتابي شعور باليتم، حينما توفي أبي لم يمسني هذا الإحساس.

لقد كان لفقده - رحمه الله - انقشاع السقف المضلل علينا بالاستقرار والأمان وبفقدها فقدت الحنان والرضى الذي كانت نسماته تهب عليَّ من البعد.

لم أكن غافلاً بأن الأيام القادمة قد تحمل لي ما لا أحتمل.

في بعض الأيام بدلاً من عودتي إلى شقتي كنت أفضل الذهاب إلى شلة العم مصطفى لتقليص ساعات من الليل معهم بدلاً من عودتى باكرًا واستغراقي في الصمت الذي اعتراني وبانت معالمه على

ملامحي والتي عجزت عن حجبها عنها من بعد أن كانت الابتسامة لا تفارقني.

كنت ألمحها وهي تختلس النظر إليَّ وتراقبني في حيرة، لم تهتز تعاملاتها معي ولم تمسني بكلمة، بعد أن طال صبرها ولم تحتمل أكثر من هذا، نظرت إليَّ بحنو وشفقة وقالت: ماذا بك يا صالح؟ يخيل إليَّ أن هناك أمرًا ما تريد أن تحيدني عنه.

وكالطفل الصغير ملت إلى صدرها وبكيت بصوت مسموع، بكت معي قبل أن تقف على حقيقة سر بكائي.

بمرور الأيام نجحت باقتدار في إشاعة جو من المرح وتبديد حالات الكآبة من حولي وذلك باختلاقها مواقف ومبررات اصطنعتها بقيامنا بزيارة بعض الأسر في حدود ضيقة.

كانت تسعى إلى تهيئة الأجواء وخلق الأسباب للخروج بي إلى الفضاء الواسع، في يوم عطلتي ذهبنا صباحًا إلى القناطر الخيرية، رأينا الجموع الغفيرة من المتنزهين، المكان المفروش بالنجيلة الخضراء كان مناسبًا للهو طفلتنا التي بلغت السنة الثالثة من عمرها، كانت تركض متعثرة أمام أعيننا وكنا نتسابق إلى انتشالها.

وقفت معها في ذات المكان الذي جلسنا وتغدينا فيه يوم التقائنا في المرة الاولى، أمضينا وقتًا سعيدًا وعدنا آخر النهار.

في بعض الأيام من بعد عودتي كنا نتردد على بعض المطاعم

والمقاهي المتراصة على ضفتي نهر النيل، وفي أوقات أخرى كنا نسير ساعة الغروب ولا نعود إلا بعد أن ترفع فاطمة رأسها وتنظر إلينا وهي ممسكة بيد لبنى إشارة إلى أنها قد تعبت وعلينا الجلوس أوحملها أو العوده، فطرتها أوحت إليها بهذا.

من حق ابنتنا التي قاربت الرابعة من عمرها وابننا الذي يصغرها بعامين أن ينالا منا حقوق طفولتهما، وأن نقتطع جزءًا غير قليل من وقتنا لهم، كان لزامًا علينا أن نتردد بصحبتهما إلى أماكن لهوهما، كنا نرقبهما بفرح.

مرض لبنى

لم أجد تفسيرًا للتحولات التي ظهرت فجأة على تصرفاتها، على غير عادتها أصبحت تنفرد بنفسها كثيرًا وتختلق الأعذار للحيلولة دون الخروج للتجول أو لزيارة الأسر الصديقة، صولاتها وجولاتها من غرفة لأخرى داخل الشقة قلت كثيرًا واختزلت.

كما هي عادتى، أصحو في كل ليلة وأتسلل الى دورة المياه. في هذه الليلة لمحتها جالسة في صالة الضيوف واضعة كفها على جبهتها وضحت لي رؤيتها من خلال الضوء الهزيل الذي يرمى على مكان جلوسها, لم تتنبه لي وأنا أخطو على بعد أمتار منها, على أثر ما رأيت في تلك الليلة لم تغمض عيناى حتى طلوع ضوء النهار.

بعدها أصبحت أشد حرصًا وإمعانًا على رصد تحركاتها، كنت أراها تقطب بين حاجبيها خلال حديثها معي، كما لو كانت تحتضن ألمًا يعتصرها من دون أنين، ربما لا تريد الإفصاح عن ما بها.

لمعرفتى بطباعها أعرف أن لديها إصرارًا عجيبًا على الصمت وتحمل الألم، لم أجد تفسيرًا لكل ما أرصده من تصرفات محيرة سوى أنها لا تريد أن أشاركها معاناتها.

لسمو داخلها ربما تريد أن تجتر آلامها وحدها.

فى أول أيام معاناتها تحاملت على نفسها ولكن بعد أن أرخت عليها الآلام بوطئتها باحت لي بأن صداعًا قاسيًا ينتابها في أوقات متقطعة ولعدة مرات في اليوم الواحد، لا أدري لماذا بعد سماعي كلماتها تلك شعرت بنزف يقطر من تقرحاتى القديمة، من بعدها تقاطرت لديَّ الوساوس وأصبحت دائم التقلب على فراشى.

آآآآه.. إنها الشرارة الأولى للنار التي سوف تلفح قلبي وتحرقها.

بدأنا رحلة طويلة من الفحوصات والتحاليل، لم يجدِ ترددنا على عدد من أشهر الاطباء إلى أي نفع، لم نعثر على علاج شافٍ أو دواء فعال يخفف من آلامها.

لم يستجب جسدها الآخذ في النحول للعلاج الذي تتلقاه والذي تبين لي ولها بأنه من دون فائدة والتي أصبحت تتناوله بناء على إلحاحى.

ازدادت آلامها؛ أشفقت عليها، اعتكفت لأيام وأصبحت لا أغادر الشقة إلا للضرورة االقصوى.

بعد أن ازدادت وطالت أيام آلامها وقلت حيلتى كان لزامًا عليَّ أن أوصل الأمر إلى أهلها لنتكاتف جميعنا في العناية بها.

كان مؤلمًا أن أرى العم فتحي يجهش بالبكاء أمامي بصوت عالٍ كالأطفال بعد أن ألقيت على سمعه معاناتها.

لا يوجد منظر أقسى من رؤية رجل مسن يبكي، بناءً على توسلاتهم انتقل مكان عيشنا إلى دارهم، هناك انصب كل اهتمامهم

بالعناية بها وبطفلينا.

على مدى ثلاثة أشهر المرض شل حركتها بعد أن قضى على قواها، النحول فرض وجوده على جسدها.

بدأت أرثى لحالها وطافت حول أفكاري وساوس مرعبة.. صوت دفوف ليلة زفافنا لا يزال كامنًا داخل أذني، اسمع صداه بين آونة وأخرى، هل آن الأوان لكي يزول ويتلاشى وكأن شيئًا لم يكن؟!

الهموم وبداية أحزاني أتت تجري مهرولة، لم العجلة؟!

أيامي الوردية التي كانت براعمها آخذة في التفتح ذبلت قبل أن ترى الضوء.

فاطمة ومنير لم يكونا واعين لكل ما كان يدور حولهما، بإشفاق بالغ كنت ألمحهما يجريان بيننا ويلعبان، وبين وقت وآخر كانا يقتربان من لبنى ومن بعد أن تحتضنهما يعاودان الابتعاد واللهو.

صباحًا حضر العم مصطفى إلى المحل وأمسك بيدي وكأنه يقودني عنوة واصطحبني إلى مقهى قريب من محيطنا.

- ماذا جرى لك يا صالح؟ أعرف معاناتك، كان الله في عونك!

الحالة المؤلمة التي تمر بها لبنى تردني أنباؤها من السيد فتحي وبدت مرسومه على ملامحك، لم لا تبوح لي بها؟

- لم تفلح محاولاتنا في الكشف عن أسباب مرضها يا عم مصطفى، مرضها أقعدني بجوارها ولم أعد أتردد على المحل

إلا قليلاً وهذا سوف يؤثر بالسلب في مبيعاتنا.

للمرة الأولى علا صوته وانطلقت من فمه كلمات قاسية وجهها إليَّ وبدا منفعلاً:

المحل وما نملكه من مال لا يساوي شيئًا أمام حياة زوجتك يا صالح لا تكرر هذا القول أمامي مرة ثانية، لبنى مثل ابنتي سامية، أنت لا تعرف هذا.

بعد أن رصد لمعان الدموع التي غطت عيني:

لا عليك.. سوف تسير الأمور كما يجب ولا تشغل نفسك بأمور أخرى تبعدك عنها، وقوفك يا صالح إلى جانب زوجتك واجب نحن ندفعك إليه، أرجو أن لا تتخلى عنها لحظة وأن لا تنزعج من الكلمات التي خرجت من فمي ولم أقو على لجمها.

كلماته كان لها الأثر الطيب في نفسي لا أنسى وقوفه الدائم إلى جانبي.. كيف لا وهو بمثابة الأب الروحي لي؟!

دموعي أصبحت حبيسة مقلتيَّ.. أخرج إلى الشارع أمشيه جيئة وذهابًا وأحيانًا ألوذ إلى مقهى حمدي لقتل الوقت والبحث على من أنثر له همومي.. ولكننى لا أجد بقربى أحدًا يسمعني، حتى سامي لم أعد أراه، ماذا جرى له؟ لقد اختفى فجأة، لو أنه في القاهرة لزارني.

الأسر الصديقة التي انقطعت زياراتنا لهم انتابها القلق مثلنا ولم يقصروا، هم دائمو السؤال عنها وزيارتها.

في الأيام الأولى آثرت الصمت، ولكن بعد أن ضاقت بي الحال وبعد أن تراكمت الكلمات داخل فمي وتزاحمت انطلقت أبحث عمن يسمعني.

بعد انقضاء النهار والعودة لم أعرج إلى أي مكان، وعلى غير العادة ذهبت مباشرة إلى المقهى الذي كنت قد اعتدت الجلوس فيه، في محاولة مني لكي أرسم البسمة التي غابت عن وجهي، أخذت مكاني بالقرب من حسني.. الفتى الذي يقف خلف النصبة لساعات يجهز طلبات الرواد لأجل أن أسلي النفس بشرب الشاي والتنصت إلى مزاحه وقفشاته ومناكفاته للعاملين معه عندما كانوا يقتربون منه ويتناولون الطلبات.

خلال جلوسي لمحته، سحبت كرسيًا وبدون أن أستأذنه جلست قبالته.. إنه السيد شعبان الدائم الجلوس في هذا الركن المنزوي من المقهى، كنت أراه معظم وقته ممسكًا بجريدة الأهرام يرفعها تارة يقرأ منها أسطر قليلة ويبعدها تارة أخرى من أمام وجهه ويتلصص على الموجودين من فوقها، عندما تصطدم بأذنيه كلمات أزعجته أو حركة طارئة نبهته كان يتركها لثوانٍ ثم يعاود دفن وجهه بين صفحاتها وكأنه يريد أن يتخفى خلفها عن أعين الناس.

ذكر لي حمدي إنه أحد شرائح المجتمع الذين قد شملهم التقاعد الوظيفي منذ سنوات، نظر إليَّ بشيء من الريبة من فوق نظارته السميكة التي عفا عليها الزمن والتي لا أدرى كيف يرى الأشياء من

خلالها، بعد أن اطمأن إليَّ وبكلماته التي بالكاد كانت تخرج متعثرة من فمه وبحنو بالغ بعد أن أطلعته على الوجع الذي سكن قلبي، وضع يده على كتفي وربت عليها، ختم كلماته بأن أوصاني بالصبر والدعاء لها بالشفاء.

كدت أميل إليه وأضع رأسي على كتفه وأبكي ولكنني أشفقت على نفسي من نظرات الموجودين حولي..

أقضي معظم وقتي وحيدًا في البلكونة التي باتت تعرف الكثير عني.. ألجأ إليها عندما تحاصرني الهموم.. أجتر الذكريات.. أنظر إلى المارة، أسأل نفسي أحيانًا أسئلة غبية: هل أنا الإنسان الوحيد الذي تتعقبه الهموم في هذا الكون؟

في هذه الليلة بعد أن باءت محاولاتي المتكررة اللجوء إلى النوم بالفشل نزلت إلى الشارع الذي خلا إلا من بعض القلة المتبقية من بعض المارة بعد أن أغلقت المحال التجارية أبوابها وذهب كل إلى غايته.

الحانة

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلاً.

سرت لتبديد الساعات المتبقية من الليل، ليس لي وجهة بعينها أقصدها إلى أن وجدتني أمر من أمام حانة قرب ميدان العتبة، وقفت لدقائق وعلى بعد أمتار قليلة من مدخلها وكأنني أسترق السمع لما يدور بداخلها وكما لو كنت أحاور النفس في الدخول أو الانصراف.

كنت قد سمعت كثيرًا عن هذه الحانات؛ لم لا أدخل وأرى وأسمع ما يدور ويحدث في الداخل؟! قد أخرج بجديد وأشبع فضولي.

قبل أن أخطو لمحت الشخص الفارع الطول الواقف المتسمر عند بابها، يرصد السائر والواقف ويداه معقودتان إلى خلفه، كان يرقبني بعينين خبيرتين، عندما اقتربت من مدخلها في البداية رمقني بنظرة فاحصة وأعقبها بابتسامة خفيفة تشير إلى جواز دخولي، مد يده ودفع إحدى ضلفتي الباب قليلاً وأفسح لي، مما حسم أمري وكسر ترددي فكان لا بد لي من الدخول.

بعد أن خطوت خطوتين إلى الداخل توقفت, خيَّل إليَّ أنني داخل ما يشبه المغارة، كنت مترددًا في الجلوس, كى أبرر وقوفى ألقيت بنظري إلى عمق المكان كالذي يبحث عن أحد ما قد سبقه إلى هنا، المكان شبه مظلم، لا أستطيع أن أتبين بكل وضوح ملامح أي من

الموجودين، كيف لي أن أكتشف نوعية من سأقضي معهم بعض الوقت.

بداية اعتراني قليل من الخوف، وقفت حائرًا لثوانٍ، وكما هي العادة في معظم المطاعم والمقاهي لم أجد من يقف للترحيب بقدومي، المكان معبأ بدخان كثيف، تستبين مدى كثافته عند إلقاء النظر إلى المصابيح الخافتة التي ثبتت على الحوائط الداكنة اللون. هناك همهمات ما يشبه الهمس وسعال صادر من حناجر متقرحه.

المكان تحتبس فيه رائحة نفاذة لم أكن قد شممتها من قبل، تقترب رائحته من بعض تلك الأنواع الرديئة من السجائر مختلطة مع الأنفاس المحبوسة التي لا تجد منفذًا تخرج منه للفضاء، هل أعود إلى الخارج أم ألبي نداء الفضول الذي دفعني إلى داخل هذا النفق وأجلس كغيري على أحد الكراسي الخشبية القليلة المتناثرة.. أخذت مقعدي على أقرب طاولة خالية بعد أن مررت بيدي على الكرسى الخشبى الذي سوف أجلس عليه، لم ألمح سوى قلة أحسبهم من قاع المجتمع نظرًا إلى سوء حالة الغالبية من الموجودين في هذا المكان. بإمعان شديد تجولت بنظري سريعًا على القريبين مني، رأيت الجالس وحيدًا مستندًا بكلتا مرفقيه على الطاولة وواضعًا كفيه على خديه، ساهمًا مصوبًا نظره إلى ما بين يديه، وآخر يعب من الكأس القابض عليها بيد وبين أصابع اليد الأخرى لفافة تبغ يمتصها وينفث الدخان المنبعث من فمه ويرقبه إلى أن يتلاشى، وفي الركن القصي

المظلم اثنان يتجاذبان فيما بينهما حديثًا هامسًا وكأنهما يبثان سرًا فيما بينهما ولا يريدان أن يطلع عليه أحد من الناس.

في منظر سينمائي على الكراسي المستديرة المرتفعة التي رصت في مواجهة الساقي يوجد نفر ممن يتجاذبون الحديث معه، الناظر إليه يرى أنه أذن صاغية لكل ما يقال له، ينتقل وهو واقف بين هذا وذاك وبخفة متناهية يصب كأسًا ويغسل أخرى دون أن يلقي بنظره إلى ما بين يديه مصوبًا بصره إلى محدثه مبتسمًا له تارة وأخرى مقطبًا بين حاجبيه وفقًا لما يقال له وكأنه يكابد ما يكابده محدثه.. هو مجامل لأقصى درجة، قد يكون هذا ما يحتمه عليه عمله في هذا المستنقع.

استعدت قول قائل بأن الساقي يعتبر بمثابة بنك ومستودع آمن لأسرار الغالبية ممن ينثرون بين يديه بعض همومهم التي اختزنوها في جوفهم واحتفظوا بها ولم يبثوها حتى لأقرب المقربين إليهم.

بين برهة وأخرى تنطلق من أحدهم ضحكة رنانة توقظ البعض من غفوته الآنية وتجعله يلوي رأسه إليه، وهناك من لا يعير ضحكته أدنى اهتمام، فقط يميل برأسه قليلاً ويكمل, وهناك من يكون قد غط في سبات عميق، بين وقت وآخر يكسر هذا السكون صوت تلاقى كأس بأخرى, يبدو لي أنها حالات إنسانية نادرة تدعو إلى الفضول وربما الشفقة، يخيل إليَّ بأن بعض مرتادي هذه البؤر يأتي فقط لسكب همومه وتخفيف أناته.

يا للمصادفة! لم أكن أتخيل وجوده في هذا المكان إطلاقًا، بالكاد لمحته جالسًا على بعد أمتار قليلة منى مستندًا بأحد مرفقيه على الكرسي القريب منه واضعًا كف يده على صدغه يتحدث مع الجالس خلفه.

إنه العم عبد الستار بهامته المديدة التي لا تخطئها العين من بين مئات البشر.

لم لا أذهب إليه؟! ولكن ما عساه أن يقوله لي عندما يراني في هذا المكان، ترددت لثوانٍ كدت أتسلل خارجًا قبل أن يراني، أخيرًا وخلال ثوانٍ حسمت أمري.

لمحني واقفًا قبالته، بعد أن رمقني مليًا وكأنه غير مصدق مما يراه، وبنبرة بدت عالية في هذا المكان الذي يخيم عليه سكون فريد والتي على أثرها جعلت البعض يخرجون مما هم فيه ويلتفتون إليه: صالح.. ما الذي أتى بك إلى هذا المكان يا ابني.

بعد أن قرب لي مقعدًا وأشار لي بالجلوس بادرني بسؤاله الذي توقعته:

- هل أنت ممن يرتادون الحانات؟ لم تصل إلى ما وصلنا إليه بعد، هل أثقلتك الهموم أم هي نزوة من نزوات بعض الشباب الذين هم في مثل سنك؟ قل لي لا تخف؛ لن أبوح إلى من يهمه أمرك ولن أقول لأحد إنني التقيتك في هذا المكان، هل ترى

ذلك الباب يا صالح؟ وأشار بإصبعه إليه، كل ما يقال وما يجري في هذا المكان لا يتعداه ولا يخرج منه، هذا المكان بمثابة مدفن أسرار ومرمى نفايات هموم بعض بني البشر.

أفهم ما كان يرمي إليه.

- صدقني يا عم عبد الستار، بعد أن جافاني النوم نزلت إلى الشارع وسرت كالضائع إلى أن وجدت نفسي أمرّ بمحاذاة مدخل هذا المكان وترددت قبل أن أدخله، صدقني لم يسبق لي الدخول إلى مثل هذه الأماكن من قبل ولا كيف تدار الأمور فيها، الأمر لا يزيد عن تطفل مني.
- أظن أنه وصلك شيء مما نحن فيه من المعاناة والحزن الشديد الذي أصابنا من جراء مرض لبنى.
- أعرف هذا، السيد فتحي لا يخفي عنا شيئًا، نحن كما تعرف قلوبنا متحدة في السراء والضراء، كان الله في عونها، لا نملك إلا الدعاء لها بالشفاء.

أشار إلى النادل الذي يعرفه تمام المعرفة كغيره من المترددين على هذا المكان.. بعد أن وقف قبالتنا: ما هو مشروبك المفضل يا صالح؟

أجبته: لا هذا ولا ذاك يا عم عبد الستار.

واقتربت من أذنه. بعدها أشار بإصبعه إليَّ وأعقب: كوووباية شاي

يا عربي هنا.

ابتسم ابتسامة خفيفة ساخرة ذات مغزى وزم أحد طرفي فمه وهز رأسه وتنقل بنظراته بيننا كمن يقول لنا "خلصوني"، مقبولة منك قل غيرها.

همس العم عبد الستار في أذنه ببضع كلمات. قبل أن يدير لنا ظهره وبكلمات نسمعها وبظرف بالغ: هل يرضيك يا عم عبد الستار أن أطرد وتلبسني تهمة تقديم كوباية شاي في بار، ألا تعرف إنها جناية يعاقب عليها القانون بالسجن المؤبد؟

هذه الفئة النادرة من الناس هم ممن تحضرهم النكتة في ثوانٍ، أدار إلينا ظهره وزاد قائلاً: القيامة قربت، آآآآخر زمن، آآآآخر زمن.

- صدقني لم أضحك منذ أن كبلتني الأحزان، الساعة التي قضيتها معك أنستني شيئًا منها. لم أصدق عيني عندما لمحتك يا عم عبد الستار جاء دوري لكي أسألك ما الدافع الذي أتى بك إلى هنا، سؤال لا بد أن تجيبني عليه قبل أن نغادر مكاننا هذا.

- الكل يا ابني يراني في معظم الأوقات أضحك مع هذا وأداعب ذاك، قد لا يخطر على بال أحد أنني أنوء تحت وطأة هموم شتى ولا أريد أن أفصح عنها حتى لأقرب المقربين مني، على سبيل المثال وأبسطها خروج ابني الوحيد عن جادة

الصواب إلى الحد الذي جعلنى لا أراه إلا في أوقات متباعدة، انضم إلى شلة من الضائعين، هل تتصور أنه في مرة من المرات هم بضربي؟ ولكن من حسن حظي كنت وقتها بين جمع من الناس. هذه محصلة الدلال الزائد عن حده الذي كانت أمه ترضعه له منذ صغره.

أذكر أنني قد رأيت ابنه للحظات من قبل عندما كنت في زيارة خاطفة إلى فندقه، رأيته لا يشبه أباه في شيء، إن لم تخُنِّي الذاكرة كان نحيلاً طويل القامة كعود القصب، غائر العينان, رقبته تكاد تغوص بين كتفيه، نظراته زائغة، في مشيته شيء من التأرجح، عندما يسير يطوح يديه بشكل لافت وكأنها معلقة في كتفه، ويميل بجسمه يمنة ويسرة وكأن نصفه الأعلى منفصل عن الأسفل، رأيته لا يحمل عن أبيه سوى اسمه فقط.

بعد أن أخذ نفسًا عميقًا قال لي: اشرب الشاي قبل أن يبرد، لقد شارف الليل على نهايته، لنخرج من هنا قبل أن أصل إلى حد الثمالة وتتكأ مواجعي الأخرى وأتقيؤها، لقد أتيت إلى هنا لكي أنسى... لكى أنسى يا صالح، خرجت الكلمات من فمه متأوهة.

عند باب الحانة: إن كنت في غير وعيك يا صالح ولا تستطيع السير على أثر شرب فنجان من الشاي في حانة أقوم بتوصيلك.

أتبعها بضحكة مدوية قبل أن يدير لي ظهره وتبتلعه الأزقة

المظلمة.

بعد أن ودعته: ليت كل الناس مثلك لديهم القدرة على دفن همومهم، كان الله في عوننا جميعًا، أمنحك كل العذر في لجوئك إلى هذا المكان يا عم عبد الستار، كان في حالة هروب من نفسه.. أنا على يقين بأنه لا يوجد إنسان على ظهر هذه البسيطة خالٍ من الهموم وإن كانت متفاوتة الثقل بين هذا وذاك. هو من تلك الفئة النادرة من الناس ممن تخدعك ابتسامته التي لا تعبر عما في داخله، كانت الساعة تشير وقتها إلى الثانية بعد منتصف الليل.

لم تغمض عيني في تلك الليلة، هل عادت إليَّ الهواجس؟! كنت قد خاصمتها منذ زمن.

بمرور الأيام أخذ جسمها في التضاؤل، كنت أرصده، بدأ الشحوب يطغى على ملامحها، عندما جثم المرض بثقله على جسمها الضئيل سكنت فكرة الموت في عقلي.

عندما أجلس قبالتها أمسك بيدها وأتلهى بفعل شيء لكي أخفي دموعي عنها خشية جرحها، كانت على حافة الموت، وجهها ونظراتها الزائفة لا توحى إليَّ بالطمأنينة، كانت تجهد نفسها في رسم الابتسامة وكأنها تقول لي "أنا بخير.. لا تقلق"، أرفع رأسي وأرى كمًا من الأدوية امتلأ بها الرف لوصفات مختلفة لعدد من الأطباء، كنا حريصين على شرائها، حتى الوصفات البلدي لم يبخل بها علينا

زوارها. على الرغم من قساوة تلك اللحظات كانت عيني تغافلني وتذهب إليها، أهي نظرات الوداع الذي يسبق الفراق عادة؟ أخشى أن أكون على موعد قريب من رؤية المشهد الأخير من مسلسل معاناتها.

في صبيحة ذلك اليوم ذهبت إلى المستشفى للاطلاع على نتائج الفحوصات والتحاليل التي أجروها قبل يومين، عدت وكان اليأس من شفائها عائدًا برفقتي، وذلك بعد أن شاهدت بوضوح نتائجها التي رسمت على وجه الطبيب الذي أراد التخفيف عني بقوله: عليها أن تأخذ هذه المسكنات لأجل أن ترتاح من آلامها. لم يزد على هذا.

بعد أن عدت وقفت على عتبة الباب ولم أقوَ على الدخول وسلمت الأدوية للعم فتحي قائلاً له: عليكم إعطائها هذه الأدوية بناءً على التعليمات المكتوبة في الوصفة المرفقة. هو بدوره قرأ على وجهي نتيجة تلك الفحوصات, لم يسأل أو يستفسر تناولها منى وأدار لي ظهره.

الكآبة خيمت على أرجاء الدار وأطبق عليها السكون وكأن السماء تنذر بهطول قطرات الحزن علينا، والعم فتحي ركبته الهموم ولم يغادر داره.

عندما نظرت إليها لاحت أمام عينيَّ صور كان الزمن قد محاها أو هكذا خيَّل إليَّ، ها هي الآن تتكرر أمام ناظري وبنفس القسوة من

المعاناة النفسية.

تذكرته، انكفأت ذاكرتي وعادت بي إلى اليوم الذي كنا فيه متحلقين حول مخدع والدي ننظر إليه بأعين دامعة وقلوب مشفقة ولم يكن بمقدورنا وقتها عمل شيء، وها هو نفس المشهد القاسي يتكرر ثانية وإن اختلف الزمان والمكان.. لا فرق.

لم أستوعب كل ما سوف يمر بي.. هل يمكنني مواصلة الحياة من بعدها؟ ازدحمت الأفكار المخيفة في رأسي.

وفاة لبنى

فى هذا اليوم لم تظهر الشمس, كان الوقت ظهرًا.. تلبدت السماء بالغيوم السوداء وهطل الحزن منها وبكت بقطرات المياه التي انهمرت بشدة ساعة وأدها وكأنها تغسل الأرض من مآسي وأحزان الخلق وتريد أن تمحو من قلوبنا ذكراها.

خِلْت أن القاهرة عن بكرة أبيها في تلك الساعة بكتها وخرجت معنا لوداعها ونعيها، السيرة العطرة التي لازمت مسيرة حياة العم فتحي وحب الناس له جعلت كل هذه الجموع الغفيرة يغادرون منازلهم ويخرجون في هذا الجو العاصف الماطر ويتقاطرون أرتالاً ويرافقونا حتى مدفنها.

لم يتبق أحد من قاطني منطقة الحسين وما حولها من الأزقة والحواري القريبة والبعيدة، صغيرًا كان أم كبيرًا إلا وأم السرادق الذي نصب في الباحة الواسعة أمام دارهم وأدى واجب العزاء.

بعدما انفضت الجموع الغفيرة من المعزين، ظل العم فتحي جالسًا في مقعده ولم يقو على الوقوف, رأيت الصحاب ملتفين من حوله.

غادرت المكان وأنا لا أرى شيئًا، ولكن إلى أين؟ ليس لي وجهة أقصدها. كانت نظراتي تائهة؛ سرت هائمًا لا أدري كيف ساقتني قدماي إلى الشوارع القريبة من مسجد الحسين، لم أفِق بعد من عِظَم

ما جرى.

بعد أن ابتعدت سمعت وقع أقدام تتعقبني، كان يتبعني، هل هي مصادفة أم كان مدفوعًا من أحدهم خوفًا عليَّ مما أنا فيه من شرود وذهول؟ إنه أيمن ذاك الفتى الطيب الذي يعمل معي ويساعدني، توقفت عن السير والتفت إليه وقلت له: لماذا تسير في أثري يا أيمن؟

بدا عليه الارتباك وأجابني: أنا خائف عليك يا عم صالح؛ دعني بالله عليك أرافقك إلى حيث أنت ذاهب.

لمحت قطرات الدموع تتساقط من عينيه وشفتيه ترتجفان، غطى وجهه بكفيه ولم يستطِع النظر إليَّ وأدار وجهه وبكى.

لمسات إنسانية تطفو على السطح في هذه المواقف تلتصق بالذاكرة ولا تنسى..

شكرته وتركته واقفًا في مكانه وأكملت سيري.

عندما دنوت من باحة المسجد ربت على كتفي برفق وأمسك بيدي، التفتُّ إليه وعرفت أنه أحد أئمة مسجد الحسين وأحد الذين كانوا يتلون القرآن في سرادق العزاء. بابتسامة عذبة تقطر حنوًا لا ترى إلى على سنا طلعة هذه الفئة القليلة من البشر، أمسك بيدي ووضع يده الأخرى على كتفي وقال لي: تعالَ معي يا ابني نصلي ركعتين في المسجد ندعو لها بالمغفرة وحتى يكون الله بقربها ويلهمك الصبر ويبدد أحزانك.

بعد أن فرغ من صلاته كان قريبًا مني يرقبني، بعد أن انتهيت زحف إلى أن صار في مواجهتي، وضع يديه على ركبتي وسلط بصره إلى وجهي وأخذ يتمتم بكلمات هامسة رأيتها من خلال تحريكه شفتيه. لا أدري كم هي الدقائق التي مرت عليَّ وهو في مواجهتي، كنت مطرقًا أنقل بصري بالنظر إلى فمه وكفيه, أخرجنى من عالمى لثوانٍ أحسست وقتها وكأنه صب على جوانحي ماءً مثلجًا وبرودتها لامست قلبي وشعرت بعدها بهدوء واسترخاء نفسيين، أرخى على قلبى بسكينة لم أشعر بها من قبل.

بعد أن فرغ نظرت إليه ممتنًا ولم أقو على إلقاء كلمات الشكر إليه، وخرجت من المسجد بعد أن تأكد لي أن أرض الله الواسعة لم تفتقر إلى الحنان، وواصلت سيري.. الدموع تعلقت بأهداب عيني والتصقت بها ولم تتساقط كما عهدتها من قبل.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر قبل منتصف الليل، كنت على مقربة من مكان إقامتي لم أقوَ على الصعود إلى شقتي وواصلت سيري، إلى أين.. لا أدري.

جلست في بهو الفندق الذي لم يكن موجودًا به في تلك الساعة المتأخرة من الليل سوى بعض العاملين ونفر من النزلاء.. تجولت بناظري لمن حولي، كنت خائر القوى، زائغ البصر، لا أرى شيئًا، كنت أشعر بدوار وانكسار نفسي إلى حد الشفقة على حالي. لا أدري كم مضى لي من الوقت وأنا على هذا الوضع. كنت نائمًا ورأسي

متدلية إلى صدري ويداي مشتبكتان تحتها. هز كتفي بلطف؛ فتحت عيني بصعوبة، لم أدر للوهلة الأولى أين أنا، إنه حسني، لم تسقطه ذاكرتي، هو أحد العاملين بالفندق وممن كانوا على سابق معرفة بي من خلال الأيام التي قضيتها بين جنباته.

- عفوًا يا سيد صالح! لم أرد أن أزعجك، اصعد إلى غرفتك بدلاً من نومك وأنت على هذا الوضع المتعب.

- أشكرك كثيرًا، كنت مارًا بالقرب من هنا ورأيت أن أسلم عليكم، كنت مرهقًا وغلبني النعاس وغفيت قليلاً دون أن أدري.

ارتميت على مقعد الجلوس المستطيل الذي كانت لبنى قد وضعته عند مدخل الشقة ونمت فوقه بكامل ملابسي. كنت في الحالات النادرة أصحو على أذان الفجر، أتاني من المسجد الذي لا يبعد كثيرًا عن محل إقامتي صدى صوت المؤذن متقطعًا يخبو ويستبين وكأنه آتٍ من آخر هذا الكون، كنت ما بين النوم واليقظة، وقبل أن أهم بالوقوف من مكان رقدتي أحسست بهمٍّ جاثم بثقله على صدري واهتز جسمي بصاعق الكآبة، وشعرت برعشة الخوف من الظلام القادم.

كان من عادتها صباح كل يوم تصحو قبلنا، أسمع وقع خطواتها عندما كانت تخطو برفق، كانت تلامس الأرض برقة خوفًا من أن

يتسبب صوت حشرجة قطع الأخشاب التي غطيت بها أرضيات الغرف سببًا في إيقاظي قبل موعدي، كانت تنظف كل غرف الشقة وترتب محتوياتها وتعيد الأشياء إلى مكانها، كنت أحس برقة ملامستها لها.

تجولت في أرجاء الشقة بحذر وكأنني أدخلها للمرة الأولى أرقب أشياءها واتجهت نحو الجدار ألمس برفق صورها وأقلبها لأخفيها من أمام ناظري لأخفف من صدمتي، ولكن هل بمقدوري أن أمحوها من ذاكرتي؟ مقتنياتها التي كانت تتألق في كل ركن من أركان الشقة هي نفسها لم تتغير، ولكن ما بين ليلة وضحاها رأيتها هي الأخرى بدت لي كما لو أنها تشاركنى أحزانى.

صدى ضحكاتنا في جنبات هذا المكان لا زالت ترن في أذني، مساحيق فرحنا لا زالت تصطبغ بها أوجه حوائط هذا المكان، التصقت به، كيف أمحوها؟

أحاديثنا لم يدعها القدر أن تكتمل، لدينا الكثير مما لم نقله، لقد سرقت منى في غفلة.

صور وتجاذبات مع النفس طفرت خلال ثوانى لم أعشها قبل موتها.

قبل أن أخرج وقفت في البلكونه وألقيت بنظري إلى الشارع، الناس ذاهبة إلى أعمالها والمحلات بدأت في فتح أبوابها في موعدها

والباعة يعلنون عن بضائعهم، على الرغم من أن لبنى قد فارقت الحياة بالأمس.

بعد كل الذي حدث.. أما زال الناس يمارسون حياتهم العادية؟

تنبهت إلى حقيقة ما جرى، لقد كان الفقدان داخلي أنا فقط.

جلست على مقعدى المعتاد في البلكونه، جاهدت النفس على إقناعها بأن الجزع لن يفيد والذي وقع وقع وأنتهى كل شيء، هل أقتنع، لا أدرى؟!

السنوات القليلة التي ضمتنا غرف هذه الشقة جرت بنا سريعًا وكأن الزمن يطاردها، كنا نرفل خلالها بالبهجة ونتدثر تحت غطائها بالوجد.. لم نكن ندري أنها كانت خدعة كبرى، كانت هالة ضوئية زارتنا في عتمة الزمن ولم تلبث إلا قليلاً وانقشعت من فوقنا وعبرت إلى وجهة أخرى تقصدها.

في كل يوم أتردد على دار العم فتحي للاطمئنان على صغيريَّ فاطمة ومنير للجلوس معهما والخروج بهما إلى أماكن لهوهما حتى لا تجرفهما الغربة عني بعد أن فقدا حنان الأم وهما في هذه المرحلة المبكرة الشديدة الحساسية من العمر، هل هي بداية الفصول الأولى لمعاناتهما؟

من الأفضل لي ولهما استمرار مكوثهما في دار العم فتحي إلى أن يقرر الله أمرًا، لا أملك في الوقت الحاضر بدائل أو خيارات أخرى

تبيح لي أخذهما والرجوع بهما إلى مكان إقامتى، العم فتحي والسيده ناديه بدورهما تمسكا ببقائهما عندهما وبشدة.

خلال ساعات وجودي عندهم كنت أرى بعيني وألمس بحسي أن الكآبة قد سكنت عندهما والبسمة هاجرت من محيطهما، لقد كانا وكنت معهما متعلقين بها أشد التعلق.

قائل قال لي منذ زمن إن تعلقنا بشدة بالأشياء في هذه الدنيا يؤدي بنا إلى فقدها.

عدت إلى اجترار همومي ووحدتي اللذين أصبحا توأمي، مساحة الفراغ التي ملأتها أيام وجودها عادت واحتوتني داخل أضلعها.

حتى لا أجتر الذكريات، من بعد رحيلها كنت أتحاشى العودة مباشرةً إلى الشقه، تتلقفني الأسواق والشوارع القريبة أذرعها جيئة وذهابًا على غير هدى حتى الإرهاق.

أحيانًا أركن في أحد المقاهى القريبة أقضي فيها وقتًا قد يطول لساعات حتى الملل، أعود بعد أن يكون الإرهاق أخذ مني مأخذه وارتمى على الكنبة التي تعودت النوم عليها منذ أن رحلت من بعد أن هجرت غرفة نومنا.

هذا ما دأبت عليه، ولكن إلى متى، حتى شلة العم مصطفى خيَّم عليها الوجوم وغطى على سمائها الصمت وأضحت الضحكة الرنانة التي كان الحاج عبد الستار يطلقها خروجًا عن المألوف تحسبًا

ومراعاة لمشاعر العم فتحي المكلوم.

أذهب إليهم في أوقات متباعدة، هم منحوني العذر وغلفوني بعطفهم.

أصبح اهتمامي بفاطمة ومنير هو أكثر ما يشغلني.

أبذل قصارى جهدي في سبيل منحهما جزءًا كبيرًا من وقتي لأحتضنهما وأعوضهما جزءًا من الحنان الذي فقداه.

في خضم هذه المستجدات القهرية التي فرضت عليَّ نسيت نفسي, لم أتنبه إلى أنني أهملت العناية بذاتي للحد الذي غيَّر قليلاً من ملامحي، الكل لاحظ عدم اهتمامي بهندامي الذي نخر فيه الإهمال اللافت.

هل انتابتني نوبة زهد؟ لماذا لا أخالط الناس؟ لماذا لا أرتاد بعض المنتزهات المنتشرة على ضفتي النيل وأسير بين الجموع لعلي أنال قسطًا مما فقدته من وسائل التسلية والترويح عن النفس ولكي أبدد شيئًا من الوقت؟ لم لا أعاود الذهاب إلى هناك؟

لماذا لا أذهب إلى تلك الأماكن التي كنا نرتادها من قبل، هل كنت أخشى المرور بقربها خوفًا من أن يعرض أمام ناظري شريط أحداث ذكرياتي معها.

الواقع المرير الذي أعيشه والذكريات الماضية التي باتت تتعقبني بعناد ألقت بي أمام أحد المطاعم التي كنا في بعض الليالي نرتادها

لتناول طعام العشاء فيها.

حال جلوسي على أحد المقاعد وقف النادل قبالتي ممسكًا بإحدى يديه قلمًا وبالأخرى ورقة. قبل أن أطلب شيئًا بادرني القول: أين المدام والأولاد؟

كمن وخزني مسمار من على مقعدي وبدون إرادتي انتفضت واقفًا وقلت له: لقد سبقتني إلى هناك.

همست في داخلي: سوف ألحق بها في يوم من الأيام.

تركت مقعدي وسرت بخطى متلاحقة وكأنني نسيتها في مكان ما ونبهني بعدم وجودها معي وأنا ذاهب الآن لإحضارها.

بعد أن بعدت عنه قليلاً التفت إليه، ما زال واقفًا في مكانه ينظر إليَّ وهو ممسك القلم والورقة في وضع من يريد أن يدون شيئًا ما، تبعني بنظراته إليَّ إلا أن تواريت من أمامه.

حتى أنت لم ترحمني يا هذا.

انقضى عام بأكمله وأنا على هذا النسق من العيش، إلى متى أظل مستسلمًا للاعتكاف القهري؟

بعد أن كنت قد ذقت حلاوة ورغد العيش الأسري عدت ثانية إلى سابق عهدي في مكابدة مرارة تناول أكل المطاعم، أقف على بعد من تلك التي كنا نرتادها وأهرب بابتعادي عنها وكأن شبحها يطاردني.

عندما نظرت إلى المرآة بتمعن شديد أصبت بصدمة، لم أنظر إليها بشيء من التمعن منذ زمن، هجرت عادة الوقوف أمامها عند خروجي ودخولي، ماذا يفيدني النظر إليها وأنا لست في حاجة إلى العناية بملامحي وإصلاح هندامي بعد رحيلها.

خلال عام واحد ظلال الذبول الشاحب لاحت آثاره الطفيفة على ملامحي وخطوط أخاديد لا ترى إلا بتمعن شديد رسمت معالمهاعلى تقاسيم وجهى، عندها تذكرت قول العم فتحي عندما كنت أترددعليهم:

هل هجرت الطعام يا صالح؟ عليك العناية بصحتك، حتى السيدة نادية كانت تلح عليَّ وتدعوني بين وقت وآخر إلى تناول طعام الغداء معهم، وبحنو لافت تقول لي: ألا يعجبك طهوي؟ هل أكل المطاعم أطيب من أكلنا؟ يا ابني هذه دارك وأنا بمثابة والدتك.

كانت تدق على جرس الإهمال الذي انتابني، كنت أسوق لها المبررات والأعذار.

تنبهت الآن أنهم كانوا يشيرون إلى العلة دون لمسها مخافة جرحي.

هم رصدوا حالتي ولم أدرك أنني قد ألقيت بنفسي منذ رحيلها في حضن الإهمال واليأس ولم أرتضي وأسلم بالواقع، حتى أيمن ذلك الفتى الطيب كنت أرقب نظراته المشفقة وكانت كلماته الصامتة تصلني من خلالها.

بقامته المنتصبة فوجئت بوقوفه أمامى، أنه السيد عبد الغفار الرجل العسكري الذي لم تقوَ الأعوام المنصرمة من عمره أن تقوض من هامته.

بعد أن أنتصبت واقفًا لمصافحته: لم تتوقع قدومي، هذا ما قرأته في نظراتك، أليس كذلك؟

- فعلاً لم أكن أتوقع منك هذه الإطلالة، زدتني شرفًا بتفضلك الحضور إلى متجرنا.

بعد أن رشف آخر قطرة في فنجان القهوة، وقف ومشى خطوات وكأنه يهم بمغادرة المحل، وهو يجول ببصره على محتوياته ودون أن ينظر إليَّ:

بكلمات حانية وهادئة: أرجو أن لا تصدمك كلماتي، نحن نرقبك منذ أن توفاها الله، يحزننا ما أنت فيه، الكل ينظر إليك نظرة الأب إلى ابنه نسعى لأن نفسخ عن كاهلك ثياب اليأس والاستسلام.

- هل لا زلت منتظرًا عودتها يا صالح؟

نظرت إليه كمن يستعطفه أن لا يكمل، قسوة السؤال المباغت بدت واضحة على ملامحي، ارتعشت شفتاي ولم أقوَ على الرد عليه، دون أن يمنحني الوقت لإجابته بادرني القول: هذه حال الدنيا يا ابني لسنا مخيرين لا يوجد أمامنا خيار سوى الاستسلام للقدر، لو كان الخيار بيدي لكنت تشبثت بزوجتي الأولى حتى نهاية العمر والتي تركتني

ولم تكمل سنتها الأولى برفقتي وكنت وقتها متعلقًا بها أشد التعلق.

- اخرج من حزنك، استقبل الدنيا وواجهها بعناد ولا تدعها تدير لك ظهرها ولا تستسلم لها وصارعها قبل أن تطأك وتلقي بك في حفرة اليأس، لقد مررت بأكثر مما أنت فيه حتى أنني ظننت أن الحياة انتهت برحيلها وأن الأيام فقدت حلاوتها.

كنت وقتها خافضًا رأسي وأنا منصت لكلماته التي صفعت أذني، عاد بضع خطوات واقترب مني وأكمل، نحن نلمس جراحك، الدنيا جميلة إن أنت نظرت إليها بمنظار غير الذي ما زلت قابضًا عليه وتنظر من خلاله على البقع السوداء، هناك أشياء جميلة لا تغفل من رؤيتها، الشمس لا زالت تشرق صباح كل يوم وتشيع بنورها على الأرض يا صالح. مجريات حياتنا لا تتوقف عند امرأة واحدة لم يكتب لنا العيش معها حتى بقية العمر، عاود التفكير فيما قلته لك. لا تنس لا تنس.

قالها بعد أن أدار لي ظهره، لم ينظر إليَّ ولم ينتظر إجابتي، تركني وسار بخطوات عسكرية منضبطة.

تبعته إلى خارج المحل، تسمرت في وقفتي حتى توارى واحتوته أزقة الحسين، لا أخفي أنني حين رأيته قرأت في وجهه شيئًا وبأنه لم يأت من فراغ، على الرغم من أنه من غير المفرطين في تعابير وجوههم، كلمني بهدوء ولكن بطريقة حاسمة.

لا زالت كلماته ترن في أذني. هل لا زلت منتظرًا عودتها يا صالح؟

خلصت إلى أنهم يريدون أن يدفعوا بي إلى الاقتران بأخرى، هم يمتلكون بعد نظر لا أرقى إلى فهمه وإدراكه لضآلة تجاربي مقارنة بهم.

بعد أن نهلت من شهد الحياة الزوجية قد يكون خوف العم فتحي عليَّ من أن أرتمي في أحضان الرذيلة ويتلطخ ثوبهم برذاذ سوءاتى بعد أن انتسبت إليهم واختلطت دماء أبنائي بدمائهم إلى جانب خوفهم من تأرجح معايير تعاملاتي المستقبلية معهم.

وللخروج من نفق الترمل لا يوجد أمامي خيارات أخرى سوى الاقتران بأخرى لتصونني ونتكاتف معًا للعناية بفاطمة ومنير.

أعرف تمامًا أن السيد عبد الغفار بطبيعته وترفعه لا يدس أنفه فيما لا يعنيه، هو كان مدفوعًا من قبل العم فتحي الذي لم يقوَ على إلقاء مثل هذه الكلمات على مسمعي خوفًا من ذهاب ظنوني إلى مواقع أخرى بحكم ارتباطنا الأسري.

قبل أن أقدم على أي خطوة عليَّ الخروج أولاً من بين محيط الشقة التي طبعت على غرفها وجدارها ومحتوياتها رسوم معالم ذكرى أيام جميلة ولَّت.

بعد رحيل لبنى من عالمي بدت كئيبة وموحشة وبت أتحاشى

المكوث فيها طويلاً، أقضي معظم أوقاتي خارجها هربًا منها وكأن العفاريت تسكنها، عليَّ أن أبدأ البحث عن مسكن آخر في حي آخر وابتعد حتى عن الشوارع المحيطة بها.

البحث عن شقة أخرى قد يتطلب مني بذل جهد ووقت، وإن أتت هذه الفكرة متأخرة فقد أضحت ملزمة.

في صباح هذا اليوم بعد انقضاء قرابة أسبوع واحد من زيارة السيد عبد الغفار، أرسل العم مصطفى في طلبي.

بعد أن جلست قبالته : قيل لي بأن السيد عبد الغفار قد التقى بك قبل عدة أيام وبأنه قدم النصح إليك للخروج بك مما أنت فيه من الانطواء واليأس، وكأن الطرح كان بعيدًا عنه، أراه محقًا فيما أرتآه ونحن نؤيده في ذلك، ولكن ما هو رأيك أنت.هل فكرت في الأمر؟

- لقد بدأت في البحث عن شقة أخرى كخطوة أولى نحو تغيير نمط عيشي الذي استجد أنها مسألة وقت، أنا لا أشك لحظة في أنكم تسعون دائمًا إلى احتوائي والبحث عن سبل سعادتي وتقديمكم النصح لي.
- أنت محق فيما ذهبت إليه يا بني، كان الله في عونك، نحن نعيش معاناتك، لم نبتعد عنك ولم تغب عن أنظارنا لحظة وقلوبنا معك.

وقتها هزني شعور بأنني لست وحدي في هذا العالم وأن بين يدى

ينبوع حنان أغترف منه، وتوجد الكتف التي أسند رأسي عليها عندما يتملكني الإحباط.

عدت بعدما وضحت الصور ولاحت الشواهد أمامي وتأكد لي أنهم كانوا قد أعدوا وسبكوا الطبخه، وتأكد لي بأن للعم فتحي اليد الطولى في إلقاء الضوء على هذا الطرح وهم بدورهم قاموا بجس نبضى تباعًا.

هند

كعادتى التي درجت عليها أزورهم بين يوم وآخر ولكن هذه الزيارة تحديدًا أتت بناء على تلبية لدعوة مسبقة منهم لتناول طعام الغذاء بمناسبة قدوم ابنهم الوحيد من مدينة الإسكندرية.

في هذا اليوم التقيت ببعض من أقربائهم من الذين لم أكن قد رأيتهم من قبل، كان عدد المدعوين محدودًا.

لم يسبق لي رؤية هند ولم ألتقيها من قبل، علمت بأنها ابنة خالة لبنى، خلال وجودي بينهم كانت طيلة الوقت ملتصقة بابنتي، شدت انتباهي وتعلق نظري بها، اقتربت منها وتحدثت معها قليلاً كانت تتحدث بكل الود مع الكل مما جعل فاطمة تتبعها وهي ممسكة بيدها أينما ذهبت وكأنها على معرفة بها من قبل.

أجبرتني على متابعة تحركاتها، كانت بصحبة والديها قدموا من مدينة تقع في أقصى صعيد مصر والتي تبعد كثيرًا عن مدينة القاهرة حيث يعمل والدها، قدموا لتقديم واجب العزاء الذي أتى متأخرًا لأكثر من عدة شهور نظرًا إلى ظروف والدها الوظيفية.

من خلال زياراتي المتعددة لهم لفت انتباهي شدة اهتمامها بابنتي فاطمة ومنير، علمت أنه سبق لها الزواج من قبل وانفصلت عن زوجها منذ ما يقرب من عام واحد ولم ترزق منه بأطفال لفترة

زواج استمرت لخمس سنوات.

ما يميزها كثيرًا عن الأخريات اللاتي التقيت بهن مصادفة خلال زياراتي المتعددة لهم هو أنها شديدة الاهتمام بفاطمة ومنير مما جعلني أقترب منها كثيرًا.

عندما كنت أعود وأختلي بنفسي كانت صورتها تأخذ جزءًا من وقتي وأستعيد كلماتها معي.

شدة الجذب التي تطلقها في تعاملاتها معي ومع طفليَّ حرك الساكن الكامن في داخلي وذلك خلال أيام قلائل.

أتمنى أن لا تكون نزوة طائشة، ظهورها ليس عابرًا كغيرها، هي استوقفتني عندها.

لا شك في أن الجرعات المنشطة التي حقنت بها من السيدين عبد الغفار والعم مصطفى قد نبهت سلوكياتي الغريزية وحركت لديَّ عامل الاندفاع والركض وراء أول واحدة ألتقيها وكأنني كنت مكبلاً ومعصوب العينين من قبل.

أولوياتي بالجمال الجسدى لشريكة حياتي لم يكن له مكان في اهتماماتي قبل رؤيتها، كانت قفزاتي قد خبت بعد رحيل لبنى.

أعتقد أن أهم العوامل التي دفعتنى إلى الأقتراب منها هو حاجتى الآنية والمستقبلية لمن تهتم بأطفالي وترعى شؤونهم وتحتضنني.

أعرف تمامًا أن طفليَّ لن يبقيا لأمد طويل في دار العم فتحي ولا

مفر من أنهما سوف يعودان إلى حضني ويعيشان في كنفي ويستظلان تحت مظلتي في يوم من الأيام.

بحكم وجودها في دار خالتها فتحت لي قنوات التقائي بها، انفردت بها مرات عدة، اقتربت منها كثيرًا، كانت تصحبنا بحجة مساعدتي في العناية بطفليَّ عند خروجي بهما إلى أماكن لهوهما.

بطبيعة الأطفال الحديثي السن لاحظت أنهما استأنسا وتعلقا بها وكانا يصران على أن تكون بصحبتنا إلى أي مكان نذهب إليه وذلك لشدة العناية بهما في تلك الأماكن ولرقة تعاملاتها معهما فرضت نفسها عليهما.

من خلال هذه الانفرادات المتعددة بها ولأنها باتت تهمني، جاهدت لإلقاء الضوء على جوانبها الإنسانية والحياتية، ولكن نظرًا إلى قصر المدة لم أتمكن من الاطلاع على الخافي في جوفها.

أكثر ما شدني إليها سحر عذوبة لفظها ورقة تعاملاتها مع الكل، ولا أخفي بأن تضاريس جسمها في الآونة الأخيرة أحدث لديَّ جدلاً.

من خلال احتكاكي بها كنت أبحث عن أوجه الشبه بينها وبين لبنى، خلصت بأنه لا وجه للمقارنة بين إنسانة وأخرى؛ كل واحدة تختلف عن غيرها، لكل أنثى شذاها وتجلياتها.

بطبيعة الحال اكتشفت بعضًا من إيجابياتها علمًا بأن لا أحد منا مجرد من السلبيات والتي سوف تطفو- عادة- على السطح لكلينا

بمرور الوقت إن أستمر تلازمنا.

وكغيرنا من البشر، كان كل منا يتحلى بالرقة في تعاملاته ويلقي بالورود أمام الآخر كأحد أوجه الجذب الغريزي الذي قد يصل أحيانًا إلى قمة المبالغة.

أعرف أن صورتها ناقصة ولم تكتمل معالمها بعد ولا يمكنني الحكم عليها من خلال تعاملاتها. وللإنصاف هناك مساحات بيضاء تحوطها يجب إلقاء الضوء عليها، على الرغم من تخطيها الثلاثين من العمر بدت لي أكثر حيوية عن مثيلاتها، كنت أرصد تحركاتها باهتمام بالغ، كانت لا تستقر في مكان واحد لأكثر من دقائق معدودة، عندما تمشي يخيل إلى الناظر إليها كأنها تقفز في مشيتها، متقشفة إلى حد كبير في ملبسها وكأنها في السنوات الأولى من عمر مراهقتها، ما ترتديه يثير عندي مكامن الحواس ويقوي الجذب، فكيف بالآخرين؟!

لم أقوَ على الصبر، ذات مرة قلت لها: كيف تسمحين للرائي أن يتلصص ويستمتع بالنظر إلى مفرق النهدين؟ رمقتني بنظرة وبدا على وجهها ملمح سرور وقبول، لم تعترض، فقط نظرت إليَّ وأمالت برأسها إلى الأرض، أعرف بأن هذا ليس من حقي وليس لي سلطان عليها، هل بدأت أغار عليها؟

لا أشك في أن هذه هي عادتها، هي قطعًا تتصرف على طبيعتها

التي اعتادت عليها من قبل.

لاحظت أن لديها ميزة المقدرة على تكوين صداقات مع من تلتقيهم للمرة الأولى خلال دقائق.

أقترب منها أحيانًا وألتصق بها عنوة عندما كنت أرى شفتيها تتحركان، أرهف السمع إليها، أسمعها تردد إحدى أغنيات أم كلثوم الطربية، أطرق سمعي لكي ألتقط شدوها الناغم، نبرات صوتها ذات صدى جميل وبحة أنثوية مثيرة. لديَّ أحساس بأن في جوفها شجنًا وأنينًا مكبوتًا قابضة عليه داخل أضلعها.

في إحدى المرات أجلست ابنتي في حجرها ووضعت خدها على رأسها سمعتها بعذوبة وحنان لافتين تشدو بإحدى أغنيات الأطفال.

عادة تحركاتها وقفزاتها المحببة لدى الأطفال قد تبدو غريبة عليَّ بعض الشيء، ولكنها سر تعلق فاطمة ومنير الشديد بها، الأطفال عادة يشدهم من يقترب منهم أكثر من غيرهم، جمالها يقترب من حد القبول، بدا لي أنها مسلية أكثر من أي شيء آخر، أشد ما أخشاه أن تكون هذه السمات التي تتصف بها مقترنة بعدم اهتمامها بالطقوس الأسرية الملزمة ويكون اهتمامها منصبًا فقط نحو لهوها، أخشى أن تجرني إلى معاناة من نوع آخر لم أعهده من قبل.

أعرف أن الأعين مسلطة على تحركاتنا، الضوء الأخضر أشاعته خالتها السيدة نادية وأمها السيدة اعتماد، كانتا ترقباننا والبسمة تعلو

شفاههما وكأنهما تدفعان بنا لاستكمال مسيرة ارتباطنا.

بالرجوع إلى أم لبنى أميل إلى الاعتقاد بأنها تطبق المثل القائل: الذي تعرفه أحسن من الذي لا تعرفه، بناءً على حتمية أنني في يوم من الأيام لا بد أن أقترن بإحداهن.

الآن تكشفت لديَّ الصور ووضحت الرؤيا من بعد أن انتحت بي السيدة نادية جانبًا وهمست في أذني: نحن لسنا بعيدين عنكم، إن أردت يا ابني أن تقترب من هند فليكن بترو وأن لا تتسرع في الحكم عليها وكما تعرف هي ابنة أختي وشهادتي فيها مجروحة، ولا تسألني عن أي شيء آخر عنها مستقبلاً.

لم تزد على هذه الكلمات ولاذت بالصمت بعد أن تلألأت قطرات دموع حاولت حجبها عني، كيف لا وهي أم من فقدناها معًا؟!

خلعتُ ثياب القنوط ولبستُ رداء العيش ودبت في روحي نسمات الحياة التي حرمت نفسي من نفحاتها منذ أن رحلت لبنى. استرجعت الكلمات التي قالها لي السيد عبد الغفار: استقبل الدنيا وواجهها بعناد ولا تجعلها تدير لك ظهرها.

كنت ركبت موجة الوهم وظننت أن عجلة دوران الحياة قد توقفت بعد موت لبنى، فبعد موتها فقدت الإحساس بمرور الوقت، للحقيقة هي تستحق التوقف من بعدها فترة من الزمن، ولكن ليس كله، عليَّ أن أجاهد بقطع الأشواك بيد وبالأخرى أنثر الورود.

تدفق الدم المحفز في عروقي وانتابتني نوبة حيوية وانفتاح على الحياة وأسرعت الخطى في البحث عن شقة غير التي أقطنها، أعرف بأن أمامي الكثير مما سوف أعمله.

خلال أيام قلائل وفقت في اقتناء شقة جميلة تنظر بلكونتها الواسعة على نهر النيل مباشرة في حي الزمالك الذي يعد أحد الأحياء الراقية والذي يتسم بالهدوء، وعلى غير المألوف في غضون أيام قلائل تسارعت خطوات تأثيثها.

لخلو الشقة من العنصر النسائي خلت من أرفف مقتنيات الزينة التي عادة تلتصق بجدار غرفها ومن الصور المعلقة التي كانت تطغى على سابقتها إلا من بعض صور فاطمة ومنير المنفردة.

المرآة الكبيرة التي كانت تنتصب واقفة عند مدخل الشقة السابقة لم يعد لها وجود هنا لانعدام إطلالة الحرائر المهتمات بهندامهن عند دخولهن وخروجهن وانعدام أسباب تسليطي النظر إليها بين وقت وآخر.

ذكرت لي بأنهم قد قرروا العودة إلى تلك المدينه التي يعيشوا فيها، فترة وجودها كانت تشغل جزء من تفكيرى وأعرف بأنها في يوم ما سترحل حينئذ سوف ينتابنى هم وأنكسار وكأنني عاشرتها لسنوات وليست علاقتى بها وليدة شهرين، عند وداعها كان لدى أحساس بأن فراقنا هذا قد لا يطول وبأن التقاءنا ثانية ليس ببعيد.

شكرت هند على حسن رعايتها واهتمامها بطفليَّ، ولدى مغادرتي رافقتنى حتى باب الدار ولم تنس أن تدس في يدي رقم هاتفها المنزلي بناءً على طلبي الصامت الذي جاء وفقًا لرغبتها التي لمستها صريحة ملحة منها.

بعد مغادرتها بصحبة أهلها سارت بي الحياة عادية خالية من كل ما يهز النفوس وذاب مصدر الأمل.

****

لم يعد الهدوء يريحني ويروق لي، لقد تعودت على الارتماء في أحضان الأماكن الصاخبة، لقد اعتدت على هذا النمط من العيش، أرجع أسبابه إلى وجودي طيلة النهار في وسط الأجواء العالية الأصوات المنطلقة من حناجر بعض المتسوقين والباعة الجائلين.

عندما أعود مساء كل يوم لا أقوى على الجلوس في الشقة ولو لدقائق قليلة، المكان تصطف على جانبيه عمائر يخيل للناظر إليها أنها خالية من السكان للصمت الذي يكتنفها، وحتى نهر النيل الذي ينساب بهدوء كنت عندما أنظر إليه يخيل إليَّ وكأنه هو الآخر متوقف عن الجريان.

بعد عودتي مباشرة أستبدل ملابسي وأخرج إلى الشارع الخالي وأسرع الخطى لأبتعد عن السكون الذي يخيم على هذا الحي والذي لم تلحقه الضوضاء بعد.

أبحث عن الأماكن التي تعج بكم من البشر لأندس بينهم وأسير بين خليط من الناس، أسير متمهلاً أرقب بعثرة الخلق الساعين إلى طلب لقمة عيشهم، أحيانًا أسلي النفس بالجلوس في أحد المقاهي، وفي أوقات أخرى ألتحم بجموع المتنزهين على ضفة النهر وأسير حتى اقتراب ساعة نومي.

حتى عادة القراءة اليومية التي كنت شغوفًا بها وكانت ملازمة لي منذ الصغر والتي كانت مصدر ثقافتي هجرتها، لم أجد الصفاء لممارسة أحب هواياتي.

في كل يوم أسرق بعض الوقت وأذهب إلى دار العم فتحي للاطمئنان على سير حياة ورؤية ابنتي وابني. اطمأن قلبي إلى ارتقاء سبل تمضية وقتهما بعد أن اتسعت رقعة العناية بهما من بعد التحاقهما بإحدى المدارس الأهلية المتميزة التي تولي الطفل العناية الفائقة.

بعد انقضاء يوم واحد من وقت مغادرة هند مدينة القاهرة برفقة ذويها تلقيت أولى مكالماتها الهاتفية ولم تدم سوى دقائق معدودة اقتصرت على سؤالها عن ابنتي فاطمة وابني منير ولم يكن لدينا ما نقوله.

بتعاقب الأيام أخذت رقعة مساحة تواصل الحديث بيني وبين هند في الاتساع وفي ازدياد مضطرد إلى أن أخذت الطابع اليومي الملزم

من كلينا وتنوعت مفردات حواراتنا وأخذت منحى مغايرًا عن ذي قبل.

الحميمية أطلت برأسها علينا، نتجاذب أطراف الحديث في مواضيع شتى، ظروفنا الحياتية متشابهة إلى حد ما، الأمواج قذفت بكلينا في وقت مبكر من العمر إلى شاطئ العزوبية والترمل، هناك أشياء جميلة في داخلنا يجب علينا أن لا ندفنها.

رأيتها متوسطة الجمال. ولكن بمرور الأيام وبطبيعة النفس البشرية الإلحاح الجسدي لديَّ كبر، إلى جانب حاجتي الماسة إلى امرأة مسلية كثيرة الكلام إلى حد مقبول تنسيني كل ما مررت به، لا إلى امرأة تعيدني إلى أيام صمت فيها كثيرًا.

ربما أكون واهمًا في تقدير مدى اهتمامها بطفليَّ وبي، وقد ألقي باللائمة على الوهم لاحقًا إن كنت أخطأت التقدير، وأكون كمن حمل بيده جذوة لتنير طريقه وفي النهاية تلسعه وتكون لسعتها هذه النوبة أشد إيلامًا عن سابقتها.

عمومًا الصورة لا تبدو قاتمة؛ لماذا إذن أنسبها إلى هذا اللون وأستبق الأحداث؟

ابنتي التي تخطت السادسة من عمرها لم تعد صغيرة، بدأت تشعرني بوجودها، لم تفاجئني بسؤالها عن سبب موت أمها، ذكرت لها الأسباب التي أدت إلى موتها، وهي تنصت إليَّ كنت أرقب بعناية

تعابير وجهها، تحركاتها هي وأخيها، بدأت تكبر كلما كبروا، أرقب بعناية حالتهما النفسية. ذات يوم سألتني إن كانت هند سوف تكون أمًا لهما وأين هي الآن، اختنقت كلماتي وقلت لها بأنها سوف تأتي قريبًا.

دموعهما توقظ لديَّ حاسة العطف عليهما وتسحبني إلى الحنين إلى تلك الأيام التي كانت لبنى موجودة بيننا، لماذا لم تمكث طويلاً معنا؟ لم أكن أتخيل وقتها أن رحلتها معنا سوف تكون قصيرة. (لله في خلقه شؤون).

أكثر من عشر سنوات ولت منذ أن غادرت مدينة الطائف، جلست وحيدًا أقيم وأسترجع كل ما مر بي في هذه المدينة، أرقب مغيب الشمس في كازينو قصر النيل، نفس المكان الذي جلست فيه للمرة الأولى وقت أن قدمت إلى هذه المدينة.

مر شريط الأحداث أمام عيني وأنا أرقب انسياب هذا النهر الذي لم ولن تتبدل وجهته، التقلبات الحادثة التي تجري على طول ضفتيه بين سائر البشر لن توقف جريانه وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تذكرت صديقي سامي، أين هو؟ لقد اختفى فجأة لم أره منذ ليلة زفافي من لبنى، نسيته في خضم توالي المنغصات والمبهجات، لا بد من أنه قريب، ولكن أين؟ قد ألتمس له العذر إذا قدر لي أن ألتقيه ثانية.

متعلق بصواري سفينة الأمل التي لا بد أن ترسو بقربي في يوم من الأيام وتبحر بي إلى المجهول وتكون محملة بجديد.

سرت قليلاً، لم تقوَ نفسي على تحمل رؤية الأطفال وهم ممسكون بأيدي أبويهما وآخرين يلهون ويقفزون أمامهم.

منظر خدش عيني، شعرت بسقوط عبرة كانت متعلقة بها، عليَّ أن أعود سريعًا، جرح العين يؤلمني، أحسست بنزف في داخلي.

كانت الأيام تمضي على وتيرة متشابهة وليس هناك جديد، مر عام واحد على مغادرة هند ولم تنقطع اتصلاتنا، ألمحت لي في محادثتها الأخيرة عن نيتها القدوم إلى مدينة القاهرة، ذكرت لي بأن الهدف من قدومها البحث عن عمل يشغلها وبأنها قررت المكوث في مدينة القاهرة بدلاً من ملازمتها لوالديها دون شاغل يشغلها في مدينة صغيرة تنعدم فيها فرص الوظائف النسائية وهي التي قد نالت شهادة ليسانس الحقوق منذ عدة أعوام.

عودة هند

انتظرت قدومها بلهفة وشوق، لم أشعر باهتمامي بها إلى هذه الدرجة من قبل.

ذكرت لي إنها سوف تقيم بطبيعة الحال عند خالتها الوحيدة السيدة نادية.

استقبلتني ابنتي على عتبة باب الدار وكأنها كانت منتظرة قدومي في تلك اللحظة لتزف إليَّ بشرى عودة هند، كانت فرحة ابني وابنتي لا توصف.

أول شيء لفت انتباهي عندما وقع نظري على فاطمة تسريحة شعرها التي تعودت هند أن تسبغها عليها، لقد وضعت بصماتها المميزة عليها، لا تغيب عن ناظري مشاهد كنت رأيتها من قبل، كنت ألمح فاطمة بين آونة وأخرى تمرر يدها على رأسها برفق كي تطمئن بأن شعرها ما زال محتفظًا بحالته التي مرت أنامل هند عليها.

قيل لي بعد عدة أيام من قدومها إنها تصطحب ابني وابنتي إلى الحدائق المجاورة للترفيه عنهما وبأنها دائمة الجلوس معهما لتسليتهما واستذكار دروسهما مما أزاح عن كاهل السيدة نادية بعضًا من ثقل هموم العناية بالصغيرين.

وجودها الدائم بقربهما سوف يزيدهما التصاقًا بها وسيكبر مع مرور الأيام، ولكن ماذا بعد؟ تركت كمًا من الأسئلة معلقة لم أتمكن من الإجابة عليها، هل أترك الأمور تمضي كما هي عليه الآن وتتضخم وأقف صامتًا وأسلم بالأمر في انتظار ما تفعله بنا الأيام القادمة؟

ماذا لو أن القدر ساق في طريقي الذي لم تتضح لي معالمه المستقبلية بمن أميل إليها من بعد أن تكون ابنتي وابني قد تعلقا بهند أشد التعلق وأنا الذي لا أريد أن تعصف بطفولتهما انتكاسة أخرى من بعد أن تكون قد عوضتهما جزءًا من الحنان الذي افتقداه. ماذا لو كانت هند ترتدي قناعًا آخر غير الذي تتقنع به أمامنا؟

عند زيارتي الأخيرة لهم للمرة الثانية تلحق بي ابنتي فاطمة وأنا على عتبة باب الدار تتعلق بي وتتوسل إليَّ بأن أكون برفقتهما عند خروجهما للتنزه وأرتياد أماكن لهوهما.

وعدتها بأنني سوف أصحبهما في المرات القادمة؛ عليَّ أن ألبي رغبتها حتى لا أدعها تتوسل إليَّ ثانية، ولكي أزيد من مساحة الفرح لديها وأمنحها الجرأة في مطالبتها بحقوقها وأعطيها إحساسًا بأنها لم تعد صغيرة.

السيدة نادية ليست بمنأى عما يجرى تحت بصرها ويدور في محيطها، حتمًا هي تترقب نتيجة ما تتمخض عنه الحميمية التي تدور

بيننا. لم تغب عن بالي الكلمات التي قالتها لي: إن أردت أن تقترب من هند فليكن بتروٍ ولا تكن متسرعًا في اتخاذ قراراتك.

ربما هي بهذا تبعد عني فكرة استشارتها فيما بعد، وكأنها تقول لي لا تسألني عن تركيبتها كونها ابنة أختها.

أنا على يقين من أنها سوف تكون أول من يبارك لي زواجي من ابنة أختها أملاً منها بأن هند سوف تكون رهن إشارتها فيما بعد لصلة القرابة التي تربطها بها وضمانًا في وجود أحفادها بقربها.

افتراضية قريبة من الواقع كما أتصورها.

ولكن ماذا عن العم مصطفى؟ هل هو في وادٍ وأنا في وادٍ آخر؟

سوف أجد النصح والرأي السديد لديه إن أطلعته تفصيليًا على كل ما يجري، لا يمكنني تحييده وتغييبه عن أي خطوة أقدم على تنفيذها.

زرته في داره بناء على علمى بأنه قد تغيب عن الحضور لمتجره ليومين إثر وعكة طارئة ألمت به, ألمحت إليه بالحادث بينى وبين هند, لم يكن بعيدًا عن ما كان يدور في دار العم فتحي, وكما توقعت لم تفاجئه كلماتي، وبدأ حديثه بقوله: لقد كنت مترقبًا اليوم الذي سوف تأتي إليَّ وتطلب مشورتي، إن كنت منتظرًا مني أن أدلو بدلوي في موضوع زواجك منها فأنا أقول لك بأن هناك اختلافًا بينًا عن سابقتها ولا وجه للشبه بين ظروف زواجك من هند وزواجك من لبنى.

- أنا لا أملك أي خلفية عنها سوى أنها ابنة خالة لبنى ولا أعرف

عنها أكثر من هذا.

وأكمل: قبل عدة أيام تطرقنا إلى هذا الموضوع أنا وأم سامية من بعد زيارتها لهم والتي من خلال تلك الزيارة ألقت السيدة نادية الضوء على الحاصل بينك وبين هند، أرادت من وراء ذلك جس نبضنا بحكم قربك منا واهتمامنا بأحوالك المعيشية علّنا نحن بدورنا نلقي بعض الحصوات لتحريك بركة المياه التي استلقيت فوقها واستسغت طعم الشهد الذي أخذت في لعقه منذ ستة أشهر ولم تبادر إلى فعل شيء.

وعلى رأي أم سامية: هم يريدون أن يعرفوا رأسهم من أرجلهم. ومن العبث إبداء رأينا: أنت من يقرر وأنت من يكون قد تكشفت له بعض من جوانبها الإيجابية والسلبية بناء على معايشتك لها واحتكاكك بها كل هذه المدة. وأنت يا صالح لا تترك الأمور تمضي على هذه الوتيرة من الغموض والإطالة، لا تنس أن الأنظار المعنية مسلطة عليكما، وأمها تسعى إلى تزويجها بدلاً من ترملها وهي ما زالت في مقتبل العمر، وأنت يا صالح أثمن طريدة صوبوا سهامهم عليها. أنا لا ألومهم إن هم رؤوا أن زواجك منها يصب في مصلحتهم من الجانب المعنوي آخذين في الاعتبار بأنك لا بد وأن تقترن بأخرى إن عاجلاً أم آجلاً، هم استعملوا لغة العقل وأنا أرى بأن الصواب جانبهم.

قلت له: يا عم مصطفى أنا في حيرة شديدة منذ فترة وأنا كالواقف

في منتصف السلم، بالله عليك دلني، الأمر لا يهمني وحدي، هناك طفلان متعلقان برقبتي يجب على أن أنظر إلى قادم الأيام، ليتني أعرف ما يخبئه القدر لهذين الصغيرين، أخشى عليهما الوقوع تحت يد لا ترحمهما وأنت أول العارفين بأن عملي يحتم عليَّ قضاء نهاري كله بعيدًا عنهما، لقد تجرعا في هذه السن المبكرة من العمر آلام الحرمان وافتقروا إلى عطف وحنان الأم. بصراحة أنا لا أركن إلى شدة تعلق فاطمة ومنير بها، وكما تعرف الصغار عادة بحكم حداثة سنهم وفطرتهم المحبة للهو يلتصقون ويجرون وراء من يقترب منهم ويلبي رغباتهم.

أمسك يدي بحنو وقال لي: يا صالح الأيام تمضي، يجب عليك أن تحسم أمرك من دون تباطوء، إن الله وضع بين يديك من تهتم بأمور طفليك، دع الخلق للخالق واشكر ربك. انس كل الذي مضى إن الشيطان يذكر الإنسان بالمفقود لكي ينسيه الشكر على الموجود.

كانت هذه هي آخر كلمات تفوَّه بها وهي تعني الكثير. أعرف بأنه لا ينطق من فراغ.

ودعتهم وخرجت من عندهم وأنا أشعر بقرصة الأذن التي أراد أن يوقظني بها.

لو أننا نملك موهبة كشف أغوار مستقبلنا لتغيرت مجريات حياتنا ولكنا وجهنا بوصلتها إلى الاتجاهات التي نبغيها.

إلى متى أراوح مكاني؟ التريث والتلكؤ في اتخاذ القرار لن يأتي لي بالنفع ولأنها أصبحت كالمرآة أمامي لا أرى سواها داخل محيطي، ولعدة فرضيات مقنعة عليَّ أن أبادر بطلبها للزواج.

كعادتنا كنا نمضي الوقت ونتسلى بشرب الشاي ونتجاذب الأحاديث في المقهى الذي يطل على نهر النيل الذي اعتدنا الجلوس فيه عصر كل يوم جمعة وكانت فاطمة ومنير يلهوان كعادتهما بالقرب منا. كانت ساعة صفاء وكان وجهها مشرقًا، ألقت إليَّ ببعض النكات المرحة، في تلك اللحظه لمعت في ذهنى فكرة طلبى الزواج منها، إذن هذه هي ساعة القطاف، ألق شباكك يا فتى ولا تدع هذه الفرصة السانحة تضيع.

بعد أن كنت قد ترددت لعدد من المرات في الأيام التي سبقت، انتفضت ووقفت بعد أن كنت جالسًا بقربها وأدرت لها وجهي ونظرت إليها مبتسمًا ابتسامة عريضة وهي لا تزال جالسة وتهيأت وكأنني أنوي إلقاء خطبة في جمع من الناس.

من دون مقدمات قلت لها: هل توافقين على الزواج مني؟

موقف أقفه للمرة الأولى في حياتي، كنت وقتها أنظر إلى فمها منتظرًا خروج الكلمات المرحبة، كنت منتظرًا منها أن تقفز من مكانها ونحن بين هذه الجموع التي يغص بها هذا المكان، وهي مسلطة نظرها بعيدًا ردت ببرود وكأن الأمر لا يخصها، بما أنك

تنوي الزواج مني عليك التقدم إلى والدي قبل كل شيء كما تقتضيه الأعراف، وكأنها تقول لي احصل على موافقته أولاً وبعد ذلك سوف أفكر وأمنحك رأيي.

كما لو أنها كانت على يقين تام بأنني حتمًا سوف أقدم على طلبي هذا، لم تهزها كلماتي. ردها اللا مبالي لم يكن في الحسبان، وكأنها ألقت عليَّ بماء بارد، ابتعدت عنها قليلاً من بعد أن شعرت بشيء من الإذلال المحبط وكأنها تريد أن تقول لي لم يكن قد خطر على بالي هذا الأمر من قبل، مرت بنا فترة صمت ولم يجد أحدنا فيها ما يقول.

فكرت في الأمر مليًا، كان ردها لا يشير إلى الرفض أو القبول، قد تكون عقلانية أكثر مني، أو قد يكون ذلك أحد أوجه الدلال الأنثوي، بعد أن بلعت غصتي واصلنا حديثنا وكأن شيئًا لم يكن.

صغيرتي فاطمة تثير لديَّ الفضول لبعض انتباهاتها، كنت أراها أحيانًا تتوقف لبرهة عن مواصلة لهوها وتتسمر وتصغي باهتمام بالغ لما يدور بيننا من حديث.

هذه اللفتة المنتبهة منها تزيد شعوري بأنها موجودة بعقلها وكيانها بيننا إلى جانب أنها كانت بين وقت وآخر تطرح بعض استفسارتها الكبيرة ويهيأ إليَّ أنها تسبق عمرها بسنوات.

على الجانب الأخر صغيري منير بعيدًا كل البعد عن كل ما

يجري من حوله، هو في عالم آخر مع ألعابه ولا يعيرنا حتى بالتفاتة من التفاتاته، كان كل همه أن لا يمس أحد منا ممتلكاته من الدمي المتناثرة في كل أرجاء دار العم فتحي الواسعة.

عندما أراه يبعثر ألعابه كنت ألقي إليه ببعض النصائح وأحثه على جمعها في مكان واحد، عندها كان يرفع بصره إليَّ ويفرك أنفه بظاهر كفه ويشفطه وكأنه يقول لي دعني وشأني، السيدة نادية بدورها تنظر مبتسمة إليَّ وتقول لي: دعه تلك هي حال الصغار.

نراه مختلفًا كثيرًا عن فاطمة، ربما لصغر سنه أو للفارق الكبير في طبيعة تكوين سلوك البنين عن البنات واختلاف اهتماماتهم الحياتية.

****

بعد صلاة العشاء مباشرة كان الجمع مكتملاً في دار العم مصطفى بوجود والدها السيد عزت وبحضور كلاً من السيد عبد الغفار والحاج عبد الستار بما فيهم العم فتحي الذي بدا مطرقًا، حضور هذا الجمع تحديدًا في هذه الليلة أعادته إلى اليوم الذي وضعت يدى في يده.

باتفاق سبق حضورنا وبكلمات موجزة جرى تقدمي بطلبها للزواج من والدها الذي باركه والذي أعقبه حضور مأذون الحي وانفض جمعنا بعد تناولنا طعام العشاء مباشرةً. مما يشير إلى أن الجميع

أرادوا تقليص معاناة السيد فتحي.

على غير عادتي كنت جالسًا قبالته في محله في هذا الوقت المبكر من صبيحة اليوم التالي، هو قرأ على ملامحي سبب حضوري. بادرني القول بابتسامة حانية: أرى الكلمات والاستفسارات تكاد تقفز من تعابير وجهك يا صالح.

- ألجأ إليك يا عم مصطفى كما عودتني لتمسك بيدي وتقودني، أسألك عن الخطوات اللاحقه لاستكمال بقية مراسيم زواجي منها.

نظرت إليه كمن أستجديه وأقول له: ماذا يتبقى عليَّ أن أفعله؟

بادرنى القول وكأنه كان منتظرًا قدومي: أعرف ما تعنيه، هند كما تعلم انتقلت منذ عدة أيام للعيش في بيت والديها بعد أن أحيل والدها إلى المعاش واستقر بهم المقام للعيش في مدينة القاهرة. أنتما الآن في ظرف لا يبيح لكما إقامة أي شكل من أشكال الأفراح المعتادة التي يتخللها الطبل والزمر، وبما أنها الآن في حكم زوجتك، باختصار تدعوها لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم الفارهة وخلال جلوسكما تضع في إصبعها دبلة الزواج وتأخذها إلى شقتك لتبدأ معها مسيرة حياتك الزوجية. هذا ما جرى عليه الاتفاق فيما بيننا في غيابك.

خرجت الكلمات من فمه متراصة وكأنه يقرؤها من خلال ورقة

بين يديه أعدت سلفًا ليلقيها على مسمعي.

كالطفل الصغير قفزت من مكاني وأنا أقول له: شكرًا لك لقد اختصرتم عليَّ المسافات. لم تغمض عيني طيلة ليلة البارحة.

- يا صالح الحالة النفسية للسيد فتحي وحرمه تحتم علينا عدم إقامة كل أشكال مراسيم الأفراح مراعاة لشعورهما.

عدت إلى متجري وأنا لا أصدق ما سمعته، لقد أزاح عني همًا ثقيلاً.

أتفق فيما بيني وبينها على أن يذهب كل منا بمفرده إلى المكان الذي أختير لنتناول فيه طعام العشاء.

هند..... ليلة الزفاف

على غير عادتي أخذت وقتًا غير قصير في انتقاء الملابس اللائقة لهذه المناسبة الفريدة وأوليتها العناية الفائقة.

قبل أن أغادر للمرة الأولى وقفت لدقائق أمام مرآة الحلاق من بعد أن كنت قد أوصيته بتصفيف شعري بعناية ووضع اللمسات الشبابية عليه.

لم أسلم من ثرثرته التي اعتدت عليها والملازمة له بقوله: هل أنت على موعد؟ أم أنك مدعو في هذه الليلة إلى أحد الأفراح يا سيد صالح؟

بزهو هززت له رأسي وأمسكت بربطة العنق وحركتها يمنة ويسرة وألقيت نظرة أخيرة على المرآة وأتبعتها بنظرة منتشية إليه ونقدته المعلوم وأكثر وخرجت من عنده.

سبقتها إلى هناك، كنت قبل ساعة من موعدنا المتفق عليه، وقفت عند مدخل المطعم التابع لأحد الفنادق الكبيرة التي تطل على نهر النيل بعد أن قمت بتوصية المشرف على صالة الطعام بأن يولي الطاولة التي سوف نجلس عليها العناية الفائقة وأن يضع عليها تورتة منتقاة وباقة من الورد.

خلال وقوفي منتظرًا قدومها كنت بين حين وآخر ألمس برفق

تصفيفة شعري بكلتا يدي وأمررها على هندامي، أرقب كل سيارة أجرة قادمة وقبل أن تتوقف أمعن النظر في وجوه مستقليها، لمحتني وأنا أقف منتصبًا أترقب قدومها، وحال توقف سيارة الأجرة التي أقلتها اندفعت نحوي مهرولة وكأنها لم تلتق بي منذ زمن، كنت متخوفًا في تلك اللحظة من أن شدة سعادتها سوف تجنح بها إلى طفراتها العفوية المعتادة وتقبلني على مرأى من الناس.

أعرف تحركاتها التي تقوم بها بعفوية مطلقة والتي تنتابها أحيانًا، ولتفادي ما قد يحدث لم أمنحها الوقت لفعل شيء من هذا القبيل، بمجرد أن اشتبكت يدي بيدها أدرت ظهري للشارع بعد أن وضعت يدي الأخرى حول خصرها، مما جعلها تستسلم لقيادتي لها برفق إلى داخل المطعم. أجلستها قبالتي، وبعد أن أخذنا مكانينا اقترب النادل الواقف على بعد خطوات منا وكأنه كان ينتظر قدومنا وأضاء الشمعة التي وضعت بيني وبينها.

المكان يلفه الهدوء الساكن تحت الأنوار الخافتة، الهمس يطغى على الأحاديث التي تدور فيما بين المتواجدين.

لثوانى لم يتكلم أي منا، بعد أن تلاقت أعيننا تناولت وردة وقدمتها لها. تدحرجت من عيني دمعة شعرت بحرارتها وأدرت وجهي ومسحتها. أدركت ما بي، وبنبرة حزينة قالت: ماذا يبكيك يا صالح؟ هل تذكرتها؟

في صبيحة هذا اليوم كنت في زيارة لعمتي ولرؤية فاطمة ومنير والوقوف على أحوالهما، قبل خروجى من عندها، سالت دموعنا معًا وأنا أودعها بعد أن أجزلت الدعاء لنا بالتوفيق، إن كانت لبنى أمًا لطفليك فهي ابنة خالتي وأختي وصديقتي، لست وحدك من فقدها؛ كلنا فقدناها يا صالح. دعنا نسلط أنظارنا لقادم الأيام ونمضي في طريقنا وأيدينا مشتبكتان متعاونتان للعناية بالصغيرين وبهذا نكون قد أحسنَّا إليها، على الأقل في هذه الليلة علينا أن نبتهج لأننا لا نعلم ما سوف يخبئه القدر لنا غدًا، لندع أعيننا في هذه الليلة تنظر إلى بعض وترقصان فرحًا، لنقبض بكلتا يدينا على هذه الوردة التي قدمتها لي، دعنا نتبادل شمها.

كانت أقوى مني، لديها المقدرة العجيبة على صنع الفرح. للمرة الأولى أراها بهذه الفتنة التي استفزت مشاعري ونبهت أحاسيسي. كانت تنظر إليَّ وعيناها مغطاة بطبقة براقة من الدموع.

لم أراها من قبل بهذه الصورة التي تستفز المشاعر، لا أشك في أنها قد أخذت وقتًا غير قليل في اختيار الزي المناسب لها، حسن انتقائها يدل على امتلاكها موهبة متميزة في الاختيار. بلمسات يد خبيرة متأنية بعيدًا عن الإسراف والمبالغة وضعت مساحيق الجمال على وجهها وبدت لي وكأنها أصغر من عمرها بسنوات.

لمعرفتها باللون الذي أفضله ارتدت فستانًا أسود اللون فضفاضًا انساب حتى لامس قدميها، لسابقة جرت هي وحدها تعرف بأنني

أختنق أحيانًا عندما أراها ترتدي تنورة تعلو قليلاً فوق ركبتيها، أذكر أنه في بدايات خروجنا معًا كانت تبيح للرائي أن يلوي عنقه ويطل على ملتقى نهديها اللذين يزاحم أحدهما الآخر للخروج من الروضة التي أسفل عنقها.

سألتها: ألا يحزنك وأنتِ تمضين ليلة زفافك وحيدة من دون وجود لفيف من المدعوين يشيعون جوًا من البهجة أو حتى على الأقل أقرب المقربين إليك لينثروا علينا باقات التهاني؟ ألم تشعري بخلو هذه الليلة من مظاهر الفرح التي تصاحبها عادة سماع وقع الدفوف والزغاريد التي تصدح وخلو ظاهر وباطن كفيك الجميلتين من نقش الحناء الملازم للطقوس الدارجة لديكم في مثل هذه المناسبة؟

بذكاء أدارت دفة الحديث لاستدراكها أن الكلمات التي أسوقها قد تبعدنا قليلاً عن أجواء البهجة والحميمية التي تضمنا في هذه الليلة وحتى تأخذني إلى داخلها ولتؤكد لي بأنها كانت حريصة على الاقتران بي

نظرت إليَّ وطوحت بي بعيدًا وهى تقول لي : هل تتذكر يا صالح كيف كان ردي عليك في تلك الأمسية عندما كنت متحمسًا وطلبتني للزواج؟ أعرف أن ردي كان صادمًا عندما قلت لك: عليك التقدم أولاً إلى أبي كما تقتضيه الأعراف.

كنت وقتها أرقب مدى تأثرك؛ وقتها ظهر على تقاسيم وجهك شيء من مظاهر الانزعاج. أردت بهذا أن أختبر مشاعرك نحوي وأتأكد من مدى تمسكك بي كما هي حالي، هل فهمت؟ لو أنني كنت غير راغبة في الاقتران بك لما التأم شملكم في تلك الليلة بدار العم مصطفى، أنت لا تعلم أنني قد نثرت الورود قبل أن تلتقوا وتشتبك يدك بيد أبي.

فى تلك الليلة الوجد غمرنا وتعانقت كلماتنا، بكلماتها الهامسة عرفت كيف تبعدني وتمسك بيدي وتأخذني إلى أجواء حالمة. في تلك الأمسية الجميلة كانت تحيط بها هالة من الفتنة، في تلك الأمسية عرفت جمال الليل بوجودها.

لم نشعر بمرور الوقت ولم ننظر إلى الساعة التي قاربت على الواحدة بعد منتصف الليل، قبل مغادرتنا المطعم سألتني: ألم تفكر أين سنقضي اليومين القادمين؟ أليس من حقنا أن نخلو لبعض ونهرب ونتخفي عن أعين الخلق؟ هل توافقنى الرأي في أن نذهب غدًا صباحًا إلى الإسكندرية ونقضي فيها ساعات سعيدة؟

- لم يسبق لي يا عزيزتي أن زرت هذه المدينة من قبل ولا أعرف أي شيء عنها، أين نسكن؟ وكيف وأين نقضي وقتنا؟

- لا عليك؛ سوف نقضي فيها وقتًا جميلاً، لقد زرتها

مرات عدة من قبل وأنا متأكدة من أنها سوف تعجبك، إنها مدينة تتسم بالهدوء خصوصًا في فصل الشتاء الذي ما زلنا في منتصفه، وتعتبر من المصايف الجميلة وتنفرد عن بقية المدن المصرية ببعدها عن الصخب الذي يلتصق عادة بالمدن الكبيرة مثل مدينة القاهرة، لذا وقع اختياري عليها دون غيرها من بقية المدن التي أعرفها، وعلى كل حال الأمر يعود إليك.

في صبيحة اليوم التالي كنا نجلس داخل كابينة القطار المتجه إلى الإسكندرية، ينظر أحدنا إلى الآخر بفرحة غامرة كالأطفال المصاحبين لآبائهم في نزهة خارجية، نتفرس في وجوه القادمين الذين توافدوا تباعًا وأخذوا أماكنهم في المكان المخصص لجلوسهم.

قلت لها وأنا أسلط نظري إلى الحقول الممتدة وإلى أعمدة النور التي يخيل إليَّ أنها هي الأخرى تجرى في الاتجاه المعاكس: هل تصدقين بأنني لم أغادر مدينة القاهرة منذ أن قدمت وأن هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أركب فيها القطار؟

وأنا مستغرق في النظر إلى الحقول الخضراء المتلاحقة التي يطويها القطار، بضحكة خفيفة اقتربت من أذني وشعرت وقتها بسخونة أنفاسها وقالت لي هامسة: لهذا السبب أجلستك كالطفل المدلل بالقرب من النافذة.

لحظتها عادت بي إلى طفولتي، إلى يوم ركوبي السيارة للمرة

الأولى في حياتي وكنا وقتها في طريقنا من مدينة الطائف إلى مكة المكرمة، لا زلت أتذكر عندما أجلسني أبي في حضنه وأمسك بي كمن يخشى خروجي من النافذه التي كنت أطل برأسي منها وأنا أكاد أطير فرحًا.

عدنا بعد أن قضينا ثلاثة أيام لا تنسى في أحد الفنادق التي تطل غرفها مباشرة على البحر، كان الوقت شتاءً وخلال تجولنا في أسواقها كنا في بعض الفترات نضطر إلى اللجوء إلى بعض المقاهي اتقاء المطر المنهمر بغزارة، قيل لنا بأن هذا هو دأب طقس مدينة الإسكندرية طيلة فصل الشتاء الذي يتسم بكثرة الأمطار والبرودة الشديدة.

في الأيام الأولى من عمر زواجنا لم تفلح محاولاتنا المتكررة في ضم فاطمة ومنير للعيش إلى جوارنا. الفترة الزمنية التي قضياها في دار العم فتحي جعلتهما يلتصقا بجدارها، المكان أحبهما قبل أن يحباه، في تلك الدار رأيا أول شعاع الحياة وعقليهما أينعا فيها، جريا في فنائه وارتقيا سلالمه وتنقلا بين حجراته.

قلت لها: يجب أن لا تنسي أن جدتهما وجدهما تعودا على رؤيتهما بقربهما طيلة الوقت، ومن الصعوبة والقساوة انتزاعهما منهما بطريقة فجائية، يجب علينا أن نأخذ بالجوانب الإنسانية ونراعي شعورهما.

أخذنا أيامًا غير قليلة في ترويضهما وجعلهما يستإنسان وينتقلان للعيش معنا بحيث كنا نأخذهما لساعات، أخذت في الإطالة شيئًا فشيئًا، إلى أن اعتادا على قضاء فترات طويلة معنا، إلى جانب أن حبهما الشديد لهند والتصاقهما بها ساعد كثيرًا على جذبهما.

يغلب على سلوكها الإفراط في المرح واللهو، هي لا تنقصها الدراية بإدارة شؤون المنزل ولكنها لا توليه اهتمامها اللازم، تقضي معظم وقتها بجانب الصغيرين، هما وجدا فيها الأم التي فقداها وهي امتلكت الأمومة التي حرمت منها.

بعد انقضاء عدة أسابيع من عمر زواجنا عندما كنت أعود لا أجدهما، كانت في معظم الأيام تأخذهما قبل الغروب إلى الحديقة المجاورة لنا، هما يلعبان مع أقرانهما وهي تتسلى بشرب الشاي وتبادل الأحاديث مع بعض من تلتقيهم من مرتادات تلك الأماكن اللاتي يصطحبن أطفالهن للترويح والتسلية مثلها.

بمرور الأيام بت أخشى أن تمضى بي إلى توجهاتها.

داهمتني الوساوس لفترة كدت أميل إلى الجزم بأن الزواج بالنسبة إليها مجرد مرحلة من مراحل الانتقال بها من محطة الترمل إلى محطة التسلية والمتعة

من بعد مغرب ذلك اليوم.عندما عدت لم أجدهما كما عودتنى في بعض الأيام. ولم أستبدل ملابسى كما هي عادتى, كنت أنتظر

قدومهما, بمجرد دخولها مع الطفلين قلت لها: يا عزيزتي، اهتمامك الشديد بفاطمة ومنير شيء يسعدني وأباركه، ولكن ليس إلى الحد الذي عندما أعود مجهدًا بعد قضاء يوم عمل متواصل لا أجدك في انتظاري ولا أجد حتى ما آكله، أنا لا أطلب منكِ أن تعتني بمعدتي، فلست أكولاً كما تعرفين، ولكن فقط أريد أن أحس بوجودك معي، أرجو أن لا تكسري فرحتي باقتراني بكِ، وآمل أن ينبض إحساسك بوجودي كزوج له حق الرعاية كما لكِ عندي.

بكلمات معتذرة قالت: أرجو أن لا تذهب بك الظنون بعيدًا وتصدق بأن نوافذ الحب لديَّ قد انسدت، أؤكد لك أنها ستظل مشرعة حتى آخر يوم من أيام عمري..

أمسكت بيدى وهى تقول لي لنجلس بعيدًا عن سمع وبصر الصغيرين: يا صالح أنت لا تعرف مدى عظم الانتكاسات التي حلت بي ولازمتني قبل أن التقيكم، لقد حجب الضوء عني لسنوات. قبل أن ألتقيكم كانت أحلامي كوابيس، كنت قد فقدت القدرة على الضحك، كنت مرهقة ومنكسرة في داخلي وفي حاجة إلى يد تنتشلني، عطشى للأمومة التي حرمت منها وفقدت الأمل في أمتلاكها وجدتها بين يدى متمثلة في فاطمه ومنير مما جعلانى انطلق بلا قيود وأفقد التعقل والأتزان في تصرفاتى.

قالت لي وعلى وجهها معالم الشروع في البكاء: كدت أنسى الماضي ولكنك الآن تضطرني إلى أن أعود إلى الوراء مجبرة، كنت

قد عانيت من جراء عدم قدرتي على الإنجاب القسوة والإهانات اليومية اللاذعة من قِبَله وذويه، صبرت وأحتملت ما لا يحتمل، فكان أن طلبت الطلاق منه لكي أنأى بنفسي بعيدًا عنهم. أنت يا صالح في هذه اللحظه جعلتنى أفتح صفحة سوداء كنت قد طويتها من سجل حياتي إلى الأبد

كلماتها فجرت لديَّ مشاعر إنسانية، كان لديها رواسب ذكرى أليمة التصقت بها، لم تكشف لي عنها من قبل، في الأيام الأولى كنت أراها تتركنا وتنتحى جانبًا، كانت كثيرة التفكير طويلة الشرود، بطبيعتها لم تكن ممن يبثون الشكوى، كان لديَّ إحساس بأنها ممن يخفون في بطونهم الشيء الكثير, كدت قبلها أن أنجرف إلى قرارات انفعالية كانت قد تؤدي بي إلى ما لا يحمد عقباه، بكلماتها سدت لديَّ منافذ الريبة والقلق وأعادتنى إلى رشدي.

مددت يدي وأرفقتها بيدها التي كانت تمسح بها قطرات دموع تدحرجت على خديها ومسحناها معًا. دنوت منها ورفعت خصلة من شعرها كانت قد ابتلت بدموعها والتصقت بخدها وحالت بين فمي ووجنتها لتقبيلها، همست في أذنها: أنتِ وفاطمة ومنير مدعوون غدًا مساءً لتناول طعام العشاء في ذاك المكان الذي ولدنا فيه بدعوة مني لنعيد ذكرى ليلة لا تنسى.

رفعت رأسها بعد أن علت الابتسامة ثغرها وقالت: أنت بهذا تداعب قلبي بعد أن نبهتني من غفوتي.

صبيحة اليوم التالي قبل أن أهم بالخروج وهي تودعني، لا تنسَ يا صالح، ثلاثتنا سوف نكون في انتظارك؛ لا تتأخر.

على غير عادتى عدت قبل الغروب، فتحت الباب فوجدتهم وكأنهم في انتظار من طالت غيبته عنهم.

فاطمة كانت أول المعبرين عن فرحتها بحضورى، بنبرتها الطفولية العذبة: لقد تأخرت كثيرًا علينا يا بابا، منذ ساعة وأنا واقفة في البلكونة أرقب قدومك.

كانوا مهيئين تمامًا للخروج. اتفقت معها على أن يكون جلوسنا على تلك الطاولة التي كنا قد جلسنا عليها في تلك الأمسية الجميلة. هي انفردت بهما وأجلستهما بجانبيها، ثلاثتهم كانوا في مقابلتي ولم ترضَ أن يجلس أي منهما بجانبي.

قلت لها مازحًا: أنتِ بهذا تصادرين أبوتي.

احتضنتْهما بكلتا يديها وقالت لي: يا عزيزي أرجو منك في هذه الليلة أن لا تخرجني مما أنا فيه، لا تحرمني فرحة أمومتهما.

نظرت إلى الصغيرين وقلت لهما: هذه الطاولة تحديدًا جلسنا عليها أنا وهند في ليلة زفافنا.

بعد أن وزعت نظراتها بيننا وبنبرة طفولية قالت: وعلى وجهها علامة تعجب، وهل وسع هذا المكان الضيق جميع المدعوين؟ ولماذا لم تصحبانا معكما؟

قلت لها: المدعوون كانوا تورتة واحدة وباقة زهور.

نظرت إليَّ في ذهول ولم تستوعب ما قلته.

هند مسحت على رأسها وقبلتها وقالت لها: عندما نعود سوف أشرح لكِ كل شيء عن تلك الليلة.

على الرغم من الضوء الخافت الذي يلف المكان ومن خلال أضواء الشموع الأربعة التي وضعت أمامنا على الطاولة والتي كانت تتراقص، لمحت قطرات دموع تتلألأ شفافة تغطي حدقتي عينيها وهي تضمهما بكلتا يديها.

لقد كانت فرحة الصغيرين لا توصف، جلسا سعداء وهما ينظران إلينا ويشيعان بأنظارهما على الموجودين من حولنا، كانا فرحين بالشموع ومداعبة الورود التي استلقت بقربهما.

اعتدنا تناول طعام الغداء كل يوم جمعة في دار العم فتحي لكي لا نسلبه وزوجته حق قربهما من فاطمة ومنير، كانا يستقبلانا بحفاوة وفرحة غامرة ولدى مغادرتنا كنت ألمح الدمعة تلو الأخرى تتدحرج على خدي العم فتحي والسيدة نادية، ذات يوم قالت: إنها تشتم رائحة لبنى في فاطمة ومنير, هي بهذا تشير إلى حثنا على زيارتهما دون انقطاع.

بعد أن كبرا كانت لنا زياراتنا الأسرية الخاطفة، نقوم بها في أمسيات متباعدة، كنا نتبادلها مع بعض الأسر الصديقة التي لا يزيد

عددها على أصابع اليد الواحدة، ولارتباط الصغيرين بمواعيد مدرستهما كنا نخرج بعد أن يخلدان إلى النوم، بمرور الوقت هدأت نفسي واستعدت شيئًا من الصفو والنقاء.

بعد أن تخطى عمرها الثالثة عشر كان لفاطمة صديقاتها وغدوها ورواحها، كانت تخرج برفقة هند التي كانت تضمها تحت جناحها ولا تغفل عنها خوفًا عليها من أن تعصف بها مراهقتها التي كانت تكبر كلما كبرت، وكذا منير، كان هو الآخر له أصدقاؤه، أصبحا يعرفان معنى تبادل الزيارات، هند تهيئ لهما الأجواء لمثل سنهما وتستقبل أصدقاءهما وتحتفي بهم ولا تتقاعس عن خدمتهم وتلبية طلباتهم، وهما بدورهما يقومان بزياراتهما بين وقت وآخر بصحبتها.

لقد كبرا وكبرنا معهما. نظراتنا تجاههما تغيَّرت وأوجه اهتماماتنا بهما تبدلت، كنا نرقب تحركاتهما ونصغى إليهما باهتمام بالغ ونلبي طلباتهما التي تتفق مع هذه المرحلة السنية من أعمارهما.

أتردد على شلة المصطبة في أوقات متباعدة، أصبحت لا أطيل الجلوس عندهم، هم بدورهم تقلصت عدد مرات سهراتهم إلى أيام معدودة ومتباعدة خلال الشهر الواحد.

العم فتحي أصبح لا يتخطى عتبة باب داره إلا ما ندر. برحيل لبنى أطبق الوجوم على جنبات المكان, لزم داره وتقلصت عدد مرات ذهابه إلى متجره، والعم مصطفى قلت رؤيتي له وأصبحت لا

ألتقيه إلا عندما كان يرسل في طلبي، وكان حديثنا في أغلب اللقاءات ينحصر داخل دائرة إدارة شؤون أعمالنا ومناقشة بعض الامور التي تخصها، التقيه في أيام متباعدة ويمكث قليلاً ثم يغادر إلى داره، كنت ألمح في نظراته الضيق من كل شيء، بدا عصبيًا بعض الشيء، خلت كلماته من الرقة التي اعتاد العاملون سماعها، لم ألحظ أي ردة فعل من أي منهم، كيف لا وهم ممن قد أمضوا سنوات طوال في خدمته واغترفوا من كرمه ففاضوا ولاءً وحبًا له؟!

لم يعد كما كان؛ مرضه الثقيل فرض عليه تقليص تنقلاته وأصبح زاهدًا عازفًا لا يخرج إلا قليلاً، أصبح ينشد الهدوء والابتعاد عن ضجيج الأسواق. شبح الشيخوخة أطل برأسه عليهم والتجاعيد فرضت وجودها على وجوههم، وقواهم وهنت بفعل تقدم العمر.

شرعة الحياة التي تمسك بأيدينا وتقودنا إلى منتهاها ليس بمقدور أحد منا أن يفلت منها ويتخفى عنها خلف ستار الزمن.

بدوري اهتماماتي بأركان بيتي استحوذت على كل وقتي؛ لم يعد لديَّ وقت فراغ أمضيه بعيدًا عنهم إلا ما ندر.

سعدت كثيرًا عندما تلقيت رسالة من أختي تخبرني فيها عن عزمها القدوم إلى القاهرة لغرض رؤيتنا ولقضاء عدة أيام تستمتع فيها مع أسرتها بمشاهدة الآثار والتجول، وذلك خلال العطلة المدرسية.

حلت هي وزوجها يوسف وابنتها وابنها عندنا، الصغار فرحوا كثيرًا بوجودهم بيننا وهند أعطتهم كل وقتها، لم تبخل عليهم بشيء، خرجت بهم في أثناء النهار إلى جميع المنتزهات والمتاحف والأسواق هي أحبتهم وأحبوها.

انفردت بأختي نبيلة جانبًا وسألتها عن أخي وأسرته وأحوالهم المعيشية، اطمأن قلبي.

لم تتغير كثيرًا، كانت وما زالت منذ أن عهدتها عندما تكلمني تميل بوجهها إلى الأرض ولا تنظر إلى وجهي، أدبها الجم لم تتخلَ عنه، هي كما عهدتها، أشفق كثيرًا عليها لاستكانتها، أخاف أن تطالها يد الزمان بنوائبه.

كعادتها بصوت خفيض وباستحياء شديد لامتني على تقصيري بعدم زيارتهم كل هذه السنوات التي مضت وانعدام التواصل بيننا.

أطرقَت السمع عندما رميت لها بكل الترهلات التي أصابتني خلال سنوات عيشي في هذه المدينة. سقت إليها الأعذار، اعترفت لها بتقصيري في حقها دون غيرها، أعرف أنها تُركت شبه وحيدة لانقشاع الغطاء الأسري من فوقها. احتمالات تخلي أخي عنها واردة للنهج الرمادي الذي يطغى على طبيعته المتلونة ولنرجسيته المعهودة، وفي نفس الوقت لم أبرئ نفسي.

لصفو جوهرها ولطيبتها الملازمة لها منحتني العذر الذي أعرف

تمامًا أنني لا أستحقه.

عندما عدت من عملي وجدته وحيدًا، ذكر لي أنهم خرجوا للتو برفقة الأطفال لأماكن لهوهم أو ربما للتنزه سيرًا على الأقدام بمحاذاة نهر النيل كعادتهم مساء كل يوم، هو فضل البقاء في الشقة وحيدًا منتظرًا قدومي.. يوسف يهوى الجلوس في البلكونة للاستمتاع بوقت غروب الشمس والنظر إلى المراكب وهي تتهادى فوق نهر النيل. من خلال وجوده بيننا تبين لي أنه هادئ الطباع، ينحى إلى جانب الخجل قليلاً، يهرب من مجالسة النساء ومحاورتهن، وضح لي هذا عندما اصطحبناهم لأكثر من مرة لزيارة بعض الأسر الصديقة، كنت أراه يبتعد عن مشاركة النسوة مناقشاتهن ومبادلتهن الحديث.

خلال جلوسي معه دفع لي بقصاصة مدون بها عنوان إحدى ورش إصلاح السيارت كتلك التي تنتشر عادة في كل أزقة وميادين الأحياء الشعبية، العنوان يشير إلى حى شبرا بجوار كذا حيث يعمل عيسى.

سألت يوسف من يكون المعني بهذا الاسم؛ ذكر لي أنه يعد من أعز أصدقائه فترة وجوده في مدينة الطائف قبل أن تفرقهما السبل، وبأنه يبحث عنه منذ ما يقارب عشر سنوات، وبمحض الصدفة توصل إلى أنه يقيم في مدينة القاهرة بعد أن يئس من معرفة مكان وجوده لسنوات.

بما أنه لم يبق على موعد عودتهم سوى أيام معدودة سألني إن كنت سوف أرافقه إلى هناك للبحث عنه.

منذ الصباح الباكر ونحن نجوب أزقة وميادين حي شبرا وحينما كان التعب يحل بنا كنا نركن إلى أقرب مقهى ثم نعاود البحث ثانية، بعد عدة ساعات من التقصي والسؤال عنه من كل محترفي هذه المهنة المتناثرة ورشهم في هذا الحي الواسع الأطراف, أخيرًا توصلنا إلى مكان وجوده قبل أن يحل الظلام بعد أن فقدنا الأمل في العثور عليه.

أخذنا إلى داره التي لا تبعد إلا بضع دقائق سيرًا على الأقدام، لم يدعنا نذهب، وتمسك باستضافتنا في تلك الأمسية.

كنت أرقبهما وهما يتبادلان العتاب والأشواق بعد فراق استمر سنوات.

هو ممن لم تغيِّبه الذاكرة. كان أحد أولئك الذين ممن عرف الشقاء طريقه إليه منذ الصغر, كانت حياته خليطًا من البؤس والحرمان ويصعب على الكثيرين منا تحملها.

أعادني إلى الوراء. عرفته حق المعرفة، وهو بدوره لم ينسَني، بدايةً تفرَّس في وجهي مليًا ومن بعدها ذكَّرني بعدة مواقف ومناسبات جمعتنا.

أزاح عن ذاكرتي بعض الغبار الذي غطاه الزمن، كان ممن

طوحت بهم قساوة العيش يمنة ويسرة، كنا أبناء الحي الواحد، يعرف أحدنا الآخر حق المعرفة نظرًا إلى تلاحم دورنا ومحدودية عدد أفراد القاطنين فيه, وللتآلف الذي كان يضمنا في السراء والضراء.

كان يسكن في آخر الحارة وكنت أراه في صبيحة بعض الأيام يمر من أمام دارنا مرتديًا بنطالاً مبقعًا بالزيوت والشحوم آخذًا طريقه إلى إحدى ورش السيارت التي لا تبعد كثيرًا عن حينا. هو ممن تعلموا واحترفوا مهنة إصلاح السيارات.

نظرًا إلى علو هامته وثقته بنفسه لم يكن يأبه لنظرات البعض إليه، كان في نظراته التحدي المبكر، كنا نعرف أنه يخفي معاناته في داخله، كان يواجه الدنيا بصمت. عندما كنا نلتقيه كان هو أول من يبادر بالسلام علينا، لم يكن لديه وقت في مشاركتنا ألعابنا وعبثنا كبقية أبناء الحارة، على الرغم من فقده نعمة رغد العيش مثلنا لم تكن لديه عقدة الفقر، أعرف أنه يمتلك نفسًا كريمة قنوعة، كانت البسمة الخفيفة لا تفارق وجهه. أذكر أنه يتيم الأبوين كان يسكن مع جده في دار متناهية الصغر، لم نكن نرى له أبًا أو أمًا أو أخًا أو أختًا، قيل لي إنه تيتم منذ الصغر، لم يهنأ كثيرًا بدفء صدر أمه ولم يرتو منه كغيره، وهذا أصعب أشكال الظمأ.

بعد أن عدنا قص لي يوسف كل ما كنت أجهله عنه، ذكر لي إنه كان له عم أغلق عنه كل نوافذ الشفقة وكان يعامله بعنجهية وينظر إليه نظرة دونية، لم يضمه إليه عندما تيتم وهو يحبو، حرم من

التعليم وأجبرته الظروف للعمل في سن مبكرة, تحمل مشاق الحصول على لقمة العيش, كان يهجر دار جده لأيام ثم يعود، تعودنا على غيابه، ولكن في آخر مرة اختفى تمامًا وبوفاة جده لم يعد أحد يسأل عنه، حتى عمه الوحيد هو الآخر تنكر له، لقد كان لديه إحساس بالغ بالقهر، لذا فضل الابتعاد بهدوء وصمت.

دعوته لزيارتنا، فكان لنا لقاء معه, حضر وبرفقته زوجته وابنته الوحيدة حيث تناولنا طعام العشاء معًا، انفردنا به وتكلمنا معه، لم يكن راغبًا في الرجوع إلى ذكر شيء من سنوات معاناته، ولكننا اغتصبنا منه بعضًا منها، قص علينا النذر اليسير من عذاباته، ذكر لنا أنه عندما كان صغيرًا دون العاشرة من عمره كان يذهب إلى دار عمه ليس لأجل شيء ولكن فقط للعب والتسلية مع أبنائه الذين كانوا يقاربونه عمرًا ويحبونه، كان عمه عندما يراه بينهم يطرده بطريقة تدعو إلى الأسى، لم يكن له في هذه الأرض على سعتها ركن يأويه، ليس له حاضن يضمه غير منزل جده الذي هو الآخر بالكاد يعتاش من مساعدة الخافين من الناس.

عاش غريبًا في بلد ولد وترعرع فيه، كان فقيرًا، لذا عاش غريبًا (لأن الفقر في الوطن غربة)، قدم من غربة إلى غربة، الأيام تفننت في إيذائه وسددت إليه أسهمها الموجعة، لقد كان بمثابة مجموعة متراصة من مآسي الخلق تمشي على الأرض وهي تجتر آلامها، كان يحمل جرحًا غائرًا لا سبيل إلى اندماله، قص علينا فقط حلقة

واحدة من سلسلة معاناته الطويلة، قال لنا إنه ترك وراءه من لا يريد أن يتسول عطفهم، قدم وسعى إلى مجهول وجاء إلى هنا وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، كان يلهث خلف حلمه.

ذكر لنا أنه عندما قدم في البدايات عانى الكثير للحد الذي جعله يعتقد أن معاناته التي تركها هناك هاجرت وراءه لتتعقبه، بعد صبر ومثابرة تحقق له جزء مما أراد، وعلى أثره سعى إلى تكوين أسرة واستقرت به الحال أخيرًا.

كدت أقول له يا صاح كلانا عب من ذات القدح، ولكن الشعور بالخجل من نفسي دفعني إلى السكوت لأنني لم أنهل إلا جزءًا يسيرًا مما نهل.

قال لنا بأنه اختار العيش في ظل البسطاء من الناس.

قلت له: هل أنت سعيد؟ أطبق شفتيه بشدة وحرك رأسه إلى الأمام والخلف ونظر إليَّ وعلى وجهه شبه ابتسامة، ملامحه كانت لا تميل إلى الإجابة، حاله تدعو إلى الرثاء.

يوسف طرح له فكرة عودته، فكان رده: ومن لي هناك حتى أعود لأجله؟! ذكر لنا بأنه قد استقر به المقام في هذه المدينة وينعم بحياة أسرية لا ينقصها شيء؛ هو الآن يمتلك نصف الورشة التي يعمل بها ودخله يسد كل متطلباته المعيشية ولم يغادر مدينة القاهرة إلا مرة واحدة وذلك عندما اصطحب زوجته لأداء فريضة الحج.

لبينا دعوته بناء على إصراره الشديد لتناول طعام الغداء في داره.

جميعنا كنا في اليوم الموعود مجتمعين في شقته التي تقع في قلب الحي الشعبي الذي يتسم قاطنيه بالبساطة والألفة.

استقبلونا بحفاوة بالغة، تجلت أمامنا طيبة بنت الحارة التي تمثلت في زوجته وظهرت لنا الوجوه الطيبة الملازمة لأناس لم تصطبغ وجوههم بمساحيق الزيف.

كان لنا نصيب اللقاء ببعض البسطاء من الناس المتمثلين في أفراد أسرة زوجته ولم ينسَ دعوة بعض جيرانه، من خلال وجودنا بينهم لمسنا عن قرب دفء تعاملات أبناء الشارع الواحد.

السعادة كانت تطغى على ملامحه عندما كان يعرفنا للقادم الذي ينضم إلى مجلسنا، كان مزهوًا أمامهم بأنني ويوسف نمثل بني جلدته, ودعته على أمل التواصل فيما بيننا.

غادروا بعد أن سعدنا بوجودهم لعدة أيام بيننا، على الرغم من قلة عدد الأيام التي قضوها كنا اعتدنا عليهم, عند وداعها انهمرت الدموع من عيني عندما احتضنتها؛ سحبتني سنوات إلى الوراء، ذكرتني بتلك الأيام التي كنا نستظل جميعنا تحت سقف بيت واحد، يوم أن كانت أمي تلقي إليَّ ببردة عطفها بضمي إلى صدرها ووضع خدها على رأسي وبحنو بالغ تهمس في أذني بكلمات عذبة تدخل الطمأنينة إلى نفسي، ويوم أن كان أبي يضع كفه على جبهتي عندما كنت أصاب بالحمى وتكون حرارة بدني مرتفعة وتعتريني في نفس الوقت رعشة برودة أنتفض منها, وقتها كنت أشعر بدفء حبه وعطفه، كانت تسري في كياني راحة يعجز لساني عن وصفها.

وفاة الحاج عبد الستار

التقيتهم في السرادق الذي نصب للعزاء لوفاة الحاج عبد الستار الذي أتى صادمًا لكل محبيه من جراء دهسه بواسطة سيارة مسرعة أطاحت به عدة أمتار عند عبوره الشارع، هرعوا به بعدها إلى أقرب مستشفى، ولقساوة الصدمة وعمق جراحه، كان قضاء ربه قد نفذ.

وأنا جالس في سرادق العزاء استعرضت شريطًا طويلاً لسنوات رايته فيها وجلست معه واستمتعت بقفشاته وحسن معشره.

عندما رأيته للمرة الأولى خلته فظًا عنيفًا، ولكن تبين لي فيما بعد أنه على الرغم من صوته الجهوري وهامته المديدة يحمل قلبًا طفوليًا بالغ الطيبة، ابتسامة الرضا بالمقسوم كانت لا تغادر وجهه، رجل يشعرك للوهلة الأولى أنك التقيته من قبل.

كان أفراد الشلة دائمي التندر ببعض مواقفه الطريفة التي كان هو بنفسه لا يبخل عليهم بها، ولا يرى في ذكرها لهم شيئًا يُنقص منه، فقط كان يرويها لهم لتسليتهم ولإضفاء جو من المرح، خلال وجوده بينهم يقفون أحيانًا عند ذكر بعض تصرفاته الطريفة ومواقفه التي تثير الضحك، كان وقتها منتهى ما يقوم به هو أن يهز رأسه يمنة ويسرة ويميل به إلى الأرض ويشاركهم ضحكهم. لشدة صفاء نيته لم

يكن يبدي أي تذمر من ذكرها، لم يحسبها سخرية واستخفافًا به ليقينه بأنهم يكنون له الحب والتقدير. تعلمت منه أن القشور التي تغلف وجوه عامة من نلتقيهم من الناس يجب أن لا نبني عليها للوهلة الأولى تقييمنا لهم، ولكن علينا الدخول إلى أعماقهم بتروٍ قبل الحكم عليهم... رحمه الله!

زحف العمر لا يتوقف عند أحد، من خلال السنوات التي مضت من عمر ارتباطنا لم تنغص مسيرة عيشنا أي شائبة تستوجب الذكر، هناك بعض الهنَّات التي لا يجب التوقف عندها والتي كانت تعترض دروب حياتنا اليومية كبقية الخلق السائرين على سطح هذه الأرض.

أربعتنا استقلينا ظهر مركب واحد، نبحر إلى وجهة ننشدها، أطبقت يدها فوق يدي وقبضنا على مجداف الحياة، نتخطى معًا أمواجًا تعترض طريقنا ولا تعوق مسيرتنا، سلطنا أبصارنا إلى حيث تشرق الشمس.

فاطمة تخطت الخامسة عشر من عمرها، أصبحت في عمر الزهور، نخاف عليها، ندرك أن مرحلة البلوغ بمثابة نقلة فجائية من مرحلة الطفولة إلى النضج، نعرف أنها مرحلة مفصلية تحفها المخاطر وتتسم بعدم التوازن ويلزمنا مراقبة تصرفاتها بدقة عن بعد.

هند تبدلت تعاملاتها معها، أرقبهما وهما تتبادلان حديثًا خافتًا لا أسمعه، قالت لي إنها لم تعد تنظر إليها نظرة الأم إلى ابنتها، لقد

أصبحت صديقتها، في بعض الأوقات كانتا تنتحيان جانبًا وتغلفان حديثهما بالسرية وتتهامسان فيما بينهما، كنت وقتها أتوقف عن القراءة وأسلط نظري إليهما من فوق نظارتي وأقول لهما مازحًا: أشركاني معكما. عندها كانت فاطمة تقفز بكلمة: يااااا بابا. وتقف وهي تشبك أصابع يديها خلف رأسها، وكأنها تقول لي: لماذا قطعت حبل حديثنا؟

على أثرها هند ترمقني بنظرة أعرف معناها وكأنها تقول لي: لا تحشر نفسك بيننا، ابق في حالك.

أتابع قراءتي بعد أن أهز رأسي مصحوبًا بابتسامة تنم عن سعادة ورضاء بما يدور بينهما من تلاحم أسري.

على الجانب الآخر منير يعيش في ملكوته مع ألعابه التي نجدها مبعثرة في كل أرجاء الشقة، لا يسمح لأي واحد منا بالاقتراب منها أو لمسها، هو لا يهتم بجمعها.

نسمع أحيانًا صوت فاطمة يعلو وهي تلقي إليه باللوم والنصح على مسمع منا بقولها: لماذا تتركها هكذا ولا تقوم بجمعها؟ أنت ببعثرتك لألعابك تجهد ماما كثيرًا.

هي بهذا تريد أن تقول له بأنها أكبر منه وبأنها معنية ومهتمة بشؤونه ومن واجبها إسداء النصح إليه، وفي نفس الوقت تشير إلينا بأنها قد كبرت ويهمها مشاركة هند العناية ببعض الشؤون المنزليه،

تصرفاتها تدعو إلى الزهو.

وجدته منتصبًا أمامي ممسكًا بيدها، وقف برهة ينظر إليَّ مبتسمًا من دون أن ينبس بكلمه واحدة وكأنه يقول لي: هل عرفتني؟ إنه سامي، لقد تغيرت ملامحه قليلاً عن ذي قبل، وبدا مفرطًا في السمنة، قرابة ما يزيد على خمسة عشر عامًا ولت من عمر الزمن ولم ألقه.

اندفعت إليه وعانقته، وأنا أقول له معاتبًا: كل هذه الأعوام التي مرت ولم أرك فيها وأنت تعرف مستقري!

- أعرفك أولاً بزوجتي، ولضيق وقتنا أرجئ السرد المستفيض للأيام القادمة، باختصار شديد ارتبطت بها منذ عدة سنوات في ليبيا وقت أن كنت أعمل في إحدى الشركات، تعرفت عليها من خلال والدها الذي كان وقتها يعمل معي في ذات الشركة. كنت قد سافرت إلى هناك بعد عدة أيام من آخر لقاء جمعنا، تركت القاهرة ورحلت بعد أن قطفت كل الورود وزرعت الأشواك من حولي.

عليَّ أن أمنحه العذر، هو كغيره ممن اختفوا لفترة في زحام الحياة. مكث لدقائق وغادر. حددنا موعدًا للالتقاء في قادم الأيام. بعد أن غادر لمع بذهني طيفها، تمنيت الوقوف على أحوالها، لا زلت مشدودًا بحبال الشوق إلى رؤيتها، بعد آخر لقاء جمعنا كنت قد قرأت

لها السعادة والتوفيق في حياتها المستقبلية.

لثوانٍ مر شريط ذكرى أيامها على خاطري، على الرغم من مضي سنوات على افتراقنا، لا زلت أذكرها. تسحبني ذاكرتي في بعض الأوقات وتلقي بي إلى زمن هاجر التي كانت أولى صبابتي في هذه المدينة.

هناك نقاط ستظل محفورة في مخيلتنا لا تستطيع الأيام ردمها.

***

في أيامه الأخيرة بعد اشتداد مرضه كنت أعوده دون انقطاع، أحيانًا كنت أصطحب معي فاطمة ومنير، كان يربت عليهما بحنو وينظر إليهما ويحرك شفتيه. الكلمات كانت تخرج من فمه ولكنها لا تصل إلى آذاننا، ألمح شفتيه تتمتمان بشيء ما، هو حتمًا يدعو لهما، عرف عنه رطوبة لسانه.

منذ أن رحلت لبنى دخل العم فتحي في نفق الكآبة التي لازمته ولم تفارقه حتى فارق الحياة، العقد المنظوم من أربعتهم ها هو آخذ في الانفراط، حبات اللؤلؤ أخذت في التساقط واحدة تلو الأخرى، بعد فقد الأحبة كبر الإحساس لديَّ بالأفول، وكأن الماضي إلى زوال.

منصة مسرح الحياة التي اعتلوها وتربعوا عليها أربعتهم بدؤوا في النزول من فوقها، لا أنسى يوم أن كنت جالسًا في حضرته وكانت هي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، أمسك بيدي وأدناني إليه،

وبكلمات مرتجفة بالكاد أسمعها أوصاني بفاطمة ومنير خيرًا، وقتها انهمرت دموعي بغزارة وبللت ظاهر كف يده وأنا أقبلها، نظرت إليه وانتابني شعور بأنها النظرة الأخيرة وبأن منيته قد دنت، لم أستطع تمالك نفسي؛ انسحبت من أمامه وجريت وانزويت في ركن إحدى الغرف، وقتها كنت أجهش بالبكاء ولأجل أن لا يسمعني أي من الموجودين دفنت رأسي بين وسادتين وبكيت بصوت مكتوم، على أثرها أمسكت هند بيدي الصغيرين اللذين تبعاني وهما ينظران إليَّ بذهول وأنا أغطي وجهي بكلتا يدي وأبعدتهما عني.

لم أكن أتصور رحيله وأنا من عاش في جنته سنوات لا تنسى.

لقد كان كريمًا سمحًا هادئ الطباع.

ارتفع بتعاملاته مع الأخرين فوق الغمام.

في هذه المدينة أخاف أن يأتي اليوم الذي أقضي فيها بقية عمري بأنفاس الراحلين.

إن لم يتبق أي منهم فسوف أحيا غريبًا بين هذه الجموع الغفيرة من الناس.

وفاة السيد فتحي

قيل لي إنه قبل وفاته أوصى بنصف ما يملكه من مال لبناء مسجد في قريته التي ولد وترعرع فيها، أوكل واحدًا من الثقات في تنفيذ وصيته، رحمه الله!

أرقبهم وهم يغادروننا تباعًا، إن هم تواروا من على سطح هذه البسيطة فسوف لن يتبق لي دار أقرع بابها وأستند بظهري إلى جدارها، العمر لم يقفز من فوقي ويتخطاني. بدوري ربيع عمري آخذ في الأفول وقفزاتي تقلصت وحدت.

قد لا يجود الزمان عليَّ بأمثالهم، أنا في تخوُّف من أنني في قادم الأيام سوف أفقد آخر من صفا جوهرهم، أعرف يقينًا أنهم لن يتكرروا، لا أدري.

منذ أول يوم افتتحنا فيه محلنا الآخر اتفق على أن يكون تحت مظلة العم مصطفى بحكم الخبرة المتوفرة لديه ولامتلاكه اليد المتمرسة في كيفية إدارته. كنت بعيدًا عن كل ما كان يجري في فلك المحل الآخر.

منذ أن لزم العم مصطفى داره ولم يغادرها، تبادر إلى سمعه دبيب عبث ووضح له أن هناك نقصًا واضحًا في مدخراته ومقتنياته، بعد أن كانت إيراداته آخذة في ازدياد مضطرد بحكم موقعه المتميز في

قلب الأسواق التجارية بوسط البلد أخذت في التقلص يومًا بعد آخر. هذا ما تأكد له بوضوح بائن لا التباس فيه بناء على الأقاويل التي كانت تصل إليه ووفقًا للبيانات الحسابية التي تدعو إلى الشك والتي كان يشوبها الغموض والتبريرات غير المقنعة من قبل الموكل على إدارة المحل. كنت أصغي إليه وهو يشكو إلى من مر الحالة المتردية التي أصابت محلنا، وبأن فاتورة الخسائر أصبحت باهظة. علامات الأسى كانت بادية على ملامحه وهو يشكو لي، قلت له: يا عم مصطفى لا تحزن، علينا أن نعرف أن الجزع لن يفيدنا؛ الذي وقع قد وقع وانتهى كل شيء.

عرفت منه أنه كان له عدة محاولات يائسة في إصلاح ذات الحال، باءت كلها بالفشل، وعلى الرغم من امتلاكه البراهين الدامغة التي تشير إلى تلاعبه وخيانته الأمانة إلا أن الممسك بإدارته أحكم منافذ إدانته.

تطابقت وجهتا نظرنا على أن نخطو في سد الفجوة التي بدأت تتسع في التهام جزء من مدخراتنا وعلينا التصرف قبل أن تلتهم الأيام القادمة البقية الباقية منه لو ترك على هذه الحال. ليس لدينا خيار آخر سوى عرضه برمته للبيع فورًا وتسريح عمالته عن بكرة أبيهم. بنبرة يشوبها الحزن العميق عزا كل ما آل إلى هذه الانتكاسة راجع إلى تقلص نفوذه لابتعاده القسري عن كل ما كان يجري هناك.

تم ما اتفق عليه، خلال أيام قلائل، سدت النافذة التي استنزفت

جزءًا لا يستهان به من مدخراتنا.

منذ فترة أصبح في حالة لا تسمح له بالإشراف اليومي على المحل كما هي عادته نظرًا إلى الشلل الحركي الذي حد من قدرته على السير والجلوس طويلاً في المحل، وهو الذي كانت معظم أيام حياته حافلة بالحيوية والعمل الدؤوب.

الخسائر التي منينا بها التهمت جزءًا غير قليل من أرباحنا التي كنا قد جنيناها على مر الأعوام السابقة.

همسات مستترة أسرَّت إلى بها ابنته سامية، ذكرت لي أقاويل قيلت وتجاذبات حدثت على مسمع ومرئى منها خلال الزيارة الأخيرة التي قامت بها ابنتاه، ذكرت لي أنهما ألمحتا إليه بضرورة عرض متجرنا للبيع وفض الشراكة التي بيني وبينه، لأجل أن تتقاسما التركة قبل وفاته مما جعله ينتفض ويعنفهما بقسوة لم تعهداها من قبل.

سلوكيات حركها الجشع للقفز على المال المستباح الذي سوف ينصب في جيوبهما وتنعمان به من دون جهد.

زوجته السيدة هنية كانت بعيدة عن كل ما كان يدور في محيطها، ولم يعد يهمها شيء، كانت لديها همومها التي جعلتها صامتة طوال الوقت.

خلال زياراتي المتتالية لهم كنت أراها جالسة بقربه مستندة بذقنها

فوق ركبتها تنظر إليه بعين دامعة مشفقة، من حقها أن تحزن؛ هي تتذكر كيف كان يملأ الدار مهابة وحيوية. لم تغب عن ذاكرتي مشاهد من الأيام الجميلة التي كنت أزورهم فيها مع لبنى، كنت أراها جالسة بقربه في صحن المجلس الواسع واضعة أمامها أدوات صنع القهوة وحال دخولي كانت تباشر عمل فنجان لي، أشربه بتلذذ مصحوبًا برائحة البن الذي يعبق أرجاء المكان.

بعد سماعي تلك الأنباء الصادمة وعلاوة على الخسائر التي سبق وأن منينا بها، بدأت معالم تلك الانتكاسات تظهر بشكل لافت على تصرفاتي ولم أفلح في دفنها داخلي، تأرجحت تعاملاتي مع هند بين اللين والجفاء مما جعلها في حيرة من أمري، كانت تراقبني صامتة ولم يصدر عنها أي ردة فعل، كانت كمن يترقب ما تسفر عنه المسرحية الدرامية المعروضة التي أؤديها، أشفقت عليها وأنا أرمقها خلسة وهي تنظر إليَّ في ريبة وحيرة. على مدى السنوات التي مضت من عمر زواجنا عرفت عنها البعد عن انتهاج الطرق التصادمية، تمتلك في داخلها جهاز مناعة ضد إثارة المشكلات، تعرف كيف تدير الأزمات الطارئة ليقينها بأن الأيام القادمة لا بد أن تزيح الغطاء عن المستور.

أخيرًا كشفت لها عن الحالة التي أمر بها، أذهلها ما قلته ونظرت إليَّ بشيء من الدهشة المصحوب بالانزعاج مما سمعت، انتصبت فجأة وأدارت لي ظهرها وهرولت إلى المطبخ وهي تخفي وجهها

بكلتا يديها كما لو كانت لا تريد أن تسمع المزيد على ما قلته كان صوتها مصاحبًا لبكائها وأنا أسمعها تقول: هل نسيت أننا تعاهدنا على تقاسم الحلو والمر؟! هل وصلت بك الحال أن تخفي عني كل هذا؟! أنا يا صالح جزء منك؛ يجب أن لا تفصلني عنك.

دموعها كانت رسالة واضحة بحبها لي. تبعتها وأمسكت بكتفيها وأدرت وجهها إليَّ، خلال ثوانٍ خط الدمع مجرى له حتى عنقها. كانت تبكي بقهر بالغ. وضعت رأسها على صدري وأنا أقول لها: لم أقصد ما ذهبتي إليه، فقط أردت أن أبعدك وأطفئ احتراقاتي بيدي. يا عزيزتي أعرف أن النوح لا يفيدني، كنت قد فضلت أن أنتحي بعيدًا عنك وأجتر همومي وحدي ولكنني فشلت في إخفاء رسومها عن ملامحي، يا عزيزتي الصدمة أفقدتني توازني وجعلتني مرتبكًا في تعاملاتي معكِ.

كعادتي وهند عندما تتوه أفكارنا في حل معضلة ما، كنا نركن إلى خلوة نتجاذب خلالها النقاش في أمرها، وكنا في أغلب الأوقات نخرج إلى الفضاء الواسع، لتتسع صدورنا بصفاء الجو من حولنا.

عصر ذلك اليوم كنا نشرب الشاي في أحد المقاهي المنتشرة على ضفتي النهر، قلت لها: لا محالة من أنه سوف تمر من فوقي سحابة مظلمة أترقب قدومها إن عاجلاً أو آجلاً، سوف يأتي ذلك اليوم الذي أجدني فيه مرغمًا لفض شراكتنا بالأمر القسري من قبل ورثته وبخسائر لا بد من أن تكون فادحة آنذاك.

تلاقت وجهتا نظرنا في أن أزوره وأحصل على موافقته بتقبلي المحل شريطة أن أتعهد بدفع ما يخصه على أقساط مؤجلة، خوفًا من القادم المتسارع ونظرًا إلى مرضه المتنامي يومًا بعد يوم.

زرته في عصر اليوم التالي، كنت مترددًا في إلقاء طرحي إليه. لم أصدق ما سمعته، نظرت إليه بفرح حينما قال لي: يا صالح منذ عدة أيام وأنا أفكر في وسيلة تجعل منك المالك الوحيد للمحل بحيث لا ينازعك أحد فيه من بعدي، علينا أن نستبق الأمور قبل أن تغرق في مستنقع أطماع أزواج بناتي، علينا الإسراع لكي أنعم بالنوم وأطرد وساوس أرَّقت مضجعي.

خلال زمن قياسي حصرت جميع موجودات المحل وكنت بعدها بعدة أيام في حضرته مع السيد عبد الغفار وأحد أئمة مسجد الحسين لتحرير ما اتفق عليه كتابةً وتوثيقه لدى الجهات المعنيه.

وفاة العم مصطفى

ابتعدت عن مدفنه ولم أقوَ على الوقوف مع الجموع الغفيرة التي أتت لكي تودعه، لم تقوَ قدماي على حملي وجلست على الأرض. وضعت رأسي بين ركبتي وبكيت...

لم يتبقى لي أحد منهم، حتى السيد عبد الغفار عاد إلى مسقط راسه منذ فترة، قيل لي بأن أحد أبنائه قدم من مدينة أسوان وعاد به ليقضى بقية عمره بين أهله وذويه، ومنذ أن غادر إلى هناك أحتسبته من الراحلين.

العم مصطفى كان آخر الأنوار التي انطفأت في هذه المدينة، بموته تملكني الشعور بأنني فقدت أبي للمرة الثانية.

لم تنقطع علاقته بربه طيلة أيام حياته، عندما كنت أسير بقربه كنت أرى يده تندس في جيبه وتخرج الذي لا يدري هو نفسه كم أخرجت ويضعها في جيب السائل، ولكن لماذا جيبه دون يده؟ في تلك حكمة بليغة عرفتها منه فيما بعد.. رحمه الله!

لقد أمسك بيدي وقبض عليها منذ أول أيام قدومي إلى هذه المدينة ولم يتركها إلا بعد أن توقف نبضه. انجذابه إلى الحق وعطفه الأبوي جعلاه يتنازل عن بعض حقوقه لصالحي.

فيما مضى سألتني هند إن كنت أسمح لها بأن تشاركني الجلوس

في المحل ولو لفترات مسروقة لمعاونتي ولو لساعات قليلة خلال الأسبوع الواحد، تمنياتها تلك صددتها بحجة وجود شريك لي يقاسمني الرأي والمال.

بعد أن امتلكت المحل برمته ولم يعد هناك من وجود شريك آخر أعود إليه في اتخاذ القرار، عاودت هند طرح تمنياتها السابقة..

عملت معي بحماس شديد، اندفاعها وحسها المميزان أديا إلى تبدل معالم المحل إلى الأحسن ووضحت لمساتها النسائية على واجهته، مما جذب أنظار المتسوقين وأدى إلى كثرة أعداد المترددين.

صبيحة ذلك اليوم حدث أمر لم أكن أتخيله، خلال وجود هند دخلت هاجر إلى المحل بصحبة مرافقتها، بداية لم تلفت انتباهي.

كانت هند وقت دخولها منشغلة بترتيب بعض المقتنيات، في تلك اللحظة تمنيت عدم وجودها، حال دخولها اتجهت إلى أحد أرفف المحل كمن تتفحص محتوياته وقبل أن تخرج اقتربت مني ووقفت قبالتي برهة، وبعد أن ألتقت أعيننا وتأكد لها أنني عرفتها أدارت لي ظهرها فتبعتها بنظراتي إلى أن خرجت.

لمحتها تقف ثانية وراء الفاترينة الزجاجية وتعيد النظر إليَّ وأكملت سيرها وكأنها تشير إليَّ بأن أتبعها. بدا لي أن لديها شيئًا تريد أن تقوله من بعد هجر وغيبة طالا، وعليَّ أن أتبعها حتى لا

تعاود الرجوع إلى المحل في قادم الأيام.

سرت وراءها وبعد أن بعدنا قليلاً استوقفتها، بعد أن سلمت عليها تابعنا سيرنا لكي نبتعد من محيط دائرة خان الخليلي.

قالت لي: لقد تبدلت ملامح زوجتك كثيرًا يا صالح. ذكرت لها بأن لبنى قد توفت منذ سنوات، وهذه التي رأيتيها في المحل تزوجتها بعد وفاتها، نظرت إلى وجهي وقالت : لم تتغير كثيرًا يا صالح، قد تكون لزوجتك التي أشرت إليها اليد الطولى في ذلك. قلت لها : دعينا من كل هذا، ولكن أين كنت طوال هذه الفترة من الزمن؟ ولماذا ظهرتى فجأةً بعد طول غياب, وماذا عنك أنتِ؟ أخذت نفسًا طويلاً وقالت: لديَّ الكثير من القول، بداية يستحسن بنا إن كان لديك قليل من الوقت نبتعد ونجلس في أحد المقاهي لأسرد وأوجز لك سنوات عجاف سرقها الزمن من عمري.

بعد عام واحد من فراقنا تزوجت بواحد يمت بصلة قرابة إلى زوجة أخي التي سعت كثيرًا حتى قبلت بالزواج منه لشيء تضمره في داخلها، فكان لها ما أرادت وحققت بغيتها لأمور لا تهمك معرفتها، كانت تلك أولى الصفعات التي تلقيتها، ولم تطُل فترة زواجي منه وانفصلنا بهدوء دون أن أنال شيئًا من مستحقاتي، ولكي أداري إخفاقي خلال أشهر قليلة قبل أن ألتقط أنفاسي وبدافع من بعض الأقرباء غرر بي وأسرعت بالموافقة على زواجي من أول المتقدمين لي من ذاك القادم من بلده الباحث عن زوجة تمتعه ولا

يعرف شيئًا عن واجباتها وحقوقها، وافقت على شروطه التي أملاها عليَّ دون تدقيق مني ودون اعتراض أو إرشاد من أي من المقربين الذين أغدق عليهم بهداياه، لجهلى لم أكن على دراية عما قد تسببه لي الأيام القادمة في الغربة من عذابات البعد عن الأهل والافتقار إلى من ألوذ إليه عندما تحل بي نائبة، تغربت عدة سنوات، ذقت خلالها الذل والقهر وعدت وأنا أحمل هموم طفلتين حرمني أمومتهما، وبما أنني كنت وحيدة وعديمة الحيلة تركتهما وعدت ودموعي تسبقني إلى بلدي وأبقاهما معه حيث يعيش مع أهله وبني جلدته.

لكى لا أطيل عليك ما عانيته هنا شيء وما قاسيته هناك شيء آخر لا يوصف؛ هناك وجدت نفسي أمام أمواج عاتية آتية من أفراد أسرته وزوجته التي استقبلتني وعاملتني معاملة سيدة الدار لخادمتها.

أشفقت عليها، عذابات كثيرة رافقت مسيرة حياتها الزوجية، ودعتها بعد أن هبت عليَّ نسمات أيام ولَّت، لقد كانت لي معها أيام وإن كانت قليلة فقد تم قيدها في سجل حياتي.

لطبيعة عيشها في بيت أخيها سامي كانت تصحبهم خلال تلك الزيارات التي كنا نتبادلها معهم وبعض الأسر. بعد أن اقتربت بذكاء شديد من هند كانت لها زياراتها المنفردة، هل كانت تأتي لتنقب عن ماضٍ وتعيد العلاقة التي بينى وبينها؟ أم تريد أن تعكر صفو من تعتقد أنها أخذتنى منها وحلت محلها.

بعد أن نالت في الأيام الأولى حسن استقبال هند لها، دأبت على التردد علينا بين وقت وآخر في أوقات لا العرف ولا التقاليد الأسرية تسمح باستباحتها ويمكنني وصفها بالمستفزة وغير مقبولة، التصاقها بهند لم يكن نابعًا عن سابق ود وحميمية شديدة حتى تأنس بحضورها في تلك الأوقات.

كانت تنتابني وساوس ومخاوف عند كل إطلالة لها، هند كانت محقة في تأففها من تلك الزيارات المتكررة، كنت خلال وجودها أتصبب عرقًا وعلامات القلق كانت تصاحب تصرفاتي،كنت أخشى أن يزل لسانها بكلمة أو بإيمائة تشير إلى علاقتي السابقة معها. لخشيتي من حدوث ما يعكر صفو عيشي، كنت أتحاشى النظر إليها وأتركهم وألوذ إلى غرفة نومنا أو أجلس في البلكونة بمفردي حتى وقت مغادرتها.

في هذا اليوم بعد مغادرتها قذفت هند بكلمات صاحب نبراتها التبرم والتأفف، خلال زياراتها السابقة كانت كلماتها تلامس أذني ولم أكن أعيرها أدنى اهتمام وكنت أحسبها ضجرًا منها لا غير، في هذه المرة بعد أن غادرتنا وخلال جلوسنا في غرفة الضيوف كنت وقتها أتابع إحدى حلقات المسلسلات التلفزيونية وكنت مركز الفكر فيما يعرض، كانت تجلس بقربي تقرأ إحدى الصحف اليومية التي تعودت على إحضارها معي بعد عودتي كل يوم، من دون أن تسلط نظرها إليَّ وكأنها تكلم نفسها ومنشغلة بمتابعة القراءة، : لا أعرف لماذا لا

تكون مواعيد هاجر الغرامية في أماكن أخرى؟ لماذا لا تراعي حرمة هذه الدار؟

عرفت ما ترمي إليه، شكها من زياراتها المتكررة ألقى بظلاله السوداء على مخيلتها، وكما يبدو من أقوالها وعبوسها بأن الكيل قد طفح، إذن عليَّ أن أتأهب لصد تيار لافح قادم.

قلت لها: لم أفهم ماذا تعنين بكلماتك التي أخذتِ في إلقائها بعد كل زيارة تقوم بها هاجر، كانت تصل إلى أذنى ولم أكن ألقي بالاً لها، كنت أظن بأنك فقط تبدين تذمرًا منها لا غير، إن كنت أقوم بالترحيب بها ليس إلا لأنها تأتي للجلوس معكِ وهي لا تخصني من قريب أو من بعيد.

ألقيت هذه الكلمات وأنا أعرف مساوئ عاقبة كذبي عليها إن هي اكتشفت أنني أخفي عنها معرفتي السابقة بها، عندئذ سوف تتبدل نظرتها إليَّ وأنعي الوئام الذي بني على الثقة فيما بيننا. هزت رأسها باستخفاف وتابعت بقولها: لا تعبث بعقلي، هل تحسبنى أصدقك؟! هي ذكرت لي أنها كانت تلتقي بك من قبل.

لذت بالصمت، عليَّ أن أهرب من أمامها ولو للحظات لكي ألتقط أنفاسي وأرتب أوراق مرافعاتي وأبرئ ساحتي التي باتت مكشوفة. تبعتني وهي تردد: لماذا لم تقوَ على الرد والتصقت الكلمات في فمك؟

وأنا أتحاشى النظر إلى وجهها قلت لها: فعلاً عرفتها من خلال معرفتي بسامي وكانت لنا عدة لقاءات كأي اثنين يلتقيان ويقضيان بعض الوقت، ما الخطأ في ذلك وأنا من نأى بنفسه بعيدًا عن الخطايا ولم تحدث بيننا زلات توجب رجمي بحصوات الخطيئة؟ لماذا تعتبرين معرفتي وحتى خروجي معها جريمة كنت قد اقترفتها؟ ألم نخرج أنا وأنتِ عددًا من المرات قبل أن نتزوج؟ ما الخطأ في ذلك؟

للمرة الأولى بدت لي وكأنها لم تقتنع بمرافعتى، لقد انفتح أمامها فضاء الشكوك والوساوس، نبرة أصواتنا المحتدة العالية التي قدفت من حناجرنا لم تكن لها سابقة، مما جعل فاطمة ومنير يقفان عند باب الغرفة ينظران إلينا باستغراب وعلامات الخوف بادية على تعابير وجهيهما.

بعد الحدة التي عصفت بالوئام الذي صاحب مسيرتنا، مررنا بعدة أيام لازمها الصمت المطبق في تعاملاتنا اليومية والتي اتسمت ببعد كل منا عن الآخر.

بطبيعة الحال وكأى زوجان متلازمان، بمرور الوقت أخذت تعاملاتنا اليومية تنحى إلى اللين، كان كل منا يتلفظ بكلمات هامسة تومئ تلميحًا إلى الاعتذار، من خلال تعانق أعيننا عندما كانت تلتقي كانت الابتسامة الخجولة تصاحبها وكأننا عاشقان التقيا للتو.

لقد كانت تجاذبات محتدة لم نعهدها من قبل، كانت نوبة متطفلة

من نوبات الحوارات الأسرية المشتعلة.

بعد انقشاع الغيوم التي كادت تعصف بعيشنا وبعد عودة السكينة إلى قلوبنا وممارستنا شؤون حياتنا الطبيعية المعتادة اتفقنا على بتر زياراتها لنا بشكل نهائي.

قلت لها : وكما أن هاجر دخلت علينا من الشباك يجب علينا أن نخرجها منه، وذلك بتهيئة أنفسنا على الخروج من الشقة حال ملامستها عتبة بابها.

بعد تكرار ما اتفق عليه انقطعت ترددتها تمامًا ولم نلتق بها إلا مرة واحدة، وذلك خلال وجودنا في أحد الأفراح التي كنت وهند مدعوين إليها، واندست بين الحاضرين الكثر بمجرد رؤيتها لنا ولم نرها ثانية.

هروب منير

بعد تخطيه السادسة عشر من العمر طفرت الرعونة على أسلوب تعاملاته مع أخته فاطمة، كنا في بادئ الأمر نسمع تأففها من جراء تعديه عليها بدفعها للخروج من غرفته، كنا نحسبها تجاذبات طبيعية تحدث بين أخ وأخت، كنا نلتمس له العذر أحيانًا ونظن أنها قد تكون تعدت على مقتنياته التي يحرص على أحتضانها.

قيل لي في وقت تأخر كثيرًا بأن تجاوزات منفلتة كانت تصدر منه في غيابي، وذكرت لي فاطمة أنه سبق واعتدى عليها باللطم وأنه أحيانًا يعاند هند ببعثرته بعض الحاجيات المنزلية عنوة، وزادت أنه قبل عدة أيام اعتدى على بعض أقرانه في المدرسة بالضرب وعلى أثره تسلمت هند خطاب استدعاء من مديرة المدرسة، وحتى لا يتم توقيع الجزاء عليه أو فصلة، ذهبت من دون أن تخبرني، وعلى حد قولها حتى تبعدني عن الأمور التي قد تكدر خاطري وتزعجني، وهناك اعتذرت عن كل ما بدر منه وطلب منها كتابة تعهد خطي بعدم تكراره فعلته ثانية.

قلت لهما: أنتما غيبتماني تمامًا عن كل الأفعال غير المقبولة التي كانت تصدر منه ولم تشركاني في معالجتها والوقوف على أسبابها أولاً بأول.

هند ذكرت لي أنها نصحته مرارًا ولكن نصائحها لم تأخذ طريقها إلى السمع والنفاذ. قلت لها: تأخُر الردع كان دافعًا لجعله يتمادى في غيه.

لم يسبق أن صدر منه ما يوجب تأديبه، كنت أرقب تصرفاته عن بعد، كان من عادته تفضيله اللعب منفردًا في غرفته وكان لا يشرك أحدًا معه في ألعابه، صفة طبيعية لغالبية الفتيان الذين يدخلون من بوابة المراهقة والتي تلازمهم عدة سنوات حتى الخروج منها.

ولكن ماذا لو كان من المحسوبين على زمرة المنطوين على أنفسهم؟ لقد كانت تعاملاته الحياتية طيلة الأعوام المنصرمة من عمره لا تشير إلى ذلك بقوة.

كانت سعادتنا لا توصف عندما أنهت فاطمة مرحلة الثانوية العامة بتقدير عالٍ ومجموع يؤهلها للالتحاق بالجامعة ويعطيها الخيار في انتقاء التخصص الذي تميل إليه. انصبت جل اهتماماتنا بأحوالها ومراقبة قفزاتها الشبابية، أصبح لها خصوصياتها التي لا يحق لي التطفل والاطلاع عليها، في هذه المرحلة المتميزة من عمرها سلمتها إلى هند التي بطبيعة الحال أدرى مني بشؤونها الحياتيه التي جدت عليها.

في أولى أيام التحاقها بالجامعة، كنت بعد توصيلها صباح كل يوم لا أبرح مكاني وكأن هناك خطرًا يتربص بها، كنت أقف متسمرًا

لدقائق قبل أن أدير مفتاح سيارتي وأعود، أخاف عليها وأتبعها بنظراتي إلى أن تذوب بين مجاميع الطلبة والطالبات، كانت الوساوس تركبنى خلال عودتى.

بالأمس القريب نما إلى علمنا بأن بعض الفتية تعقبوا إحدى فتيات هذا الحي وحاولوا تقبيلها عنوة في وضح النهار ولولا وجود بعض المارة لحدث ما أساء إليها. تخيلت ماذا سوف يكون حالى لو حدث لابنتي مثل هذا. لا ألوم نفسي عندما كانت الوساوس تساورني، إنه الخوف على البنت أكثر من الولد،.

بمرور الأيام نجحت في طرد القلق من مخيلتي واعتدت على رؤيتها وهي تتجاذب الأحاديث مع بعض زملائها من الطلبة، هند كانت تلمس تخوفى من خلال أقوالى،كانت تطمئننى وتقول : لا تخف لقد مررت بهذا خلال دراستى الجامعية، نحن بنات حواء نملك مخالب تبرز حين الحاجة.

حدث ما لم يكن في الحسبان، عندما عدت رأيت هند واقفة وبجانبها فاطمة تنتظران قدومي، قالت لي بأن منير قبض عليه مع بعض الفتية وهو الآن في أحد مخافر حي شبرا وعليَّ الذهاب إلى هناك لاستطلاع الأمر، كان خبرًا مدمرًا لم أكن أتوقع حدوثه من قبل.

عصف بأذني ذكر أسم ذاك الحي؛ قلت لها: ما الذي ذهب به إلى

المكان الذي يبعد كثيرًا عن حينا؟ ومن هم أولئك الفتية الذين كانوا برفقته؟

عند وصولي قبل أن أخطو إلى مدخل القسم وقفت برهة وأخذتني الرهبة وتملكني الخوف من الموقف الذي لم أكن قد وقفته طيلة حياتي. طوال سنوات عمري لم يسبق لي الدخول إلى أي قسم من أقسام الشرطة، ما الذي جرى لنا؟! قبل أن ألقاه قيل لي من قِبَل المسؤول بأنه ونفرًا من الفتية قبض عليهم عندما كانوا يتعاطون الحشيش في وضح النهار في أحد المقاهي المنزوية في ذلك الحي الذي ينفرد عن بقية أحياء القاهرة بتركيبته السكانية المتنوعة، والأدهى أن الذين قبض عليهم ليسوا فوق الشبهات وسبق أن حررت لبعض منهم محاضر تعاطي وبيع.

كيف تعرف عليهم؟ وأين؟ ومتى؟ أسئلة كثيرة لا أملك الإجابة عليها، على الأقل في الوقت الحاضر، ربما مستقبلاً قد تتكشف لي بعض الأمور.

سألته مستفسرًا: ما الحل؟ وما العمل؟ قال لي بأن تهمته ستكون مضاعفة بسبب تعاطيه مخدر في مكان عام؛ لم أستطع التحدث إليه ولم أقو على مقابلته والنظر إلى وجهه لأنني كنت في حالة لا تسمح لي برؤيته، بعد أن باءت كل محاولاتي المتوسلة بالفشل، عدت بصحبة الهموم والمخاوف من القادم، وبطبيعة الحال لم تغمض عيني في تلك الليلة.

بدلاً من التخبط والدخول في أنفاق أجهلها، في صباح اليوم التالي توجهت مباشرة إلى محامي يسكن بالقرب منا، كنت قد تعرفت عليه منذ فترة، وبعد أن أطلعته على ما أقدم على فعله وما قد جرى له، أعاد إليَّ شيئًا من الهدوء عندما قال لي: لا تقلق، ابنك في مرحلة سنية يتدفق فيها الدم الذي يؤدي به إلى الاندفاع والانفعالات المنفلته، شأنه شأن معظم أقرانه. وزاد بأن حالات كثيرة مثل هذه قد مر بها من قبل، وطمأنني بأنه سوف يبذل قصارى جهده في محاولة منه مع مأمور القسم كي يعتبره حدثًا، وفي هذه الحالة سوف يتم توقيفه في المخفر دون عرضه على النيابة، وبعدها بعدة أيام سوف يطلق سراحه من بعد أخذ تعهد خطي من ولي أمره بعدم تكرار فعلته هذه مستقبلاً.

مرت الأيام العشرة التي قضاها هناك وكأنها عام واحد، لم يهنأ لنا العيش خلال تلك الفترة ولم يتوقف بكاء هند وفاطمة عليه. كنت دائم التوجس من حدوث شيء ما يعيق مسيرة تحقيق أحلامنا، ولم يكن يخطر على بالي قط أن أقرب المقربين لنا هو من يبترها. قلت لها: لم نكن مقصرين في تلبية كثيرًا من طلباته وكنا نسعى دائمًا قدر إمكاناتنا المتاحة في تهيئة كل أسباب راحته ورفاهيته.

هند لمستني بشيء من اللوم عندما قالت لي: سبق وأن قلت لك يا صالح أنت تغدق عليه بالمال الذي يفوق احتياجاته الحياتية، كنت تعطيه أكثر من المستحق لمن هم في مثل سنه، كنت وقتها ترد عليَّ

بقولك دعيه يستمتع بطفولته، فقط أذكرك بأنه سبق وأن نبهتك إلى هذا من قبل.

***

من بعد إنقضاء الأيام الكئيبه التي أوقف فيها، كعادتى عدت بعد مغرب ذلك اليوم وبعد تخطى عتبة باب الشقه، وجدت هند واقفه على بعد خطوات تترقب قدومي، وضعت يدها على فمي وكممته قبل أن أتفوه بأي كلمة، كانت تخشى سماعه صوتي ومعرفته بقدومي، وقبل أن أخطو إلى الداخل أجلستني وهمست في أذني بأنه عاد منذ ما يقارب الساعتين برفقة المحامي وضرب بباب غرفته وأقفلها خلفه بعد أن نظر إليَّ حانقًا قائلاً لي لم يعد يهمكم أمري، من الآن فصاعدًا لا أريد أيًا منكم أن يكلمني ولا يسألنى عن أي شيء، وأنتم لم تعودوا تساوون شيئًا بالنسبة إليَّ، ومنذ تلك اللحظه لم نسمع له صوتًا..

جذبتني من يدي وذهبت بي إلى غرفة نومنا، وقتها كانت فاطمة واقفة تنظر إلينا وجسمها يرتعش، كررت لي القول وهي تستعطفني بقولها: بالله عليك! أرجوك لا تكلمه حتى يهدأ كلاكما.

قالت لي بأنه لم يعد صغيرًا؛ لقد تخطى الثامنة عشرة من عمره وفي مثل هذه المرحلة السنية البالغة الحساسية من عمره لا يجدي معه نفعًا سوى النصح والدعاء له بالهداية، هذا كل ما في مقدورنا

أن نفعله.

على غير عادتي صحوت باكرًا بعد أن نمت نومًا متقطعًا، وهي بدورها كانت طيلة الليل تتقلب على جانبيها، كنت أستشعر حراكها بقربي، أعرف أن عينيها لم تغمض. ارتديت ملابسي على عجل وخرجت وكأنني على موعد قد أزف بعد أن قلت لها أبقي فاطمة معكِ ولا تدعيها تذهب إلى الجامعة في هذا اليوم لأن ذهابها لا يعود عليها بالنفع، هي في سنتها النهائية من تحصيلها الجامعي وفي هذه الحالة يلزمها الهدوء والبعد عن المنغصات.

وقت وصولى إلى خان الخليلي كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا، لم يسبق لي الحضور من قبل في مثل هذا الوقت المتقدم، المحلات كلها كانت مقفلة ولم أرَ سوى بعض الزبالين ممن تعودوا البدأ في عملهم اليومي بعد طلوع الشمس مباشرة لإزالة القمامة التي تراكمت بالأمس، إلى جانب بعض العاملين ممن أوكلوا بتنظيف ورش الماء أمام بعض المحلات قبل أن يبدأوا في فتح أبوابها، منظر لا بد أنه يتكرر صباح كل يوم اضطرتنى الظروف إلى رؤيته في هذا اليوم.

توجهت إلى أحد المقاهي القريبة المشرعة أبوابها في هذا الوقت المبكر، تذكرت العم مصطفى وتحسرت على الأيام التي كنت ألجأ إلى حضنه وأسأله المشورة.

قبل ظهر ذلك اليوم حضرت هند ومن خلفها فاطمة وهي تلهث، وقتها خلال ثوانٍ من بعد رؤيتها على هذه الحالة طافت بخاطري أوهام مخيفة، بعد أن أجلستها وضعت يدها على جبهتها وسلطت نظرها إلى الأرض وبكت بنهنهة متقطعة.

أشرت إلى أيمن بإحضار كوب من الماء وتركنا وحدنا في المحل، رفعت هند رأسها وتفوهت بكلمات بالكاد استوعبت شيئًا قليلاً مما قالته، بعد أن هدأت وصلني منها أنه أخذ حقيبة ملابسه وخرج وهو يتفوه بكلمات لم تستطع التقاطها بوضوح.

أردفت أنها خرجت خلفه لأجل أن تلحق به وتستوقفه، وبعد أن عجزت اضطرت إلى الوقوف عندما رأته ينزل مهرولاً قافزًا السلالم ولم يستجب إلى توسلاتها وصراخها، أسرعت إلى البلكونة ورأته يوقف إحدى سيارات الأجرة المارة ويرمي نفسه على مقعدها الخلفي وتبعته بنظراتها إلى أن أخذ منعطفًا.

عدت برفقتهما وبمجرد دخولنا اتجهنا إلى غرفته ووجدنا أن جميع محتوياتها قد بعثرت مما يدل على أنه أخذ ما يلزمه وغادر، ولكن إلى أين؟ لا ندري.

هند قالت لي إنها في هذه الليلة لم تذق طعم النوم، لعدة مرات كانت تدنو من باب غرفته وتسترق السمع وبأن نظرها ظل شاخصًا نحو باب بابها طيلة الليل، وأكملت حتمًا هو الآخر لم ينم، بالطبع لم

أكن أدري ما كان يفعله، لم يكن يخطر على بالي إطلاقًا أنه كان يجمع داخل الحقيبة ما يلزمه.

قلت لها: أتمنى أن يكون قد توجَّه إلى دار العم فتحي حيث لا يوجد له مكان آخر يأوي إليه، ومن له غيرهم في هذه المدينة؟ ولكن إن لم يكن قد توجه إلى هناك فسوف يسقط في أيدينا.

المصيبة يا هند أننا لا نعرف له صديقًا يبين لنا بعضًا مما نجهله عنه.

هند نظرت إلى بأستكانه وقالت لي : ماذا تقصد هل أقفلت أمامنا كل سبل البحث عنه؟ هل ذهب وتركنا في بحر من التيه؟

بعد معرفتنا بأنه لم يتوجه إلى دار العم فتحي، قمت بزيارة خاطفة إلى مدرسته وهناك طرحت بعض الأسئلة والاستفسارات التي تهمنا إلى بعض رفاقه في الفصل، كانت إجاباتهم لي واحدة وهو أنه لم يكن على صلة وثيقة بأي واحد منهم، وعلى حد قول بعض أساتذته، كان منطويًا بعض الشيء ولا يعرفون عنه الكثير، وزادوا بأنه لم يكن كبقية أقرانه من الطلبة، كان لا يشاركهم أنشطتهم وندواتهم المدرسية.

بعد فوات الأوان اكتشفنا أننا كنا مقصرين، أهملنا مراقبته خارج المنزل، ولم نكلف أنفسنا التعرف على من كان يقضى وقته معهم.

بعد مضي شهر كنا قطعنا كل أمل في عودته وعلينا الانتظار

والتعلق بالتمني، هل تبقى لدينا ما يبعث على الأمل في عودته؟ لا ندري.

في كل زيارة لنا إلى دار العم فتحي كانت السيدة نادية بطبيعة الحال تسألنا عن سبب عدم مرافقته لنا، في كل مرة تسأل ونحن نختلق عذرًا، مرة بأنه منهمك في مذاكرة دروسه ومرة أخرى بأنه خرج مع أحد أصدقائه، لكن إلى متى؟!

عشنا شهورًا محبطة عصيبة، عودته أشبه بحلم، لا نملك سوى الانتظار وترقب حدوث معجزة ما تعيده إلينا، غيابه أثر على نمط عيشنا، حتى الأماكن التي كنا نسلي النفس بالذهاب إليها هجرناها وتقلصت الزيارات التي كنا نقوم بها لبعض الأسر وأصبحنا دائمي الجلوس في الشقة لا نغادرها إلا للضرورة القصوى، حالة من الحزن والأسى سيطرت على أجوائنا، عانيت مرارة فقد الضنى، لو أن الله أخذه إلى جواره لهانت مصيبتي، ولكنه حي يرزق يمشي على الأرض، ومع كل هذا أنا في انتظار عودته ذات يوم.

فاطمة معظم وقتها أصبحت تقضيه في غرفتها لا تخرج منها إلا وقت تناولنا طعام الغذاء، تعود إليها وتقفل على نفسها باب غرفتها بعد أن تفرغ من مشاركة هند في إدارة بعض الأعمال المنزلية كعادتها.

كنا نربت على باب غرفتها، في بعض الأوقات كانت لا تستجيب

إلى ندائنا، كنت أقول لهند: لم تعد صغيرة لندعها تعيش على الكيفية التي تريحها، ولكن عليكِ حمايتها ورعايتها، كنا خائفين من خطورة ردة فعل فقدها توأم عمرها وتأثير ذلك على حالتها النفسية، قلت لهند ماذنبها إنها صغيرة على تحمل الهموم.

بعد تخرجها أصبح وقت فراغها طويلاً، في أوقات متفاوتة كانت تجلس بالقرب من هند وتتبادل معها حديثًا لا أسمعه. هند هي الأخرى شغلت وقت فراغها وانكبت على ماكينة الخياطة، في تجاذبات طريفه أسمع تأففها من تكرار انقطاع الخيط، أنظر إليها خلسة وأجاهد في كتم ضحكتي عند محاولتها المستميتة في إدخال الخيط في ثقب الإبرة.

أحيانًا ترفع رأسها وتصطادني وأنا أرقبها وتكتفي بإخراج لسانها لي ثم تعاود معاناتها تلك، كم من مرة عرضت عليها مساعدتها، كانت تنظر إليَّ وتزم طرف شفتها، وكأنها تقول لي حالك ليس أحسن من حالي.

تجاذبات محببة في وقت كانت الأنفاس فيها مختنقة.

على خلفية عدم خروجنا وقضاء الوقت كله في الشقة، امتلكت فسحة من الوقت للقراءة التي كانت من أحب الأشياء إلى نفسي، كنت هجرتها منذ زمن بعيد متعللاً بانشغالي وضيق وقتي.

منذ تخرجها من كلية الحقوق كان كل همها أن تعمل لتمضية وقت

فراغها الذي بدا مملاً بالنسبة إليها، كانت هند تدفعها للخروج وزيارة بعض صديقاتها التي كانت تلتقي معهم في النادي، أسمعها تقول لها "يا ماما هند لم يعد هناك شيء جميل"، كان الله في عونها.

خلال عام واحد تقدم لخطوبتها عدد غير قليل من الخطاب، بعض تلك الأسر المتقدمه لم تكن معروفة لدينا، بطبيعة الحال كنا نسألها رأيها أولاً ومن بعدها نسأل العارفين عنه وعن أسرته كما هي العادة.

أخيرًا استقر رأيها واتفق عليه، هو من أسرة معروفة من الطبقة المتوسطة، كنت دائمًا القول لعفاف لن أرضي بمصاهرة الأسر التي تفوقنا ثراءً لاعتبارات أعرفها ولتجارب غرقوا فيها ممن كدت أنساهم بمرور الأعوام.

قيل لي بأنه سبق وأن التقته ورأته من قبل من خلال زيارتها لمنزل إحدى صديقاتها.

منحناها مباركتنا ودعونا لها بالتوفيق بعد مباركة السيدة نادية التي بكت وأبكتنا معها لفقدها من هي أحق بالفرحة بفاطمة في مثل هذه المناسبة التي قد لا تتكرر إلا مرة واحدة في العمر.

على غير المعتاد في مثل هذه المناسبات اتسمت مراسيم حفلة زفاف فاطمة بالبساطة الشديدة واختزلت فقرات عدة من طقوسها واقتصر العدد على نفر قليل من المدعوين من بعض صديقاتها

وبعضالأفراد من الأسر المقربة إلى ذوى عماد، الذين بالكاد لا يتجاوز عددهم العشرة بالإضافة إلى عدد من أصدقاءئه.

كان لنا ما أردنا، حيث جرت مراسيمه على أضيق نطاق وفقًا لما قد اتفق عليه مع والدته التي لم تلزمنا بتوسيع مساحة مراسيم الفرح للحالة التي نمر بها والتي يصعب فيها وجود أهل الرقص والمغنى. في هذه الليلة انفرج لنا ثغر الحياة خجولاً.. كانت فرحتنا منتقصة ومصحوبة بغصة وشيء من المرارة.

هل الأقدار استكثرت علينا أن نفرح حتى في مثل هذه الليلة؟!

بعد اكتمال عدد المدعوين تناولنا طعام العشاء الذي أقيم في صالة أفراح أحد الفنادق، وفي نهاية الحفل غادروا المكان في وقت يعد شديد التبكير قياسًا لتلك الليالي التي يمتد فيها الفرح حتى الساعات الأولى من الفجر.

قبل ذهابها أمسكت بكتفيها ونظرت إلى وجهها قائلاً لها: لا تحزني يا ابنتي. مسحت بكفها دمعة تدحرجت فوق خدها وقالت لي وهى خافضة رأسها إلى موقع قدميها: يا أبت القلب اختلطت فيه الفرحة مع الغصة، لم يعد به متسع كما كان من قبل، ولكن كل ما يهمني في هذه الليلة أن لا تكون أنت من يحزن.

عند وداعها جمدت الدموع في عيني ولم تسقط كعادتها. هل أبكي لابتعاد ابنتي أم لاختفاء ابني الذي تحجر قلبه ولم يسأل عنا؟ احتارت

الدموع أي منهم تنهمر، فاختارت البقاء في محجرها، وكأن الذي حدث وما يحدث لا تعنيها.

وقت ذهابها مع عريسها، هند احتضنتها لفترة غير معقولة حتى خيل إليَّ بأنها سوف تمسك بها ولا تتركها تذهب معه.

غادرت هي وعريسها مكللة بالدعاء والتوفيق إلى أحد الفنادق لقضاء تلك الليلة ومن بعده ينتقلون إلى شقتها التي لحسن الحظ لا تبعد كثيرًا عن مكان إقامتنا.

منذ مغادرتنا الحفل لم ينقطع عويل هند المسموع حتى طلوع النهار؛ الدار خلت من أعز ما نملك.

على الرغم من تأثرنا البالغ بغياب منير، كان انتزاع فاطمة من بين أحضاننا أكثر إيلامًا وتأثيرًا؛.

البنات عادة يحتلون مساحة أكبر داخل وجدان الأبوين، البنات معجونات بالحنان.

كلما وضعت يدي على قلبي ألمس جرحًا غائرًا يؤلمني، لن يندمل حتى عودة العزيز الضارب في هذه الأرض، لن أهدأ حتى أراه بقربى، قلبي لا يميل إلى أن ما فعله جحود، قد تكون فعلته طفرة عمرية من طفرات المراهقة الخطيرة.

هند قالت لي بأن ابن إحدى صديقاتها ذكر لها بأن منير شوهد في الإسكندرية، وأكملت: لماذا لا نذهب إلى هناك لعلنا نعثر عليه؟!

قلت لها: ليت ما تقولينه صحيحًا،أميل إلى أنها مجرد أقاويل لا أساس لها من الصحة، اسأليه من الذي رآه ومتى وأين، هل تريدينا أن نذهب إلى هناك وتكون حالنا كالذي يبحث عن إبرة في كومة قش؟! هل من المعقول أن نجوب كل حواري الإسكندرية ونمشطها شارعًا شارعًا ونسير في أزقتها ونسأل عنه كل من نقابلهم فردًا فردًا؟! لا نملك دليلاً قاطعًا عن مكان وجوده، إن تحقق لنا ذلك فسوف أذهب في الحال إلى هناك.

نظرت إليَّ بعد أن تنهدت حسرة، وقالت: هل النوافذ كلها سدت في وجوهنا؟

لكي أخفف عنها وأواسيها قلت لها: يا عزيزتي هذه سنة الحياة، سيلهمنا الله الصبر وسوف نعتاد على ذلك بمرور الأيام، كما ترين لقد تعودنا على فراق من نحبهم، قبل أعوام توفي والدك ومرت الأيام وغيره وغيره.

- أنت يا صالح تعودت على أن تقضي معظم وقتك في الخارج، أما انا فطوال الوقت كنت أقضيه معها، كنا متلازمتين طوال اليوم، عيني اعتادت على رؤيتها بجانبي، كانت أنفاسها تملأ الدار دفئًا.
- احمدي ربك على أنها تقطن على بعد دقائق قليلة من مكان إقامتنا بإمكانك الذهاب إليها سيرًا على الأقدام متى

شئتي. ولكن لا تكوني حماة ثقيلة الظل عليه، واختاري الوقت المناسب.

- رمقتني بنظرة يلامسها العتب. وقالت لي : أعرف ما تعنيه، الحموات عادة يسبق ذكر اسمهن كلمة متصلته ونكدية، على الرغم من أن الغالبية تغلب عليهم الطيبة. على ذكر الحموات عندما قمت بزيارة والدتي قبل عدة أيام سألتني عنك، منذ وقت طويل لم تزرها، ما قولك؟ ها هي حماتك تسأل عنك؟

- على ذكرها كيف رأيتيها في زيارتك الأخيرة لها؟ أذكر عندما عدتي من عندها كانت علامات الحزن بادية على ملامحك، وقتها لم تكوني في وضع يسمح لكِ وصف حالتها باستفاضة، فقط ألمحتي لي بأنها تعاني بعض أعراض الشيخوخة وتتحرك بصعوبة.

- ما يحزنني يا صالح أنها تعاني من آلام الروماتيزم الذي تزداد وطأته عليها بمرور الأيام، وشفاؤها منه مجرد وهم، ولا توجد لدينا وسيلة أخرى للتخفيف عن آلامها سوى اللجوء إلى المسكنات التي تتناولها باستمرار.

- قلت لها وماذا عن خالتك التي ترملت هي الأخرى.

- قالت لي: حسنًا فعلت بانتقالها إلى العيش بجانب أختها

على الأقل تبدد شيئًا من وحشتها وتؤنسها وتزيح عن كاهلها بعضًا من أحمال إدارة شؤون الدار، علمًا بأنها هي الأخرى تعاني من بعض العلل مما يجعلها بطيئة الحركة علاوة على أنها تعاني السمنة المفرطة.

كنا في انتظار قادم، فاطمة لم يتبقَ لها سوى شهرين على قدوم مولودها الأول. في هذه الأمسية ذهبت وهند لتناول طعام العشاء في ذلك المطعم الذي جمعنا أربعتنا قبل عدة سنوات.

قبل أن أخطو إلى الداخل أدرت ظهري إلى مدخله، لاأدرى لماذا لم أتحرك من مكانى ووقفت على عتبته وألقيت بناظري يمنة ويسرة، كنت أنظر إلى البعيد حتى آخر الشارع الطويل وكأنني أرقب قادمًا يلوح لي طيفه من نهايته.

هند نظرت إلى وجهي ورأت شيئًا تعرفه، هي أدركت ما بي وسحبتني إلى الداخل مثلما تسحب الأم طفلها من يده عندما يتلكأ في المشي، استسلمت لها ودخلنا وهي ما زالت قابضة على يدي كما لو كانت خائفة من فراري أو امتناعى من الدخول.

جلسنا أحدنا قبالة الآخر لدقائق صامتين ولم يخرجنا من صمتنا سوى النادل الذي وضع أمام كل منا قائمة الطعام. من دون أن تنظر إليَّ وكأنها شديدة الاهتمام بما تحويه تلك القائمة، شرعت في قراءة ما تحويه بصوت أسمعه، هي تعرف ما سأذهب إليه إن أنا تكلمت،

لا تريدني كعادتي أن أعود إلى ذكر أشياء تسحبني إلى تأوهات.

بمرور الأعوام امتلكت فراسة نادرة في قراءة المكتوب على صفحة وجهي.

قبل عدة أيام عندما طرحت عليها فكرة العشاء في هذا المكان تحديدًا ظهر على وجهها التردد وذكرت لي أسماء عدد من المطاعم التي كنا نرتادها من قبل، هي تعرف ضعفي وحساسيتي تجاه بعض الأماكن وجاهدت في أن تبعدني عنها لتدفن أوجاعي؛ تعرف أنني أقوم أحيانًا بنبش الذكريات التي تميل بي إلى الغصة التي تحرقني، هي تعرف أن قلبي ضاق بما لا يطاق.

طوال وقت جلوسنا لم تعطني الفرصة للحديث، كانت تنتقل بحديثها من رواية إلى أخرى، لا تريدني أن أتكلم، كانت تجاهد في جرِّي بعيدًا.

في ذلك الصباح الباكر وقبل أن تشرق الشمس أتانا عماد وأيقظنا من نومنا وزف إلينا نبأ قدوم ابنته البكر وبأن فاطمة تتمتع بصحة جيدة، كان يلهث وهو يحدثنا ولم يمكث سوى دقائق وغادرنا، نحن بدورنا لحقنا به على عجل.

الشمس لم تكن أشرقت بعد، ولكن الحياة أشرقت بإطلالة أول أحفادي، كان فجرًا باسمًا.

قبل أن أخطو إلى داخل غرفتها، في لمح البصر مر شريطًا من

الذكريات الجميلة التي أمسكت بها الأيام وأحالتها ألى ذكريات آلمت قلبى.

عندما اقتربت من المولودة وتفرست في وجهها عدت إلى ذلك الزمن، شيء من الغشاوه ظلل على عيني، رأيت في وجهها ملامح ابنتي فاطمة ساعة ولادتها، رأيت لبنى نائمة بقربها. هزتني الذكرى وطغت الفرحة والتأثر معًا على ملامحي، كعادتها هند مدت إليَّ يد الشفقة لإدراكها بأنني ملت إلى جوانب مألمة ؛ وجهت حديثها إليَّ بقولها: هل رأيت المولودة يا صالح؟! ملامحها شديدة الشبه بفاطمة.

أعرف قصدها، ليس هناك أي وجه للشبه بينهما، نظرت إليها واحتبست الكلمات في فمي وأرتجفت شفتاى وقبل أن تنفر دمعة من عيني نظرت إلى يدي كما لو أنها كانت متسخة واتجهت إلى الحمام وبعد أن أدرت إليهم ظهري، بصوت مسموع: عليَّ أن أغسل يدي قبل أن أحملها.

في سرعة متناهية قمت بغسل عيني عدة مرات متلاحقة لكي أزيل آثار دموع انهمرت بغزارة، حال خروجي, هند الوحيدة من بينهم التي سلطت نظرها إلى حدقة عيني التي مال لونها إلى الاحمرار. هي وحدها تعرف الحالة التي انجرفت إليها.

تمضى الأيام على نسق واحد اعتدناه، بلهفة كنا ننتظر قدوم يوم الجمعة، اليوم الذي يجمعنا بفاطمة وحفيدتي مي وزوجها عماد الذي

أحببناه لطيبته. يأتون صباحًا ويتركونا وحدنا قبل الغروب.

حفيدتي تخطت السنة الثانية من عمرها، قبل قدومهم كنت أعاون هند في تعليق الأرجوحة في سقف الصالة، وفي ركن من أركانها صفت الدمي فوق طاولة زودت بمقعد مناسب لحجمها، هند كانت تحرص على شراء المناسب لسنها, كنا كلما ذهبنا إلى السوق كانت تتركنى وتدخل إلى أماكن بيع تلك الدمى، البعض منها كنا احتفظنا بها من أيام طفولة فاطمة، نقربها لها وهي تبعثرها ونحن نرمقها بسعادة، بعد انقضاء النهار وذهابهم نقوم بجمعها ونحن فَرِحَان.

خلال الأسبوع الواحد هند تقوم بقضاء ثلاثة أيام عند والدتها، تقول لي بأنها في حاجة ملحَّة إلى مساعدتها ولا يمكنها التخلي عنها وتركها وهي في هذه الحالة.

تعود وقد أنهكها التعب، تقول لي بأنها تقضي نهارها كله في الكنس وغسل ما تراكم من ملابس والدتها وعمتها.

هند وقفت بجواري وأمسكت بيدي في وقت عز فيه الابتسام، ليس أمامي إلا أن أمنحها بعضًا من مواقفي الإنسانية التي نهلت منها ممن أحسنوا وأخذوا في التواري من على مسرح الحياة بعد أن أدوا دورهم باقتدار.

خلو الدار من وجودها يعيدني إلى أجواء أيام عشت فيها وحيدًا، أراها قادمة يلوح سوادها في الأفق، تقترب كاقتراب السحب الداكنة

التي تنذر بيوم عاصف ممطر.

كما تعودت عند خلوتى, كنت جالسًا في البلكونة أتسلى بمنظر النيل وأفكر في أشياء تبعدنى عن مكانى. في هذا اليوم زارنى عيسى بعد طول غياب وانتشلنى من وحدتى، بعد وقوفه على حالتي ربت على كتفي وقال لي: يا صديقي كلنا في الهم سواء، إن تركتني أشكي لك فسوف تضطرني إلى البكاء لك.

أمسك بيدي وقال لي: قم بنا نمشي على الكورنيش، فأنا ألجأ إلى هذه الوسيلة دائمًا عندما ينتابي إحساس بأن جروحي في طريقها إلى النزف.

سرنا متمهلين، أخذنا وقتًا طويلاً لا يكلم أحدنا الآخر، سرنا من دون وجهة نقصدها، أخيرًا التفت إليَّ وقال لي: هل تعبت؟

قلت له: لم أكن أشعر بأنني كنت أمشي.. لم أكن موجودًا بقربك.. كنت في مدينة الطائف.. أنت نبهتني.

بعد أن استندنا بأذرعنا على السور الخرساني الذي يطل على نهر النيل، كان كلانا ينظر إلى البعيد ودون أن أنظر إلى وجهه وكأنني أكلم نفسي: ماذا تبقى لي هنا؟ لم يسبق لي أن فكرت في هذا من قبل يا عيسى، هاجس العودة بدأ يكبر عندي، هل لأنني تنبهت إلى أن ما فات أكثر مما تبقى؟ هل لأنني بلغت نقطة متقدمة من العمر؟ لديَّ إحساس بأن خطواتي سترحل بي إلى هناك، ولكن متى؟

التفتُّ إليه: وماذا عنك يا عيسى؟ ألم يخطر على بالك شيء من هذا؟

وضع يده على كتفي ونظر إلى وجهي مليًا ثم أدار وجهه إلى المراكب التي تتهادى فوق سطح النيل وقال لي: الغربة لم ترهقني يا صالح لأنني أعيشها منذ أن فتحت عيني على هذه الدنيا، ما زال لك نفر هناك، فمن لي أنا؟! لم يتبقَ لي هناك إلا ذكرى أليمة، هل تريدني أن أستعيدها؟! رجلاى تسرب في مسامها تراب هذه المدينة.

وهو ما يزال ممسكًا بكلتا يديه بكتفي، ضغط عليها بشدة وهزني وهو يقول لي: لنعد، ذاكرتي محشوه بمواقف أليمة ومثيرة عن تلك الأيام لا تسحبني إليها. وكرر القول: لنعد يا صالح.. لنعد يا صالح.

هند بمرور الأيام أصبحت ملازمة لوالدتها التي أصابها الشلل التام، عليَّ القبول بمكوثها الدائم بقربها ومساعدتها، من غير المعقول تركها والدتها وهي على هذه الحالة. متخوف من قدوم أيام دلالاتها أخذت تلوح في الأفق، لا أريد أن أعود إلى أيام وحدتي، لا أريد أن أعيشها ثانية، إن عادت فسوف تكون أقسى من سابقتها، مضى ما يقارب ستة أشهر وأنا أعيش في شبه عزلة، ابنتي تزورني في أوقات متباعدة، تمكث قليلاً للوقوف على أحوالنا ثم تذهب، لديها ما يشغلها، عليَّ أن أمنحها العذر بعد أن كبر الحِمل عليها بإدخالها ابنتها مي مدرستها وانشغالها في رعاية ابنها كريم الذي تخطى العام الثاني من العمر.

هند تقضي معظم وقتها متنقلة بيني وبين والدتها، كان الله في عونها!

في هذه الأمسية كنت أجلس وحيدًا في كازينو قصر النيل، يااااااه، السنوات جرت بي، عدت بالذاكرة لأعوام مضت. يوم أن قدمت إلى هذه المدينة, كنت قد جلست وحيدًا في هذا المكان الذي لم يتبدل فيه سوى بعض وجوه العاملين، نهر النيل ما زال يجري. تفرست في وجوههم، غادر من غادر، واستقال من استقال، عجلة الحياة تدور ونحن نلف وندور ونعود إلى نقطة البداية، من الحضور إلى التلاشي.

في البداية كنت وحيدًا ومن بعدها أصبحنا اثنين ثم ثلاثة ومن بعدها أربعة، أنا الآن أجلس وحيدًا، عدت كما بدأت.. أعرف أن الأشياء تولد صغيرة قبل أن تكبر وفي نهاية الأمر تبدأ رحلة العودة إلى بداياتها، هل عجلة الحياة أخذت في التدحرج إلى الوراء؟ ماذا جرى لي؟

أعرف بأن هذه هي شرعة الحياة منذ أن وجدنا عليها وعلينا تقبلها.

في تلك الليلة الشديدة البرودة، كانت تجلس القرفصاء بجانبي على الكنبة، بعد أن سحبت الغطاء السميك المشترك بيننا حتى عنقها قالت لي وهي ترتجف:

- يا صالح قبل عام مضى أذكر بأنك قلت لي هل توافقين على مرافقتى إلى مدينة الطائف لنمضى البقية الباقية من عمرنا إن قررت العودة والعيش هناك. في تلك الأيام أمي كانت على قيد الحياة وكنت منشغلة اليد في العناية بها ومشغولة البال بمصيرها، وقتها فقط نظرت إليك ولم أعر كلامك أدنى اهتمام، الآن إن ما زلت مصممًا على العودة إلى أهلك فسأكون برفقتك، لقد فكرت في هذا الأمر بتأني وعمق، يا صالح لم يتبق لي إلا أنت، ياصالح لم يتبقى من العمر اكثر مما ولى ولا يمكننى تكملة المشوار لوحدى.

- نظرت إلى بأشفاق وقالت لي : في الآونة الأخيرة كثر حديثك عن مدينة الطائف، عندما كنت تحدثني عنها أنظر إلى وجهك ألمح في تعابيره أطياف حنين إلى تلك الأرض وبارقة تمني العودة تلمع في عينيك.

- يا صالح إن كنت تتمنى أن تغمض عينك بين بقية أهلك فأنا أشد توقًا إلى مجاورة سيد الخلق الذي عطر أرض يثرب.

فاطمة تعيش في مملكتها مع زوجها ولم تعد تزورنا إلا في أوقات متباعدة، كان الله في عونها ولم يتبقَ لنا إلا الدعاء لها بالتوفيق.

بشيء من الحسرة قلت لهند: منير يبدو لنا أنه قد ذاب في متاهات هذه الأرض، لقد طالت أيام غيبته، إن عاد فسوف يعيش غريبًا بيننا

ولن يمكث طويلاً معنا وسوف يتركنا لأنه تعود على العيش هناك...

قاطعتني قائلة: ليعد أولاً، لنعاود النظر إلى وجهه الذي ألفناه، ليسمعنا صوته الذي حفظناه، دفنت رأسها بين ركبتيها وبكت وأبكتنى معها.

هند تقضي معضم وقتها بقربي، امتد وقت وجودها معي في المحل لساعات، بدلاً من العودة إلى الشقة واختصارًا للوقت والمشقة أصبحنا نجلب غداءنا مما يتيسر من أكل المطاعم القريبة من محيطنا، زاد التصاقنا، لا يفترق أحدنا عن الآخر وكأن كلاً منا يخشى أن يهرب أحدنا ويبقى وحيدًا، عقدة الوحدة والفراق أصبحا يرعبانا. تقلصت زياراتنا ولا نغادر الشقة إلا للمناسبات الملزمة، جل وقتنا نقضيه في الغرفة التي تلتصق بالبلكونة، نطل منها في أوقات متفاوتة إلى الفضاء، بعض الوقت نقضيه في احتساء الشاي ومتابعة البرامج التلفزيونية، في الأوقات التي تكون فيها منهمكة في الحياكة، أعود إلى ولعي وحبي للقراءة، أتناول بشغف ما اختزنته من كتب.

أختلس النظر أحيانًا إليها، ترفع رأسها، تعلو البسمة وجهينا، لم يتبق لنا إلا هذا.

فى وقت أنا في أشد الحاجة إلى المثول بين يديه، خطرعلى بالي الإنسان الطيب الشيخ عبد الرحيم، كيف نسيته؟ لماذا لا أزوره؟ هو

أحد أئمة مسجد الحسين، كنت قد اعتدت منذ سنوات أن أرجع إليه بعد الله عندما أكون تائهًا وفاقدًا الحيلة، لعله كعادته يمنحني الأمل ويمسح على قلبي ويدخل في نفسي الطمأنينة.

في مساء ذلك اليوم بعد أن أديت صلاة العشاء كنت أرقبه إلى أن فرغ من صلاته أقتربت منه، تنبه إلى وجودى بقربه، التفت إليَّ، وكعادته بابتسامته العذبه الوقورة قال لي: ماذا لديك يا ولدي يا صالح؟

دمعت عيني وقلت له: أتمنى أن أرى ابني الذي تاه في هذه الأرض قبل أن تغفو عيني يا شيخ عبد الرحيم.

بعد أن أمسك بيدي بكل حنية وبنبرات صوته الذي يميل إلى الهمس: يا صالح اخشع في صلاتك حامدًا الله وادع له بالهداية، لا تملك إلا هذا، حذاري أن تقع في حفرة اليأس وتدعو عليه، فإن دعوة الأب لأبنائه أكثر استجابة من غيره، ثق تمامًا إن أنت ذهبت إلى الله وتوسلت إليه سيأتيك ابنك وستكون سعيدًا وراضيًا عنه وتقر عينك، لا تجعل عدم رضاك عنه يمس قلبك.

من بعد مضي عدة أيام على تلك المقابلة، كان الوقت عصرًا، دخل عليَّ جاري رزق وكانت علامات الارتباك واضحة على ملامحه، في هذه المرة لم يكن كعادته التي عودني عليها، منذ أن عرفته في كل إطلالة له يكون مبتسمًا وأول كلمة كان يقولها لي:

سمعت آخر نكتة؟

لم ينظر إليَّ، سلط بصره إلى مقتنيات المحل وكأنه يبحث عن شيء، وبكل برود وكأي خبر عادي لا يهمني، وهو لا يزال شاردًا بنظراته عني: كنت أتجول قبل قليل وكأنني لمحت ما يشبه ابنك يسير بين جموع الناس. هل أتى معك؟

ولكونه ممن سكبت لهم أنَّاتي ولمس وجعي جراء غياب ابني، حتمًا لديه شيء لم يقو على البوح به حال دخوله، ربما هو يريد أن يزف إليَّ بشرى رؤيته له ولكنه أرتأى أن تكون على دفعات وتسلسل مضطرد.

وقتها على أثر تقاطر الانتكاسات التي منيت بها ذهبت ظنوني إلى مواقع مظلمة، قد تكون لديه أنباء صادمة، اقتربت منه وأمسكت يده بشدة وقلت له: ماذا تخفي عنى يا رزق؟ أنت لست كما أعهدك، قل لي ما عندك صراحة ولا تخف من ردة فعلي، إن كان ما تحمله سارًا أو غير ذلك قله فقد تبلد إحساسي.

وحتى يطفئ حرارة النبأ بصوت يميل إلى الصراخ المكبوت، منير تركته جالسًا في محلي، صمت بعدها وركز نظره إلى فمي وعيني منتظرًا ردة فعل أو كلمة تصدر عني. في هذه اللحظة شعرت بتراخٍ حل على جسمي وبرودة سرت في كياني وجلست على الأرض.

قبل أن يذهب تفكيري إلى محل آخر، خلال ثوانٍ استرجعت تلك الكلمات التي قالها لي الشيخ عبد الرحيم والتي سوف أتذكرها وتلتصق بي بقية عمري.

الفتى الطيب أيمن وضع بالقرب من متناول يدى كأسًا من الماء وتركنا وخرج من المحل، لمحته ينظر إليَّ من وراء الفاترينة الزجاجية وشفتاه ترتجفان.

بعد أن هدأت قليلاً، قرَّب رزق كأس الماء من فمي وسقاني قليلاً منه، ومسح على وجهي بيده التي بللها وأمسك بيدي وساعدني على الوقوف ووضع ذراعه تحت إبطي وذهب بي إلى محله.

لمحته واقفًا وفي يده لفافة ونظره مصوبًا خارج المحل منتظرًا ما تحمله له عودة رزق، ترك ما بيده وتقدم إليَّ وضمني إلى صدره بشدة.

كانت أول كلمة تفوَّه بها: أرجو أن تتقبل مني هذه الهدية يا أبت. وأكمل فرحًا كما لو كنت موجودًا معه منذ ساعات، لقد اشتريتها من مالي الذي جنيته وكنت محتفظًا بها منذ مدة منتظرًا هذه الساعة لتتناولها اليد التي أحسنت إليَّ ورعتني.

كانت زجاجة عطر هو يعرف أنني أفضلها دون غيرها، حسه قاده إلى هذه المبادرة من أجل أن يبدد التيار العاصف الذي توقع أن يهب على التقائنا وتختلط الفرحة بقساوة اللقاء. هو بهذا نجح بكل

اقتدار في اختزال كل المفردات التي قد ننساق إليها.

بعد أن شكرته خطفتها من يده وبلهفة قربتها من وجهي ونظرت إليها بتمعن وأظهرت فرحتي بها وشممتها وقلت له: يااااااه ألا زلت تذكر يا منير؟! في هذه اللحظة انهمرت الدموع من عيني لأنني حرمت سنوات من قول كلمة يا منير، زمن طويل طويل إذا قيس بميزان الأبوة الحاضنة.

نظرت إلى السيد رزق لأجل أن أشكره على الدور الذي أداه، لم يقوَ على مبادلتي النظر وأنسحب من أمامى، رأيته يمسح دمعة تدحرجت من عينيه وتركنا وخرج من المحل.

قبضت على يد منير وكأنني متخوف من هروبه ثانية وخرجت به قاصدًا منزلنا دون المرور على أيمن الذي لمحته واقفًا ينظر إلينا والابتسامة تعلو وجهه.

التأم شمل الأسرة بعودته وارتاحت القلوب التي كانت منقبضة.

لبينا دعوة منير لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم بعد إصرار منه على أن تكون هذه الوليمة على نفقته بمناسبة زواج أخته التي لم يكن بجانبها في تلك الليلة، وهناك قص علينا كيف قضى السنوات التي غاب فيها عنا، ذكر لنا بأنه لم يذهب بعيدًا ولم يتوه، قال لنا بأنه بعد مغادرته في ذلك اليوم اتجه مباشرة إلى محطة القطار قاصدًا مدينة الإسكندرية، وهناك ذهب إلى منزل خاله محسن الذي استقبله

بحفاوة ورعاه ولم يبخل عليه بشيء طيلة فترة وجوده بقربه بعد أن قص عليه الخطيئة التي التي أقترفها ورجاه بأن لا يخبر أحدًا بمكان وجوده حتى تحقيقه ما يصبو إليه ولحين عودته وهو في قمة نجاحه، لكي نصفح عنه ونستقبله بقلوب صافية.

وأكمل: بأنه خلال تلك السنوات عمل لدى أحد المصانع بوظيفة مندوب للمبيعات وبمرور الأيام ارتقت مراتبه نتيجة أدائه المتميز, واليوم يعود إلينا آملاً الصفح عما اقترفه في لحظة طيش.

مكث عندنا عدة أيام وذهب إلى مدينة الإسكندرية على وعد منه بطلب الانتقال للعمل في مدينة القاهرة في ذات المصنع وبنفس المهنة في الفرع التابع لها في مدينة القاهره.

بهذا تكون فرحتنا قد اكتملت ويكون منير قد أوفى بوعده لأخته للعيش بقربها بناءً على توسلاتها له بقولها: سوف لن يبقى لي في هذه المدينة إلا أنت بعد انتقال أبي وأمي هند إلى هناك.

في خلال شهر واحد وفي وقت قياسي تمت تصفية كل موجودات المحل.

فاطمة بعد علمها بنيتنا الرحيل أصبحت الدمعة لا تفارقها، عندما اقترب موعد رحيلنا معظم وقتها تقضيه بقربنا.

قفزت من مكانها فرحًا وتعلقت برقبتي عندما قلت لها سوف تلحقين بنا قريبًا، زوجك عماد سوف أسعى لأن أجد له مكانًا للعمل

في أحد مستشفيات مدن المملكة إن لم يكن في مدينة الطائف تحديدًا لمزاولة مهنة الجراحة التي يمتهنها.

****

عندما ارتفعت الطائرة بنا آخذة طريقها إلى مطار جدة، كنت ألقي بآخر نظرة لي إلى مدينة القاهرة التي أخذت معالم عمائرها المتناثرة على جانبي نهر النيل تختفي شيئًا فشيئًا إلى أن أخفق النظر في تبين أي أثر لها واختفت تمامًا من بعد اعتلاء الطائرة فوق السحب.

أسندت رأسي على المقعد وأغمضت عيني وعدت بذاكرتي إلى الماضى البعيد، ها أنا أعود بعد سنوات تزيد على الأربعين، مرت متلاحقة كمرور السحب من تحتنا. تذكرت يوم أن قدمت، كنت وقتها يافعًا أقفز بخطواتي، أعود اليوم أتلمس بحذر طريقي قبل أن تلامس رجلي موقعها على الأرض التي يخيل أحيانًا بأنها تهتز، أو أنها الحقيقة بأنني أنا الذي أهتز عندما أسير فوقها. خلال دقائق قليلة استعرضت أحداثًا ومواقف مرت بي، المحزن منها والسار، المبكي والمضحك، لحظات مضيئة وأخرى قاتمة مررت بها.

في هذا اليوم أغادر هذه المدينة التي أمضيت فيها شطرًا لا يستهان به من سنوات عمري، أغادرهم بعد أن اختلط دمي بدمائهم وارتوت عروقي من مائهم وأصبحت واحدًا منهم بعد أن ألفت طباعهم وأحببتهم وأحبونى.

تركت نفرًا أحتضنتهم هذه الأرض الطيبة في جوفها، لم أقوى على البقاء من بعد أن تركونى وحيدًا. كنت شاركتهم أيام نقاء لا تنسى، بقي من بقي والبعض الآخر ووري الثرى ولكنهم لن يتواروا عن ذاكرتي حتى وصولي إلى المنتهى الذي انتهوا إليه.

خلال الدقائق الأولى من وقت إقلاع الطائرة لم أشعر بوجود هند بقربي، أدارت لي ظهرها والتصق وجهها بزجاج النافذة وانشغلت بالنظر إلى الأرض البعيدة والتي تتابع السحب.

أختلس النظر إليها عندما تهتز الطائرة بنا، وقتها تنتفض وتتشبث بكلتا يديها بمقعدها وبحركة لا إرادية تنظر إلى عيني، أعرف ما ينتابها. بعد أن أمنحها ابتسامتي، تطمأن قليلاً وتعاود النظر إلى الفضاء.

استقبلنا أحد أبناء أخي الذي انتقل للعيش في مدينة جدة بحكم تمركز كل أبنائه وبناته فيها، استقبلني وهو مستقر على كرسي متحرك لا يغادره إلا ساعة نومه.

بعد أن ضمني واعتصرني بشدة، أخذ وجهي بين كفيه، وبأعين دامعه قال لي: لنا نصيب في أن نلتقي ثانية ونودع الحياة ونحن متلازمان بعد فراق سنوات، لا ندري كم تبقى لنا من العمر يا صالح ياصالح. لم أسمعه يقولها منذ زمن.

أعاد إليَّ حنيني إلى بداياتي وإلى لحظات لا يتذكرها غيري،

تذكرت ساعة غروب أبي وهو بين أيدينا؛ ارتعش بدني حسرة عندما تذكرت بأن أمي ماتت ولم أكن موجودًا بقربها، قيل لي إنها قبل موتها بثوانى فتحت عينيها وبكلمات هامسة قالت لهم إين صالح، وحين لم يجيبها أحد منهم أغمضت عينيها..

علمت منهم أن أختي لا زالت في مدينة الطائف حيث ارتبط كل أبنائها بأعمالهم فيها ولم يغادروها.

أخي قال لي مازحًا: هي وزوجها من أحجار مدينة الطائف التي لا تنفصل عنها، وهي الآن في انتظار زيارتك لها.

ها هي مدينة الطائف، عدت إليها، مررت سريعًا على بعض شوارعها الحديثة وتوقفت مليًا عند حواريها القديمة، قيل لي حتى طقسها تبدل من البرودة إلى الحرارة وسماؤها بخلت عليها بقطرات الأمطار التي كانت تصب بغزارة عليها في أغلب أيام السنة. المزارع التي كانت قريبة منها وتحيط بها من جميع جهاتها حلت محلها الكتل الأسمنتية الصماء التي تختزن الحرارة في جوفها وتنفثها في وجوه الخلق. لمحت المكيفات الملتصقة بنوافذ بعض منازلها وأدرت وجهي لكي تحتفظ عيناي باللوحة الجميلة التي ما زالت مرسومة في مخيلتي..

لقد تغيرت مدينة الطائف التي حبوت على ترابها وجريت حافيًا في أزقتها, طمست معالمها, حتى البيت الذي شهد مولدي كنت قد

تركته بعد أن بقى صامدًا لسنوات في وجه التقلبات, تناولته المعاول وأزيل وبني مكانه منزل حديث.

وقفت على رأس الشارع، جاهد فكري واستعاد صور بيوتها القديمة وملامح بعض تلك الوجوه الطيبة في ذلك الزمن الجميل.

هناك كان يوجد محل بائع الفول العم سعد الذي كنت أراه معتليًا منصة مرتفعة ينظر إلينا بشموخ ونحن نقف صفًا واحدًا نرتعش بردًا في الصباح الباكر, كان كل واحد منا ينتظر دوره. يعرف اسم كل منا فردًا فردًا. أقف أمامه حاملاً الإناء الذي لا تمل أمي في كل مرة على ترديدها مقولتها التي حفظتها، يا صالح وأنت عائد من عند الفوال انظر أمامك ولا تسحب رجليك ولا تستجب لفضولك المعهود بالنظر إلى من حولك وتفقد توازن يدك وتميل بالإناء وتريق شيئًا من الفول على طرف ثوبك كما فعلت في المرات السابقة، أذكر بأنها كانت مرة واحدة فقط.

هناك في الجهة المقابلة للفوال كانت توجد بقالة العم عائض الذي كان يتحرك ببطء شديد لكبر سنه والذي كنت أراه في أغلب الأوقات مغمض العينان وأسمع شخيره، عندما أقترب منه ويتنبه بوجودي كان يفتح عينيه ويفركها ويبادرني القول: كنت أسبح وأقرأ المعوذتين يا ابني. كان يشير إلى طلبى ويقول لي ارتق فوق ذاك الصندوق وتناوله بنفسك.

وهناك في آخر الشارع محل الفران عبد الرشيد الذي يبدأ عمله قبل أذان الفجر، في أغلب الأوقات كنت أراه مقطب الجبين، كان العرق يتصبب من وجهه عندما كان يدنيه من فتحة الفرن ويمسحه بالفوطة التي لا تفارق كتفه، كان ضيق الخلق، كنا نقف أمامه باستكانة، يندر وجود الغريب بيننا، كل الواقفين من أبناء ذات الشارع أو الشوارع القريبة، وقد لا يتوانى في طرد من يكثر عليه الكلام ويلح في طلبه، إن قلت له بأن الخبز نيئ أو محترقًا لا يتردد في أستعادته منك وقوله : لا ترينى وجهك من الآن فصاعدًا, يافالح خلى أمك تخبز لكم. ولو تفوه أحدنا بملحوظة لا تروق له كان يلكزه برفق بطرف السيخ الذي يلتقط به قرص الخبز، لا يوجد أمامنا سوى الابتسام له لمعرفتنا بطبيعته وطيبته ولعدم وجود فرن آخر قريب.

وفى نهاية الشارع دكان العم أسماعيل النجار الذي كان بطبيعة عمله لا يمل من مراقبتنا ونحن عائدون من المدرسة في وقت الظهيرة, كنت وأغلب أقرانى نتسابق في ألتقاط كسر الطباشيرمن بعد خروج المدرس من الفصل, كنا في طريق عودتنا نحول أبواب وشبابيك بعض البيوت إلى سبورة نكتب ونرسم عليها، وهذا الفعل يثير العم أسماعيل الذي عودنا على رؤيته في كل الأوقات واضعًا قلم الرصاص فوق أذنه مرتديًا فانيلة ومن تحتها إزارًا, كان يخرج من محله وبصوت نسمعه, شايفك يا فلان وسوف أخبر صاحب الدار عنك.

كان يوجد هنا وهناك أشخاص، أين هم؟ لا أراهم، رحل من رحل وانتقل إلى جوار ربه من انتقل.. كنت أراهم في كل يوم. كيف أنسى بعض أولئك الأصحاب، لا يمكن أن أنسى يوم أن كنا نسير حفاة مسافة عدد من الكيلومترات قاصدين إحدى المزارع القريبة التي كانت تحيط بمدينة الطائف، كنا نتعقب العصافير بالنبلة لنصطادها، نتسلق بعض أشجار الفاكهة لنظفر ببعض منها في غفلة من أصحابها، بعد أن نبتعد قليلاً عنها كنا نتقاسمها، لا أعرف لماذا كان طعمها يفوق طعم مثيلاتها التي لا تخلو بيوتنا منها، تلك مقتطفات قليلة من الكثير الذي لا زالت الذاكرة تحتفظ ببعض منها.

لقصر الوقت لم أقابل أيًا من رفاق الزمن الجميل ولم أرهق نفسى في البحث عنهم ليقينى بأنني لن أجد أيًا منهم, أناس لا يمكن للذاكرة أن تسقطهم.

سألت أختي نبيلة عن ابنتي عمتي وعن ابنة خالتي. بكلمات موجزة وذكرى مدفونة في أعماقها وكأنها لا تريدني أن أعود إليهن قالت لي والحسرة بادية على وجهها إن ابنتي عمتي رقية وعاتكة بعد صبر سنوات، باعتا المتبقي من فضلة شبابهما إلى أول من تقدم للزواج منهما، تنهدت وأكملت: زمن طويل لم ترهما عيني ولم أسمع عنهما شيئًا.

ياااااه! عاتكة مر على الخاطر ذكراها، استحضرت شيئًا من صورتها التي كاد الزمن أن يمحوها، عدت سنوات إلى الوراء، لعبنا

وجرينا وراء بعضنا في هذه الشوارع التي تغيرت وتغير أهلها. وإن كانت الظروف قست علينا وفرقت بيننا، لا زلت أتذكرهما على الرغم من أن صورهما اختفت وراء سحب الماضي.

قبل مغادرتي نظرت إلى أختي وقلت لها: ليتني بعد هذه المدة الطويلة من الزمن لم أعاود رؤية مدينة الطائف وهي على حالتها الراهنة، فعلى الرغم من تطور مبانيها واتساع شوارعها، شوهت بفعل الحضارة وعمارة الأرض.

على الرغم من كل الصور التي شاهدتها وخدشت عينى، لا يزال حنيني قويًا إلى مرتع طفولتي، من بعد أن تجولت على معظم أحيائها ضاقت نفسى والتفت إلى ابن أخي الذي اصطحبني بسيارته وقلت له: عد بي إلى مدينة جدة.

وحتى لو أن الأشياء في هذه المدينة كلها قد تغيرت, أملك القناعة التامة بأن الشيء الوحيد الذي لم ولن يتغير وباق ما بقيت هذه المدينة, هو طيبة وحسن معشر أهلها.

اقتنعت بأن الأيام ليست كتلك، وبأن هذا الزمن غير ذاك الذي عبر.

المسافة بين خطواتي أخذت في القصر، اقتربت من ساعة الوصول.

ها هي مدينة الطائف، عدت إليها، مررت سريعًا على بعض شوارعها الحديثة وتوقفت مليًا عند حواريها القديمة، قيل لي حتى طقسها تبدل من البرودة إلى الحرارة وسماؤها بخلت عليها بقطرات الأمطار التي كانت تصب بغزارة عليها في أغلب أيام السنة.
المزارع التي كانت قريبة منها وتحيط بها من جميع جهاتها حلت محلها الكتل الأسمنتية الصماء التي تختزن الحرارة في جوفها وتنفثها في وجوه الخلق. لمحت المكيفات الملتصقة بنوافذ بعض منازلها وأدرت وجهي لكي تحتفظ عيناي باللوحة الجميلة التي ما زالت مرسومة في مخيلتي..

لقد تغيرت مدينة الطائف التي حبوت على ترابها وجريت حافيًا في أزقتها, طمست معالمها, حتى البيت الذي شهد مولدي كنت قد تركته بعد أن بقى صامدًا لسنوات في وجه التقلبات, تناولته المعاول وأزيل وبني مكانه منزل حديث.